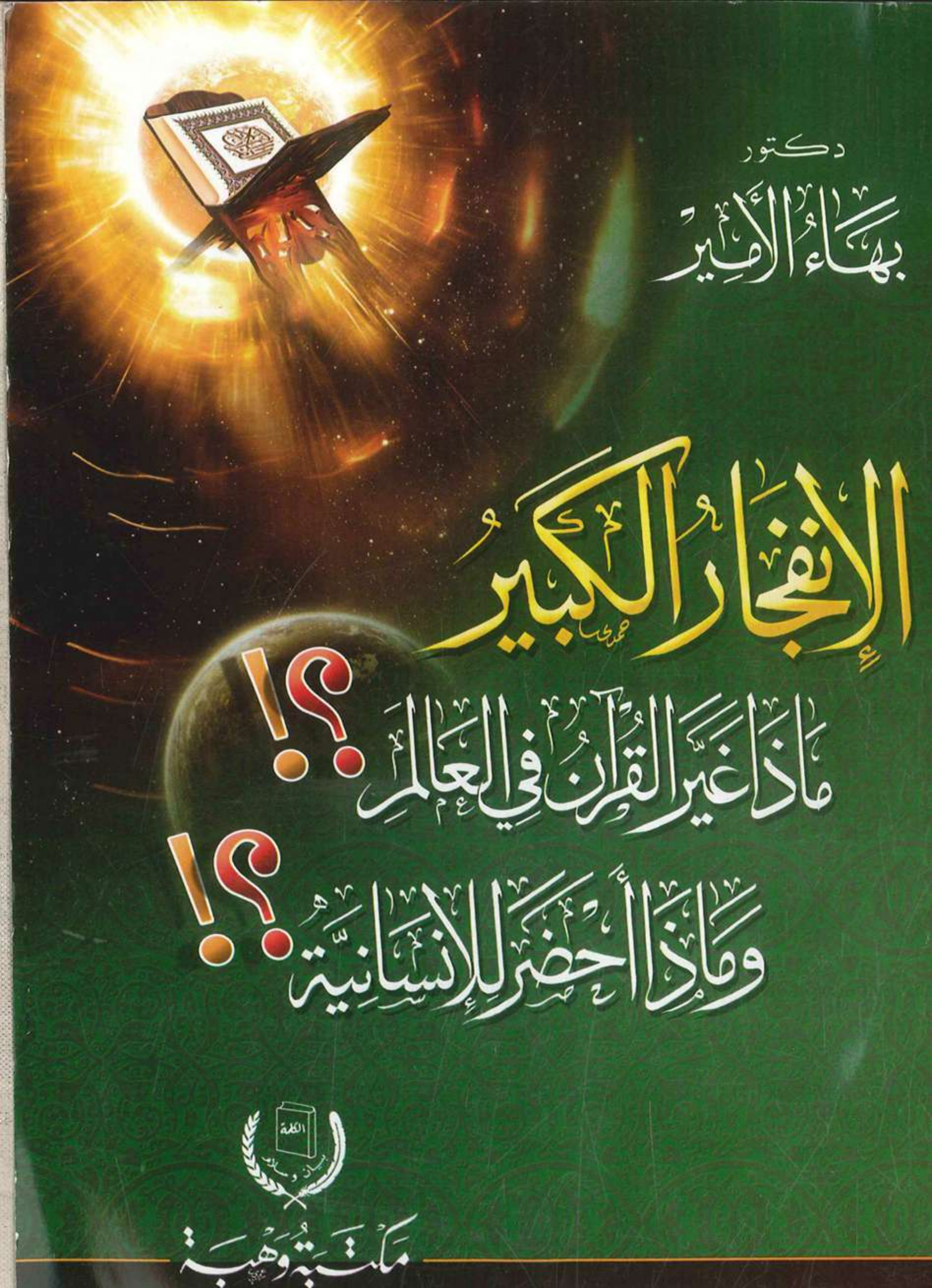

دكتور
بهاء الأمير
الانفجار الكبير
ماذا غير القرآن في العالم؟!
وماذا أحضر للإنسانية؟!
مكتبة وهبة

دكتور
بهاء الأمير

الانفجار الكبير

ماذا غيّر القرآن في العالم ؟!
وماذا أحضر للإنسانية ؟!



الإنفجار الكبير
ماذا غير القرآن في العالم
وماذا أحضر للإنسانية
دكتور بهاء الأمير
الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
٣٥٢ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٢٠١٥/١٠١٨٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N.
978-977-225-420-0



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الأمير، بهاء.
الإنفجار الكبير، ماذا غير القرآن في العالم
وماذا أحضر للإنسانية / بهاء الأمير.-
القاهرة، مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠١٥،
٣٥٢ صفحة؛ ٢٤ سم.
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٢٢٥ ٤٢٠ ٠

١- الحضارة الاسلامية
أ- العنوان

٩٥٣



دكتور

بهاء الأمير





١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٢٧٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي ختم وحيه إلى رسله بقرآنه، ونصبه بين الحق والباطل فرقانه، وجعله لكل شيء تبيانه، واتباعه فيصلاً بين وطاعته وعصيانه.

والصلاة والسلام على من رفع الله عز وجل فى العالمين ذكره، وعصمه من الناس واصطفاه، فكان أول أمره إليه القراءة، وآخر ما نزل عليه تمام الدين وإكماله.

وبعد،

طوال القرن العشرين والإسلام يشهد موجات متلاحقة من الهجوم عليه وتشويه تاريخه وتلطيخ حضارته، يتولى كبرها الغرب ومن أنتجهم هذا الغرب واستوطن عقولهم من مطاياه أبناء الشرق، ومع أواخر القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، ازدادت الحملات على الإسلام وحضارته من الغرب حدة، وازدادت صراعات المطايا داخل بلاده معه شدة.

وبلغت الحملات ذروتها في المحاضرة العامة التي ألقاها بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر، رأس الكنيسة الكاثوليكية، يوم الثلاثاء ١٢/٩/٢٠٠٦م، في إحدى الجامعات بمدينة ريجنسبرج فى ألمانيا عن: «الدين والعقل والجامعة»، والتي استهلها بالهجوم على الإسلام وكَيْل الافتراءات له متدسساً في ثنايا اقتباس اقتبسه من حوار دار فى شتاء سنة ١٣٩١م بين الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوجوس ومثقف فارسي مسلم، نقله عن كتاب للدكتور عادل تيودور خوري، الأستاذ في جامعة مونستر الألمانية واللبناني الأصل، والممتلئ قلبه حقداً على الإسلام وكتابه ونبيه وأهله.

والذى أورده تيودور خوري على لسان الإمبراطور البيزنطي مخاطباً الفارس المسلم واقتبسه البابا ليقول ما يريده متخفياً فيه هو : «**أرني ما هو الجديد الذى أتى به محمد؟ إنك لن تجد إلا كل ما هو سيئ وغير إنساني مثل أنه أمر بنشر الدين الذى جاء به بحد السيف**».

والغرب كله وعلى مدى تاريخه يعاني دائماً ، كما يقول المستشرق البريطانى مونتجومري وات : «**أزمة عدم ثقة بالنفس أمام الإسلام ، وينتابه في مواجهته شعور بالقصور وإحساس بالنقص**»(1).

ومن ثَمَّ :«**كان تشويه الغربيين الدائم لصورة الإسلام ضروريًا لتعويضهم عن إحساسهم بالنقص**»(2) .

فقدان الغرب لثقته فى نفسه واهتزازه أمام الإسلام وفقدانه لعقلانيته واتزانه ، مع شعوره بالعجز فى مواجهته ، علته ، كما فسرها مؤرخ الغرب الأشهر أرنولد توينبي ، ضعف بناء الحضارة الغربية ونواتها المكونة لها أمام بناء الإسلام ونواته المكونة لحضارته وعالمه ، وهو الضعف الذي مكن الإسلام ، على قلة فى العَدد وفقر فى العُدد ، من أن ينتزع قلب الغرب وجل البلاد التي كان يبسط عليها سيادته ، لتصير هي نفسها قلب الإسلام وجل بلاده .

العلة هي ضعف عقائد الغرب وبنيته الفكرية ، وهي بذرته ونواته التي خرج منها وتكون بها ، أمام نواة الإسلام ، وهي بناؤه العقائدي المتكامل ونسيجه الفكري الشامل المتماسك في قرآنه وسيرة نبيه ، مع وعي الغرب بهذا الضعف ورسوخ هذا الوعي في تاريخه .

والغرب ، باباه ومفكروه وساسته ، يتهمون الإسلام ويرمونه بما يعلمون يقيناً أنه ليس فيه ، بل فيهم هم وفى الغرب وتاريخه وحضارته ، إذ الإسلام ،

---

(1) مونتجمرى وات : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ، ص٢٢٦ .

(2) وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص١١٢ .

كما تقول أستاذة الأديان في أكسفورد كارين أرمسترونج : «**أصبح يرمز لكل ما نتمنى أن ننفيه عن ذواتنا**»[1] !!

الغرب يرمي الإسلام بما فيه هو من نقائص ، لأنه يتمنى أن لو كانت نقائصه في الإسلام بدلاً منه ، وأن لو كان الإسلام هو رذائله التي يواريها برميه بها .

الغرب والإسلام كما قالت العرب : رمتني بدائها وانسلت !

فإذا نظر ناظر في وعي أمامه وحوله رأى مصداق حكم أرمسترونج على حضارتها وتاريخها ، فالغرب يتهم الإسلام أنه دين عنف وقتال بينما أساطيل هذا الغرب تحاصر بلاد الإسلام وقاذفاته ومقاتلاته تمطر القذائف والقنابل على أهله ، ويرميه أنه انتشر بالسيف والغرب هو الذي نشر أفكاره وأخلاقه وقيمه وفساده في أقطاره وينشرها بسطوة سلاحه ، وعلى ظهر مدرعاته وفي بطن دباباته ، وبالرشى لمرتزقته من أسافل أهلها .

فليت الإسلام كان له اليوم سيف ، إذاً لما حاصر الغرب أرضه واستباح بلدانه ولا افترى على نبيه وتاريخه كذبه وبهتانه .

والغرب يرمي الإسلام في وقاحة بأنه العقيدة التي تجافي العقل ومقولاته ، وعقائد هذا الغرب والعقل نقيضان لا يجتمعان ، وتاريخه كله هو تاريخ الصراع ضد العقل والنزاع معه .

والغرب يغمز نبي الإسلام لأنه عدّد نساءه ويرمون أتباعه بالشهوانية بينما الناس في هذا الغرب يعاقرون الخمر وغارقون في الشهوات والملذات .

أما ما هو أنكى على الإسلام وأهله من الغرب ، فالنخب المزورة التي صنعها هذا الغرب في معامله ثم وضعها تحت سطوة سلاحه على رأس عالم

---

(١) كارين أرمسترونج : سيرة النبي محمد ، ص٣٧ .

الإسلام وأقعدها فوق صدره ، فهذه النخب هي بلاء عالم الإسلام الحقيقي وهي مصدر نكبته وليس الغرب ومفكروه ومن يسيطرون عليه .

فمع اندلاع ثورة الخامس والعشرين من يناير في مصر ، وفي أتون المعركة التي احتدمت حول هوية مصر ووجهتها بعد الثورة ، تفجر في الصحف والمجلات ، وفى الكتب والكتابات ، وفى البرامج والمسلسلات سيال من الضلال يفتري على الإسلام ويسخر من عقائده ، ويسفه تاريخه ويشوه رموزه ، وهو يستخفي في رداء محاربة التطرف والإرهاب .

فهؤلاء الدجالون يبحثون عمن يمثل الإسلام أو يرفع رايته ويدافع عنها من أحزاب ومؤسسات أو جماعات وجمعيات ، ثم يوجهون السهام نحوها ويتهمون مَن يقومون عليها أو ينتصرون لها بالتطرف والتزمت ، ويصمونهم بالجهل ومعاداة العقل وحرية الفكر والتقدم ، والخروج على العصر وروحه ، فإذا دقق مدقق وتفحص ما يوجهون نحوه السهام ويكيلون له الاتهام ويصمونه بأبشع الأوصام ويسعون إلى تقويضه وإزالته ، لم يجد إلا الإسلام نفسه ، أركانه وركائزه ، وعقائده ومناهجه ، وقيمه وأخلاقه ، وتاريخه وحضارته ، وشرائعه وشعائره .

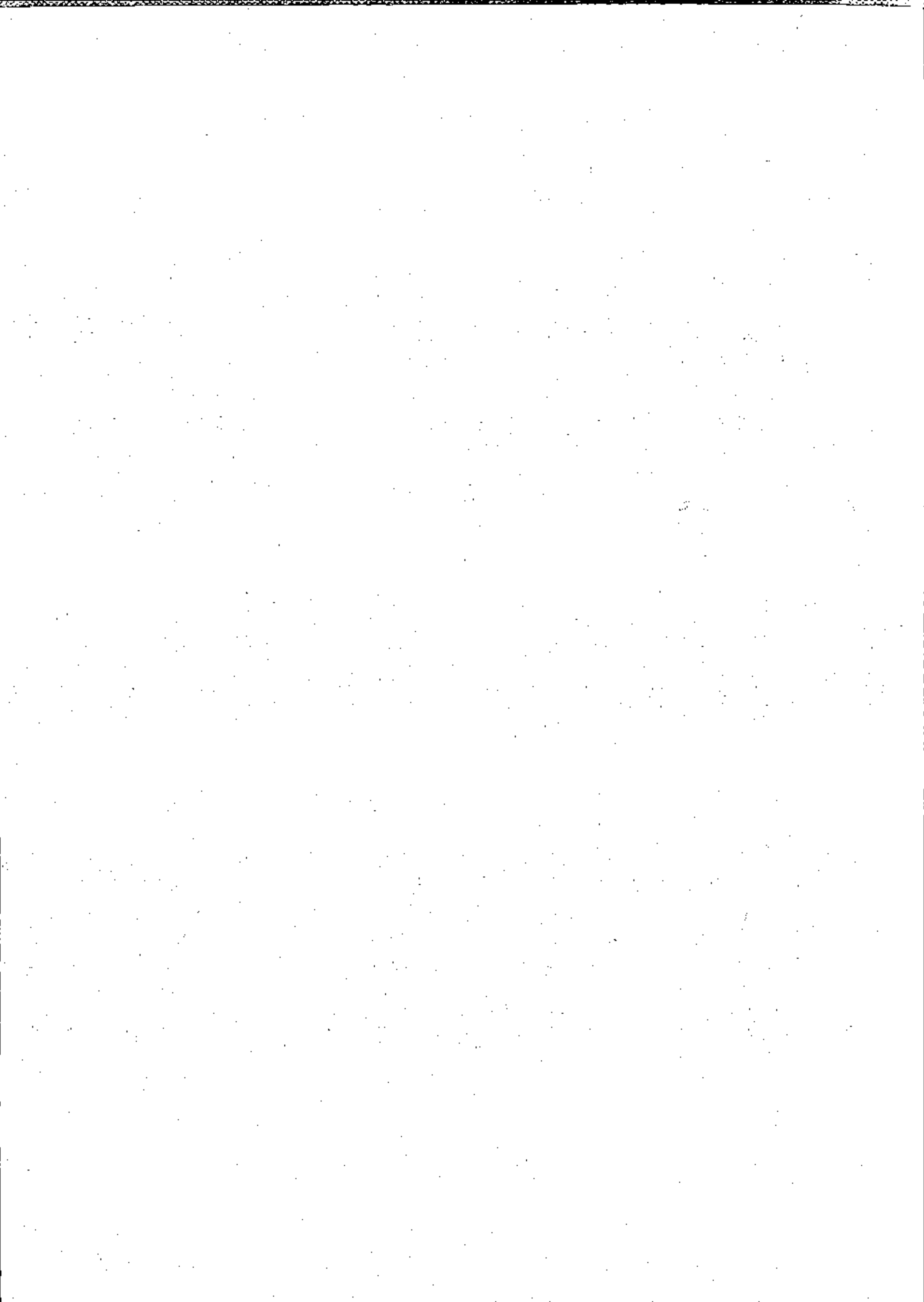
وأما ما هو أعجب من هؤلاء وأولئك ، فأهل الإسلام ممن يقفون في مواجهة الغرب وافتراءات مرتزقته دائماً موقف الضعيف المتهم الذي ضُبِطَ متلبساً ، فهو يتلفت في خزي باحثاً عما يسترضي به من ضبطه ، فيجدُّون في سوق التبريرات والبحث عن الأعذار وتحوير الإسلام ونفي ما لا يكون إسلاماً إلا به ، فدفاعهم خزي ، ونفيهم إثبات ، والاتهامات والافتراءات تصير بتبريراتهم حقائق ، وبدلاً من أن يبصقوا في وجه الغرب ويردوا عليه افتراءاته ويواجهونه بوقاحته ، يشمرون عن ساعد الأقلام لتمييع الإسلام ونزع أسباب فحولته كي يقربوه من الأنثى التي يريده الغرب أن يكونها .

مشكلة العالم الإسلامي الحقيقية في داخله ومع نفسه قبل أن تكون من خارجه ومع الغرب أو غير الغرب ، العالم الإسلامي في حاجة إلى أن يعرف أن ما آتاه الله عز وجل هو الحق ، وأن يوقن أنه هو الحق .

القاهرة في : ١٥ من شعبان ١٤٣٥ هـ

الموافق : ١٤ يونيو ٢٠١٤ م

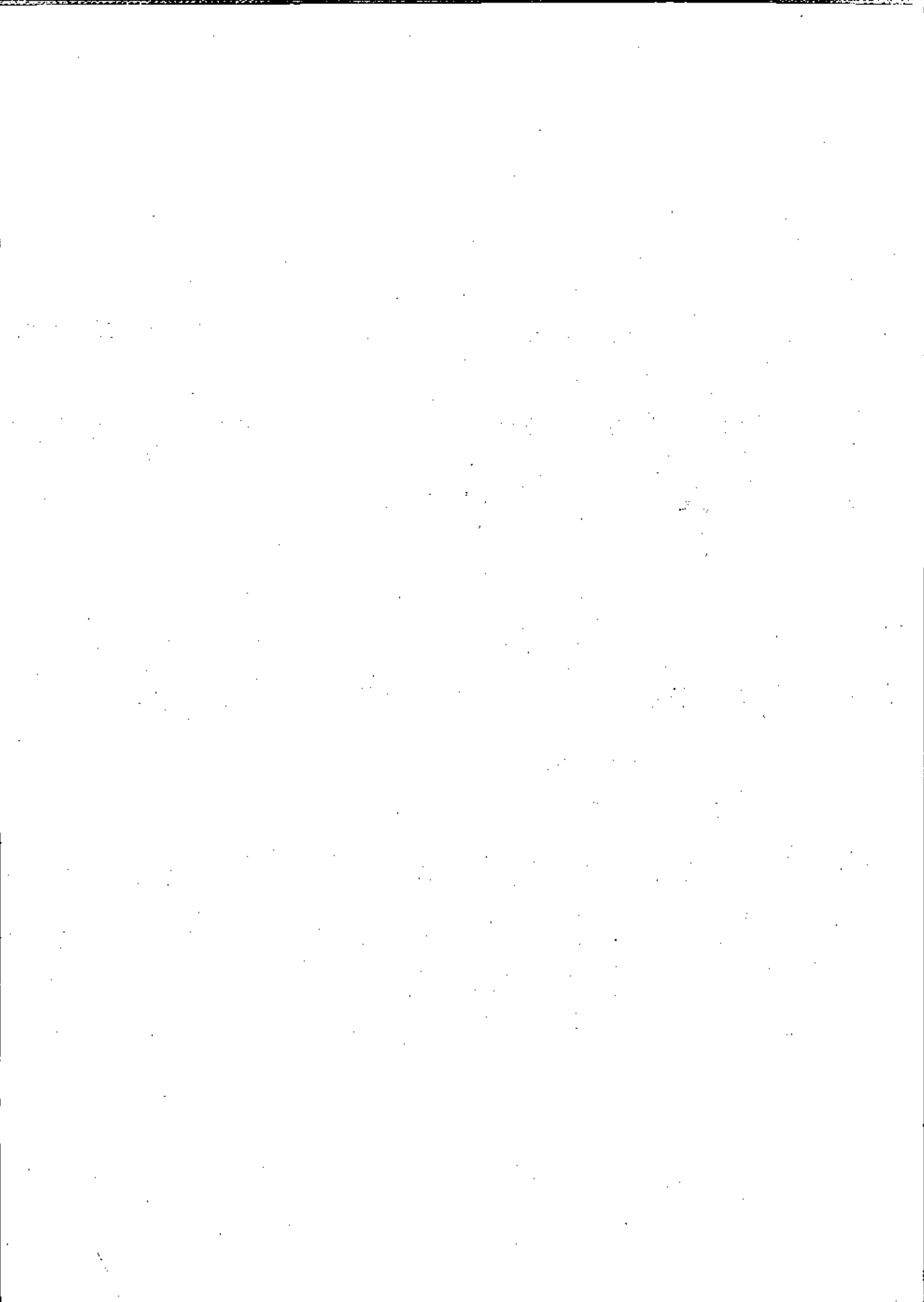
دكتور بهاء الأمير



الفصل الأول

أمـا قـبــل

- هل هذه هى الحضارة الإسلامية
- هل هذه هى الحضارة



هل هذه هي الحضارة الإسلامية ؟

١- السلة :

- الزمان : إحدى أمسيات شهر فبراير .
- المكان : قاعة الندوات والمحاضرات الكبرى بمسجد النور في العباسية .
- الموضوع : لقاء الثقافات في الحضارة الإسلامية ضمن محاضرات الموسم الثقافى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- الواقعة : بدأ السيد المحاضر فأفاض في بيان مدى تفتح الحضارة الإسلامية وأنها خالية من العقد ، وكيف أنها لم تنغلق ولم تخاصم الثقافات والحضارات التى كانت سائدة عصر ظهور الإسلام .

وإلى هنا والكلام بين بين ، يشتمُّ منه من له أدنى فهم وإدراك لبواطن الأمور أن هذه توطئة معتادة يمهد بها المحاضر طريقه فى أذهان الحاضرين ليصل بهم إلى أنه كما أخذ الإسلام في القرون الأولى ، خير القرون ، فلا حرج أن نأخذ نحن من الثقافات والحضارات الحديثة والمعاصرة ، ولو شئنا الدقة من الحضارة الغربية ، اليهودية المسيحية ، تحديداً التى هو ربيب إحدى جامعاتها ، فمفهوم من السياق ومن الأمثلة أنه لا يطالب المسلم المعاصر أن ينظر إلى اليابان مثلاً أو أن ينفتح على حضارة الصين أو جنوب شرق آسيا .

فالمحاضر اللوذعي يتحدث عن الحضارات وعينه وعقله وكلماته كلها تتوحد وتلتقى عند نقطة واحدة لا تبارحها ولا ترى الحضارة فى غيرها ، ألا وهى الغرب .

والكلام ، كما قلنا ، بين بين ، يشتمُّ منه السامع رائحة الآفة السارية في عقل كل المستغربين ، إلا أنه لا يستطيع أن يضع يده على شيء يمسكه على السيد المتحدث ويحاسبه عليه .

الحمد لله ، بسيطة !

ولكن لكي يصل المحاضر إلى غرضه ، وهو أن يقنع الأئمة وطلاب الأزهر المحشودين حشداً لسماعه ، لم يكن له بد من المرور على جثة حضارة الإسلام أولاً .

ولأن السيد المحاضر في مسجد وجاء بدعوة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدل عن طعن الحضارة الإسلامية وتمزيقها بالخناجر ، كما يفعل آخرون ، وربما كما يفعل هو في أماكن أخرى ، إلى منهج : « إن لله جنوداً في العسل» ليميتها سعيدة هانئة راضية هادئة أمام أبنائها المطلوب إعادة برمجتهم .

بدأ المحاضر بالتفتح ، ثم دلف منه إلى أن المسلمين الأوائل لم يستنكفوا أن يأخذوا بالمظاهر المختلفة ، أفكاراً وعلوماً وكل ما وقعوا عليه ، من الأمم المجاورة لهم ، فأخذوا عن الفرس كذا ومن الروم كذا ومن الهند كذا ، وبذلك أقاموا الحضارة الإسلامية وشادوها .

باختصار مبين : الحضارة الإسلامية مجموعة من الرقع المستعارة والمنتقاة والتى شادها أصحابها بطريقة القص واللصق .

ثم وصل المحاضر إلى النتيجة التى أرادها ، والتي ظل يلف ويدور من أجل الوصول إليها ، والتي فتحنا المندل وعرفناها من أول سطر في محاضرته .

وأحس كاتب هذه السطور بشيء من الضيق والنفور من هنا الكلام الذي يقال في المسجد ، رمز الإسلام وحضارته .

ولكنه عاد فقال : لا بأس ، الرجل يريدنا أن نكون أتباعاً لحضارة الغرب ، وفي حضارة الغرب يقول من شاء ما شاء ، ومن لا يعجبه تفتح له الأبواب ليرد هو أيضاً كيف شاء .

قلت : فلنجرب .

وكتبت ورقة إلى السيد المحاضر قلت له فيها : إن هذه المحاضرة الطويلة العريضة لم تزد على أن جعلت الإسلام وحضارته سلة جمع فيها أصحابها كل ما وجدوه في طريقهم من هنا ومن هناك ، فهل هذه هى الحضارة الإسلامية ؟ وهل هذه تكون حضارة أصلاً ؟

ماذا فعل الإسلام ، ما الذي أحدثه وغيَّره ، هل كان أخذ المسلمين الأوائل لهذه المظاهر والوسائل جمعاً سلبيًا ، أين إذاً الفاعلية والصياغة الإسلامية للأشياء التي أعادت تركيبها في منظومتها الخاصة وأعطتها معاني لم تكن لها من قبل؟

ما هو منهج الأخذ وضوابطه ، وهل تستوي فيه الأفكار والعقائد مع الآلات والوسائل ، هل الحضارة الإسلامية ذاتية استفادت من تجارب غيرها أم هى حضارة مسروقة قامت على ما نهبته من الحضارات في البلاد التى فتحها المسلمون كما يقول عتاة المستشرقين ولا يطمع أحدهم ولا يصل خياله إلى أن يقول هذا في مسجد وأمام حشد محشود من أهل الأزهر؟

وطالبت السيد المحاضر أن يعيد التوازن إلى محاضرته ببيان وجوه تفرد الإسلام في حضارته ، ومنهجه في الأخذ ، وضوابطه ، وأثره فيما أخذ ، وكيف أعاد صياغته وصهره داخل نظامه العقائدي والفكري ومنظومته للألوهية والإنسان والكون .

ولم يخيب الجالسون على المنصة ظني ولا علمي بالحضارة الغربية وبذيولها فى الشرق : تفضل السيد الأول مشكوراً فحجب الورقة عن السيد الثاني حتى لا يصل السؤال إلى السيد الثالث !

وزاد الطين بلة أن قام السيد الأول والسيد الثاني باستكمال عملية غسيل المخ التي دشنها السيد الثالث المحاضر .

وازداد ضيقي ونفوري .

وبعد أن انتهت المحاضرة خرجت لصلاة العشاء ، فسكب الله عز وجل عليّ سكينة وأراني في المصيبة نعمة هدأت بها نفسي وسكن وجيب قلبي ووجده ، وأنا أقبل يدي بطناً لظهر وأهمس : اللهم لك الحمد ، قضيت فينا بقضائك فكان طاقم المنصة ألمانيًا ، ولطفت بنا فيه أن لم يكن أمريكيًا أو يهوديًا !

وكل شيء في هذه الأيام جائز !

٢- ساعي البريد :

أستاذ مشهور للفلسفة ، نموذج فج لمدرسة يتناثر أساتذتها وتلاميذها في الجامعات ومراكز البحوث ووسائل الإعلام .

الحضارة الإسلامية عنده ، في كتبه وفي ما يكتبه في الصحف السيارة ، لها دور عظيم وقامت بمهمة حضارية في التاريخ جليلة ، ألا وهي أنها ترجمت علوم اليونان وفلسفاتهم وحافظت على هذا التراث العقلي اليوناني إلى أن انتهت دورتها الحضارية ، فقامت بتسليم الأمانة بكل أمانة وإخلاص إلى الغرب ، قائد المسيرة .

فلأن الأستاذ أمريكاني الهوى مع أنه عراقي اللقب ، الحضارة الإسلامية عنده ليست سوى جملة اعتراضية بين اليونان وأوروبا ، أو بين الغرب والغرب ، أو هي في أحسن الأحوال كساعي البريد الذي تسلم الطرد مقفلاً ، فكانت مهمته الجليلة هي المحافظة عليه وحمايته حتى يصل إلى أصحابه .

ولا يخلو الأمر من لعن التخلف والرجعية والتمسك بالنصوص وإهدار العقل ، فالأستاذ يحب الغرب ويدين له بالولاء والطاعة ، أو هو غربي في لسان عربي ، ولذلك لا يرى في الإسلام إسهاماً في الحضارة ولا شيئاً يمت إليها إلا ما كان ذا صلة بالغرب وأفكاره وفلسفته وعقلانيته .

وكل ما عدا ذلك فلا قيمة له ، وهو ليس من الحضارة أصلاً ولا يصح أن يذكر في سياقها ، هذا إن لم يكن من معوقات الحضارة وعوامل هدمها .

٣- مرحلة طبيعية من مراحل تطور التاريخ العربى :

أستاذ للتاريخ ودبلوماسي عربي ، نموذج لمن يريدون قولبة الإسلام في قوالبهم ويجعلونه مطية لرؤاهم الفكرية ونظرتهم الأيديولوجية .

الأستاذ يطير على جناحي طائر ، فيمجد الإسلام والقفزة والنقلة الكبرى التي أحدثها في ملحمة التاريخ العربى!

وكما لم يجد مدله الغرب في الإسلام وحضارته شيئاً ذا بال يستحق أن يسجل باسمه في تاريخ الحضارة إلا ما مسته روح الغرب المقدس ، لا يجد المؤرخ الدبلوماسي القومي في الإسلام إلا ما منحته له العروبة ورفدته به حفريات البوائد .

ولأن الغرض ، كما يقولون ، مرض ، صار الإسلام وحضارته مجرد مرحلة أو خطوة من مراحل ملحمة التاريخ العربى ، سبقتها مراحل أو أركان متفرقة للحضارة ، حضارة فى اليمن ، وحضارة ثمود حول تيماء ومدين ، والمثلث الحضاري الضخم الممتد من أقصى جنوب الشام وأعلى شمال العراق ، و . . . و . . . ونهضة الجاهلية المظلومة!!

ومن مجموع هذه الحضارات وعناصرها المتفاعلة تكاملت في نهاية العصر الجاهلي عوامل ظهور عقيدة الإسلام .

باختصار ، كان الإسلام : «**مرحلة حضارية طبيعية وتطوراً تلقائيًا في سياق التطور الحضاري العربي وتجمعت فيه حصيلة الحضارات العربية السابقة وتراثاتها الدهرية وتطلعاتها**»[1].

---

(١) دكتور شاكر مصطفى ، مع التاريخ على جناحي طائر ، مجلة العربى ، شعبان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م .

ولأن أحمد مثل الحاج أحمد ، وكله عند العرب صابون ، ليس من المهم أن يفهم أحد كيف يكون التوحيد الخالص خطوة في خط سير الوثنية وعبادة عشرات الأصنام ، ومن غير الوارد طبعاً أن يتساءل أحد : كيف تنتج النفسية صاحبة الرسالة المملوءة بالعزم والتصميم والبسالة في قول ربعي بن عامر لقائد الفرس حين سأله وقد جاءه مبعوثاً من سعد بن أبي وقاص : من أنتم وماذا تريدون؟ : **«نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة»**.

ليس لأحد أن يسأل : كيف تكون هذه النفسية والعقلية النتاج الطبيعي للعربي التائه في الزمان لا يعرف من أين أتى ، وإلى أين هو ذاهب ، ولماذا هو وجد ، فيخاطب الفرس والناقة والجبل والوادي والفلاة فلا يجد رداً على سؤاله إلا رجع خواء نفسه وصدى صوته :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمًّا خوالد ما يبين كلامها

وبهذا المنهج القائم على «الفتاكة» الذي جعل الرسالة السماوية خطوة في مسيرة أرضية ، فلا عجب أن يصير القرآن خطوة تطورية طبيعية ولدت من رحم شعر الجاهلية المظلومة ، وأن يكون محمد رسول الله هو النتاج الفكري لزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت ، وألا تكون الحضارة الإسلامية التي تكونت من بين دفتي المصحف سوى الإنجاز الطبيعي لرؤى وخطط الحزب الهاشمي كما قال تحفة دهره ، القمني .

فنحن في عصر استباحة الإسلام . وهذا شيء طبيعي في هذه المرحلة التاريخية المجيدة ، إذ لابد أن يكون الإسلام مستباحاً فى العصر الذي يبول في أفواه من يستبيحونه اليهود !

* * *

هل هذه هى الحضارة ؟

١- فى مباراة لكرة القدم :

لاعب يخرج وآخر يدخل مكانه ، ويرفع الحكم المساعد لوحة تضيء الكترونيًا بأرقام اللاعبين بدلاً من اللافتات القديمة المكتوب عليها الأرقام بالبنط العريض ، وصوت المذيع الناعم يصف المشهد ثم يعلق بقوله : المسؤولون عندنا لا يتأخرون عن إحضار أي جديد يظهر في دنيا الملاعب .

ثم فجأة يأخذ المذيع الحماس وترتفع نبرة صوته وتزداد نعومته هاتفاً : الحقيقة منتهى الحضارة ، أقول إيه ، أوروبا ؟!

٢- مشهد معتاد مألوف ومتكرر :

المكان : قاعة المحاضرات في أي كلية طب ، أو مؤتمر طبي في أي فندق .

المشهد : الأستاذ يتكلم عن الدراسات والبحوث في الموضوع الذي تدور حوله محاضرته أو كلمته على النحو التالي : ووجدوا أنه . . ولما بحثوا في هذه النقطة . . وما زالت هذه المشكلة لا يعرفون لها تفسيراً . . . وهذه الدراسة سوف تنتهي في شهر كذا المقبل وسوف نطلب نتائجها عندما ينتهون منها . . . وهم يخططون لعمل كذا في المستقبل .

ومن الفكاهات في قاعات المحاضرات : وعلامة هذا المرض أن البول فيه يكون شبيهاً بالبورت واين Port Wine !

وربما يوجد بعض السذج من الطلاب ممن لم تدركهم الحضارة فلا يعرف ما هو هذا البورت واين ، وربما تتمادى السذاجة بأحدهم فيسأل : ما هو هذا البورت الواين الذي لابد أن أعرفه لكي أعرف صفة البول في هذه الحالة المرضية ؟

فإذا كان الأستاذ من القاهرة أو الإسكندرية وعلى القدر المطلوب من الحضارة فسوف يصف له البورت واين ، وإذا كان من الجامعات الإقليمية أو من أصول ريفية فإما أن يدير دفة الموضوع إلى شيء آخر أو يجيب بصراحة : والله يابني أنا كمان مش عارف ، هم كاتبينها كده !

٣- مقتطفات سريعة من دفتر التخلف الحضاري والعقلي :

أ- مصر تدخل نادي الفضاء العالمي وعصر الأقمار الصناعية :

التفاصيل :

- قامت بتصنيع القمر الصناعي شركة ماترا ماركوني .
- وقامت بإطلاقه على الصاروخ إيريان شركة إيريان سبيس .
- وأطلقته من قاعدة كورو الفرنسية في جيانا .

إذًا أين دور مصر الذي دخلت به عصر الفضاء؟

لا تتعجل ، ها هو :

ذهب وفد إعلامي كبير على رأسه وزير الإعلام شخصيًا إلى قاعدة كورو واطمأن على مراحل تجهيز وإعداد القمر ، وجلس لمشاهدة عملية الإطلاق ، وصفق بحرارة وتبادل التهاني مع أعضاء الوفد حين انفصل القمر عن الصاروخ على شاشة الكمبيوتر ، تماماً كما صفق وتبادل التهاني الجالسون للمشاهدة أمام التلفاز في كفر البلاص !

- التتمة : القمر الصناعي الذي دخلت به مصر عصر الفضاء ، النايل سات ، هو قمر اتصالات ذو وظيفة إعلامية ، وقد تأكدت إسرائيل قبل إطلاق القمر من خلوه من أجهزة التجسس !

ب ـ الدكتور أحمد زويل يحصل على جائزة نوبل في الكيمياء :

من التعليقات على الخبر :

- العالم المصري رفع اسم مصر عالياً ، مقبولة !

● أحد المحررين يصف الاكتشاف والجائزة بأنه النصر العلمي الذي حققه لمصر ابن لها!

● اكتشاف دكتور زويل وتكريمه إنجاز حضاري جديد لمصر ودليل على إسهامها الدائم في الحضارة العالمية !

يُفهم مما كُتِبَ عن إنجاز دكتور أحمد زويل ، وهو اكتشافه وقدرته على تسجيل وحدة جديدة للزمن قدرها واحد على مليون من البليون من الثانية (الفمتو ثانية) باستخدام كاميرا تعمل بأشعة الليزر ، يُفهم منه أنه سيؤدي إلى القدرة على تسجيل ومتابعة العمليات الحيوية داخل الخلايا والتفاعلات الكيميائية ، وثورة في فهم قوانين الطبيعة ، وبالطبع إلى ثورة في التكنولوجيا وقفزة ضخمة فى الصناعات المدنية والعسكرية .

دكتور أحمد زويل يستحق الجائزة ، لا شك ، هو علامة فى تاريخ العلم ، نعم ، له أن يتيه هو بذلك ، حقه .

لكن هذا الإنجاز الضخم والفائدة الكبرى والقفزة المدنية والعسكرية هل هي لمصر أم عليها ولأمريكا واليهود ؟!

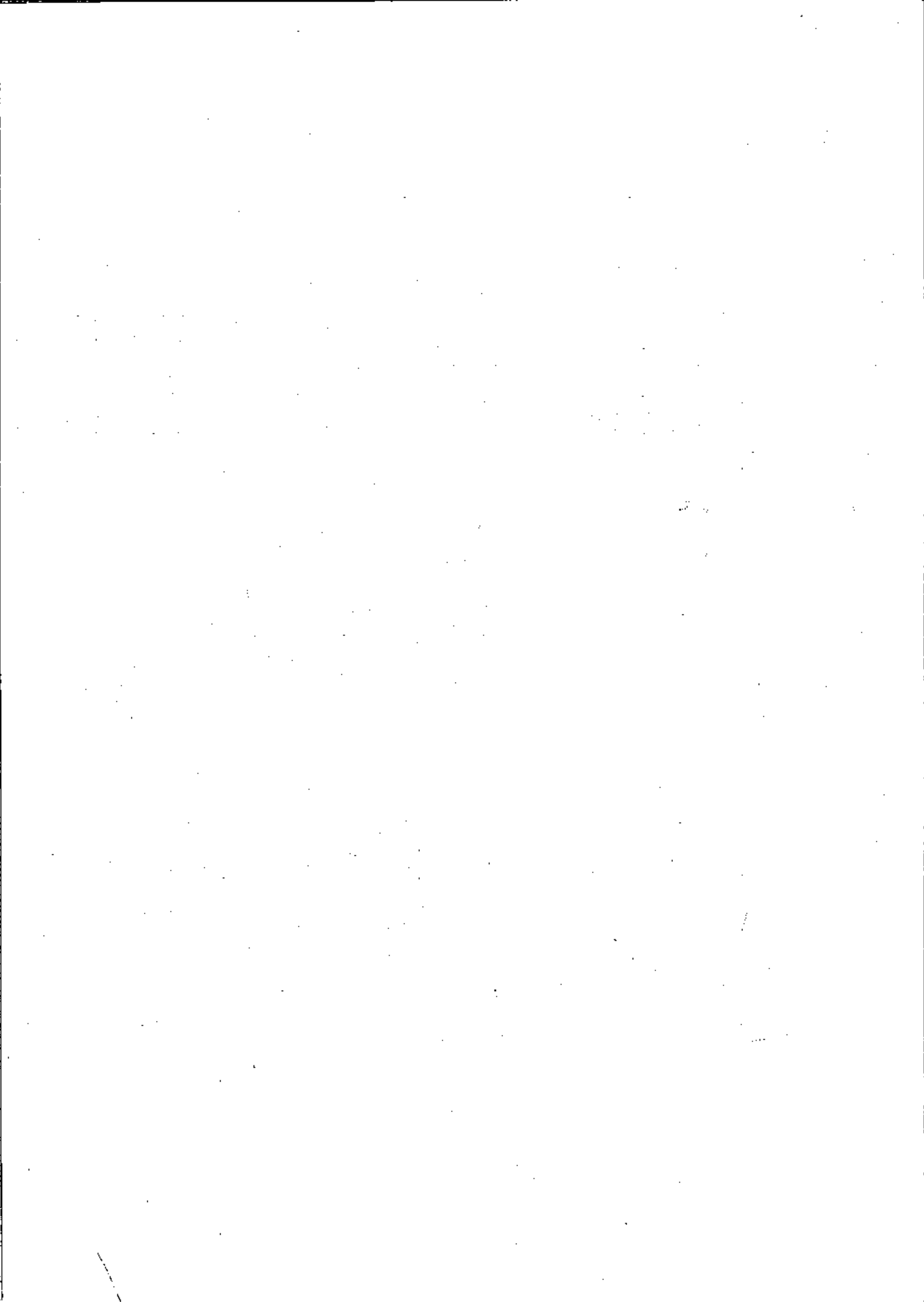
الأمر بصورة طريفة مثل أن يحصل لاعب كرة قدم مصري على الجنسية البرازيلية ، ثم يشارك في كأس العالم وتفوز البرازيل .

ولأن لاعبنا البرازيلي الآن أحرز هدفاً في المباراة النهائية تخرج الصحف والإعلام علينا بأن هذا نصر كبير للمنتخب المصري لكرة القدم .

وتكون الطرفة مأساة حين يكون منتخب مصر هو أحد ضحايا المنتخب البرازيلي في طريقه إلى البطولة .

● التتمة : قام الرئيس الأمريكي باستقبال دكتور أحمد زويل وتكريمه في البيت الأبيض اتباعاً للتقليد الأمريكي الذي يقضي باستقبال الرئيس الأمريكي وتكريمه لمن يحصلون على جائزة نوبل من المواطنين الأمريكيين !!

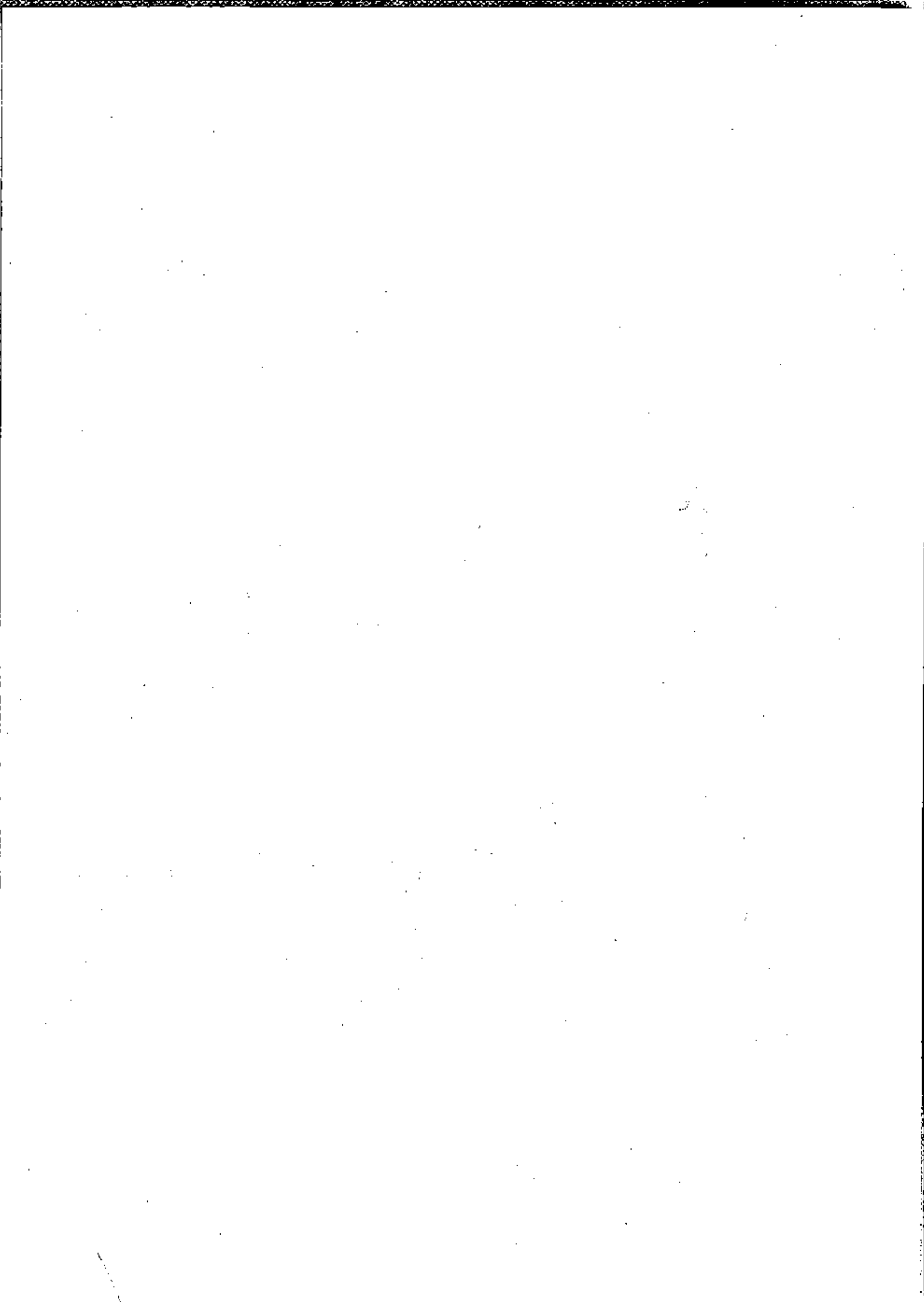
* * *



الفصل الثاني

الحـــضـــارة

- لماذا التعريف
- ركام من التعريفات
- رؤية مستقلة



لماذا التعريف ؟

الحضارة مصطلح لم يستخدم في العصور السابقة بمعناه الذي يستخدم به الآن ، وما يفهمه منه سامعه في عصرنا غير ما كان يفهمه منه سامعه في الماضي ، فهو مصطلح أو كلمة حديثة .

وكل مصطلح حديث يحتاج إلى التعريف حتى يفهم القارئ ما يعنيه الكاتب ويستطيع استيعاب ما يريده والحكم عليه .

ولما كان المصطلح تكثيفاً وضغطاً ومزجاً لعديد من المعاني والإيحاءات والظلال التي تدخل في تكوينه وتركيبه ، ففي التعريف إخراج لما يحمله المصطلح داخله ويتكثف فيه من الظلام إلى دائرة الضوء حتى يمكن رؤيته وفهمه .

على أن هناك سبباً آخر أهم وأكثر خطورة لضرورة تحديد الكاتب لما يقصده من هذه الكلمة أو المصطلح ، الحضارة ، عند حديثه عنها .

وهذا السبب الأهم والأكثر خطورة هو أن كلمة الحضارة قد دخلت ضمن قائمة الألفاظ والمصطلحات المطاطة التي يكيفها من يشاء على قدر ما يريد أن يصل إليه منها ، أو هي أصبحت من الألفاظ الأوعية التي لا يتحدد معناها ولا المفهوم منها إلا بمعرفة ما يملؤها المتحدث عنها به ، بالضبط كأخواتها المطايا التي يسرجها ويمتطيها العشرات والمئات ، وكلٌّ يلوي عنقها إلى الوجهة التي يريدها : الثقافة ، المدنية ، التقدم ، الحرية ، الأخلاق ... إلخ

فما يقصده الغربي حين يتكلم عن الحضارة يختلف ، أو المفروض أن يختلف ، عما يعنيه العربي ، وما يريد أن يصل إليه القومي على جناح

المصطلح غير ما يريده الماركسي غير ما يريده الليبرالي وغير ما يريده الإسلامي .

فكل منهم له نسقه ومنظومته التي ينظر من خلالها للأشياء والأفكار والعلاقات بينها ، والتي على أساسها يتحدد في عقله المعنى الذي يفهمه ويرتضيه من الحضارة ، ويحدد به ما يدخل في دائرتها وما يخرج عنها وما يناقضها .

لذا أن يحدد من يتكلم عن الحضارة ماذا يعني بالحضارة خطوة أولى لا سبيل لإسقاطها أو تجاوزها ، فإذا التقينا معه على التعريف والمعنى الذي يراه للحضارة يمكن أن نناقشه فيما نتج عن هذا المعنى من نظرة للأشياء والأفكار ومن تحديد للمواقف .

أما إذا لم نتفق معه فإن المشكلة حينئذ تكون أصلية مبدئية ، ولا فائدة ، بل هو من السفاهة عندها التناحر حول الجزئيات التي تفرعت عن المعنى الأصلي الجذر الذي هو حينئذ محل الخلاف وميدان المعركة .

ومما يلاحظ أن كثيراً ممن يتحدثون عن الحضارة ، خاصة في مجال مخاطبة العامة ، يتعمدون عدم تحديد ماذا يقصدون بكلمة حضارة كنوع من التدليس ، فهو يتحدث عن الحضارة وفي ذهنه أشياء ومفاهيم ورؤى يعلم يقيناً أن تعريف الحضارة بها وإظهار ماذا يملأ جوفها منه سوف يقابل بالنقد أو الرفض ، أو يكشف الأرضية التي يقف عليها أمام الجمهور السامع أو القارئ فيعمد إلى التعميم والضبابية لكي ينفذ من خلالها إلى عقل المتلقي في يسر ودون موانع مسبقة ، فيكرر ويردد : الحضارة ، الحضارة عشرات المرات ، ونريد الحضارة ، والموت لأعداء الحضارة ، تاركاً كل قارئ أو سامع يفهم منها الجانب الذي يرتضيه ويستعذب الوقع الجميل للفظ على الأذن وفي العقل .

فلن يتحدث أو يكتب أحد يدعو إلى الحضارة ويجد من يعانده أو يرفض ما يقوله أو يستوقفه ليحاسبه ، فكلنا يريد الحضارة حريصاً عليها مستهاماً بها

صبًا ، كما يقول المتنبي ، ولكن ، وكما يقول المتنبي أيضاً ، ما أفهمه أنا من الحضارة وأريده غير ما يفهمه الجالس إلى جواري ويريده غير ما يفهمه كل قارئ في الصحيفة على حدة ويريده ، وتحديداً غير ما يعنيه الكاتب ويريده ويتعمد إخفاءه متمترساً خلف الاتفاق العام على شكل اللفظ أو المصطلح .

ثم يخرج في النهاية ليتاجر بمن يريدون الحضارة ، ويطالب بسحل من يريد هدمها ، دجل من طراز رفيع على حد قول الأب الروحي لكل هذا الطراز من الدجالين ، نابليون .

ومن اللطائف أو من الغرائب أنه في بعض الأحيان يتحدد عند البعض ماذا يفهم من الحضارة وما تعنيه عنده بطريقة معكوسة وبمنهج السير من الخلف إلى الأمام ، باستحضار التعريف من خلال رؤيته وتأثره بالوجه الوحيد الذي تميزت به الحضارة الغالبة ، على طريقة الفلاش باك .

فالمسار الطبيعي هو أن يحدد المرء ماذا تعني عنده الحضارة ، وبناءً على هذا التعريف والتحديد يبدأ في بيان مظاهر هذا المعنى ولوازمه ونواتجه .

لكن ما يحدث في بعض الكتابات ، عمداً أو سهواً ، خاصة تلك التي تتحدث عن آثار الحضارة الإسلامية ، وعلى الأخص أثرها في أوروبا والغرب ، أن الذي يكتب يسير من الخلف للأمام .

فبدلاً من أن يحدد ما هي الحضارة ليحدد آثارها ، ومنها يحدد ما الذي تأثر به العالم أو أوروبا وما الذي لم تتأثر به ولم تأخذه ، وليس ضروريًا أن تؤثر كل مظاهر حضارة ما في أخرى ، فقد تأخذ شيئاً وتدع أشياء ، وقد تقتبس منهجاً أو معتقداً وتعرض عن آخر .

بدلاً من ذلك تستشف من منهج الكاتب أنه نظر أولاً إلى الغرب ، وإلى عقدة كل المهزومين أمامه أو المنبهرين به ، أو مناط قوته وسيطرته : التقدم العلمي والتقنية والإبهار المادي .

فهو يبدأ بتقنية الغرب وعلومه ، ثم ينتقل خطوة إلى الخلف فيبحث عن جذور هذا التقدم العلمي والازدهار التقني في الحضارة الإسلامية ، فينتهي به السير في هذا النفق إلى أن الحضارة الإسلامية وآثارها في العالم هي الزيج والإسطرلاب واكتشاف بعض الأحماض ورسم بعض الخرائط وشروح ابن رشد لأرسطو .

فيصير بذلك كالحصان أو الحمار الذي يضع له صاحب العربة التي يجرها جلدة عريضة على جانبى وجهه حتى يسير في منتصف الطريق ولا يرى بعينيه ما يدور حوله يميناً ولا يساراً .

وهذا المنهج المقلوب الذي يبدأ من النظر إلى ما ازدهر في الحضارة الغربية وارتفعت به وسيطرت بالقوة على العالم ، العلوم الطبيعية والتقنية ، ثم يعتمد على تتبع النقطة التى بدأ منها والسير خلفها في تركيز شديد إلى أن يصل إلى طرف الخيط في الناحية الأخرى ، فينتهى بذلك إلى سجن الحضارة الإسلامية وحصارها في قوالب الحضارة الغربية ، هذا المنهج المقلوب يصدر في الغالب عن ثلاثة :

الأول : الموله المدله الذي يحمل راية الغرب وآباته الروحيين فيه ويريد إدخال الناس في حظيرته ، فيعمد إلى هذا المنهج ليس بحثاً عن تراث آبائه وأجداده ليحييه ، ولا مزهواً بما أنجزت حضارته في العالم ، وإنما لكي يقول لنا إن الحضارة الغربية إنما ازدهرت وتقدمت بما أخذته من حضارتنا من أصول وجذور وبنت عليه ، وهو صحيح ولا يريده .

وعلى ذلك حين يدعونا إلى الأخذ من حضارة الغرب اليوم فهو لا يدعونا إلى خروج عن حضارتنا ولا طرحها ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا ، فيكون هذا المنهج هو التكأة التي يستند عليها في الدعوة إلى التغريب ، والصاروخ الذي ينطلق به من دائرة الجاذبية الإسلامية ، ثم ينفصل عنه ويطرحه بعد أن أنجز مهمته الكبرى في الدجل من الطراز الرفيع .

إذ بعد هذه الخطوة الأولى التي يكون قد حرث بها ذهن القارئ تختلط في منهجه وكلامه التقنيات والعلم الطبيعي بالأفكار والقيم ، ثم يقفز من هذا وذاك إلى النظريات والمناهج والفلسفات وكل ما يحدد شكل المجتمع وطبيعته ونظامه بكل أركانه وعلاقاته .

الثاني : الغربي القُح الذي يعلم تمام العلم أن الإسلام وحضارته ليس مجرد تقنيات ومجموعة آلات أو أحماض اخترعها أو اكتشفها المسلمون ، فهناك شيء آخر أكبر وأعظم ، وهذا الشيء الآخر هو الموجود الحي المتدفق الذي لا يغيض وإن تأخر المسلمون ، ولا تملك حضارة أخرى أن تطويه فيصير من الحفريات والتحف مثل منجزات أي حضارة سابقة ، ومنها حضارة الإسلام في مجال العلم .

وهذا الشيء الآخر الأعظم سلسلة العقائد والمفاهيم والمنظومات والقيم التي غيَّر بها الإسلام وجه العالم ، وأعاد بها صياغة فهم الإنسان للألوهية والكون والحياة وللإنسان نفسه ومعنى وجوده وما يربط بين هذا كله .

وهذا الشيء الأعظم ، إطلاقاً وليس تفضيلاً ، الذي يدركه الغربي هو الذي يكرهه ويتمنى زواله ويحجبه عن دائرة الضوء حتى لا يعود إلى موقعه الفاعل ، إذ به وبآثاره اكتشف المسلمون ما اكتشفوا واخترعوا ما اخترعوا وسخروا كل متاح لهم في الكون ، وبه اكتسح المسلمون آباءه وأجداده ، وبه ، كما يؤمن ويوقن ، سيعود عالم الإسلام لاكتساحه إن عاد إلى مكانه الذي ينبغي له فيه .

فيحبس في منهجه الحضارة الإسلامية وأثرها في العالم في العلوم الطبيعية والآلات حتى لا يخرج المارد من القمقم ، وليظل الباب الذي دخل منه المسلمون إلى العالم ولا دخول لهم إليه إلا منه محجوباً مخفيًا يواريه خلف العلم والتقنية .

وأيضاً لأنه إذا كانت العلوم والآلات هي الحضارة ، فكل ما اخترعه المسلمون واكتشفوه لا يُرى بالعين المجردة إذا وضع إلى جوار ما أنجزته الحضارة الغربية في عقد واحد من عقود القرن العشرين .

فيرضي بذلك كبرياءه ويشفي نفسه ، إذ هو لا يتكلم ولا يسهب في الكلام عن الحضارة الإسلامية ، بل عن حفريات وآثار حضارة كان اسمها الحضارة الإسلامية ، يشاهدها ويبتسم أمامها ويعددها ، لأن وجودها «على الرف» إعلان لموت الحضارة التي أنتجتها وحياة الحضارة التي ورثتها ، فيكون له ولأبناء جلدته العز والفخار والكبرياء ، وفي الوقت ذاته يطوي تحت جناحه المستلبين من أبناء الحضارة التي أصبحت آثاراً وتحفاً ، وتظل شعوب الإسلام التي تساق بهؤلاء المستلبين تتطلع إلى أضواء الغرب في حالة انبهار دائم يحجزها عن الفعل الذاتي .

فلا عجب أن كان العنوان الأثير الذي يختاره الغربيون لما يكتبونه عن حضارة الإسلام وعالمه هو : تراث الإسلام .

فبهذا العنوان كتب المستشرق توماس أرنولد كتابه الرائد عن الإسلام وحضارته وآثاره .

وتحت عنوان : «تراث الإسلام» أصدرت سلسلة عالم المعرفة الكويتية ثلاث طبعات من الكتاب الذي صنفه مجموعة من المستشرقين عن حضارة الإسلام وما تركته للعالم .

ورغم حرص المحقق والمعلق ، دكتور شاكر مصطفى على تأكيد أن كلمة : «تراث» في عنوان الكتاب (The Legacy of Islam) لا تُفهم في الغرب ولا يجب أن تفهم هنا بمعنى الإرث الذي مات صاحبه ، فإن هذا التطوع من الدبلوماسي العربي والمؤرخ القومي للدفاع عن المؤلفين بالتمحك في ما يفهم من الكلمة في الغرب اعتماداً على عدم معرفة القارئ العربي به لا يغني عنه ولا عن المؤلفين شيئاً ، ولا يهز من قناعتنا بل يؤكدها .

والفيصل بيننا وبينه وبينهم هو ماذا تعني الكلمة بالفعل في لغة أهلها الذين يخاطبهم المؤلفون وماذا يرد على أذهانهم عند سماعها ، لا ما يريد لنا الدكتور أن نفهمه .

Legacy معناها عند أهلها هو :

"Money and other things received at the death of another person" (1)

أي : المال والأشياء الأخرى التي يرثها شخص عند وفاة شخص آخر .

أو : "Somethings remaining".

أي : المخلفات .

فالترجمة الدقيقة لعنوان كتاب عالم المعرفة ، ولكتاب السير توماس أرنولد من قبله هي : تركة الإسلام أو مخلفاته .

وأما الثالث : فهو المسلم الذي ليس بالغربي ولا المستغرب ، ولكنه يقف أمام الغرب وقفة المهزوم نفسيًا وعقائديًا .

ولأنه مهزوم أمام الغرب فهو يواسي نفسه ويعزيها بأن تقدم الغرب وازدهاره إنما استعان فيه بما أخذ من حضارة الإسلام ، فيسجن حضارة الإسلام وتختزل آثارها في عقله في الآلات والعلوم دون وعي منه لتكون بذلك صاحبة فضل على معرفة الغرب التي هو مهزوم أمامها .

فهو إثبات للفضل من باب التنفيس عن الهزيمة والإحساس بالضعف .

● **وقفة ضرورية :**

تأسيساً على ما سبق ، هل الكاتب ضد العلم أو يدعو إلى نبذ التقنية ، أو هل هما معا ليسا من الحضارة ، وهل نهمل تراثنا العلمي ولا داعي للبحث فيه ولا الحديث عنه لنكون أقوياء غير مهزومين ولا مستغربين؟

بكل يقين : لا .

بل نحن في أشد الحاجة لأن نأخذ بالعلم والتقنية ، لكن المسلمين لن يصلوا إليها ، مهما حاولوا ، إذا كانت هي الهدف والمقصد والغاية أو هي

---

(1) Oxford Keys, p325

المحرك والدافع ، وإنما يصلون إليها من باب استعادة النظام الشامل والمنظومة المتكاملة التي أوجدها الإسلام،وبها وعن طريقها دخل المسلمون إلى التاريخ، وكان ازدهار العلوم فرعاً هي أصله ، ولا يمكن للفرع أن يوجد فضلاً عن أن يحيا دون أصله .

وحالة العلم والبحث العلمي فى بلادنا خير برهان .

والعلوم والتقنية وجه من وجوه الحضارة ، ولكنها ليست هي الحضارة ، وإذا كانت أوروبا قد بعثت من رقادها بالعلوم والتقنية فصارت هي الحضارة ، ولا يعرف أهلها من الحضارة غيرها ، فليس ذلك شأنها في عالم الإسلام الذي أعاد صياغة الوجود كله ، وأعاد تنسيق عناصره وهندستها في إطار واحد متماسك مترابط له غاية ومرجع ، وله منشأ وبداية ، وله منهج وسيرة .

فنحن في حاجة ماسة إلى معرفة تراثنا في ميدان العلوم والتجربة وعمارة الدنيا ، لا لننفس عن ضعفنا ونعزي أنفسنا بأن الغرب الذي قهرنا إنما قامت حضارته على أكتاف حضارتنا ، ولكن لنعرف المنبع الذي نشأت منه هذه العلوم ، والطاقة التي دفعت العمران والمنهج والنظام العقائدي والفكري الذي صاغها ومكانها منه وعلاقتها به ، لنعيد للعلوم وجهها الإسلامي ونستكمل مسيرة أسلافنا العظام .

بإيجاز ، نحن بحاجة ماسة إلى نزع المنظار الغربي عن عيوننا لنرى الأشياء على حقيقتها لا كما انطبعت صورة الغرب عليها .

وبإيجاز أكثر ، لكي يستعيد المسلمون الحضارة والعمران والعلم والتقنية التي يحلمون بها حلم العاجزين ، لابد أولاً أن يستعيدوا البناء الذي شاده الإسلام في العقول والنفوس ، ويعيدوا اكتشاف نظام الإسلام للكون والإنسان والحياة والعلم ، لا سبيل لذلك إلا بهذا .

ركام من التعريفات

- الأنثروبولوجي : «يقصد علماء الأنثروبولوجيا بالحضارة الإشارة إلى ثقافة تقف موقف التعارض أو التقابل مع الأفكار والقيم والأوضاع العامة السائدة في ثقافات الجماعات البدائية ، وعلى ذلك ، فالحضارة بالمعنى الدقيق للكلمة تصدق في نظرهم على النماذج الثقافية التي تتميز بالتغاير والتفاضل العضوي والاجتماعي والأبنية الاجتماعية المعقدة التي تتلاءم مع هذا التغاير والتفاضل»[1].
- إدوارد تيلر : «الحضارة هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع»[2].
- ول ديورانت : «الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على زيادة إنتاجه الثقافي بعناصر أربعة :

  ١- الموارد الاقتصادية ٢- النظم السياسية ٣- العقائد الخلقية

  ٤- متابعة العلوم والفنون»[3].
- دكتور حسين مؤنس : «هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ، سواء أكان ذلك المجهود المبذول للوصول إلى تلك

---

(١) دكتور أحمد أبو زيد : الحضارة بين علماء الأركيولوجيا والأنثروبولوجيا ، عالم الفكر ص ١٥ ، أكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٤م .

(٢) دكتور عفت الشرقاوى : في فلسفة الحضارة الإسلامية، ص١١ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ٩/١ .

الثمـرة مقصوداً أو غـير مقصـود ، وسـواء كانت الثمـرة ماديـة أو معنوية»[1].

● ابـن خلـدون : «الحضـارة هـي تفـنن في الـترف وإحكـام الصـنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية . . . والحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضـروري مـن أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاً غير منحصر»[2].

● المعجم الفلسفي : «الحضارة Civilization عند المحدثين لها معنيان :

١- المعنى الموضوعي : وهو إطلاق لفظ الحضارة على جملـة مـن مظاهر التقدم الأدبي والتقني والعلمي والفني تنتقل مـن جيـل إلى جيل في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات متشابهة ، ولكل حضارة نطاقها Aire وطبقاتها Couches ولغاتها Languages ، فنطاقهـا هـو حدودها الجغرافية ، وطبقاتها هي آثارها المتراكمـة بعضـها فـوق بعض في مجتمع واحد أو عدة مجتمعات .

٢- المعنى الذاتي المجرد : وتطلق على مرحلـة سـامية مـن مراحـل التطور الإنساني المقابلة للمرحلة الهمجية أو التـوحش ، أو تطلـق على الصورة الغائية التي تستند إليها في الحكم على صـفات كـل فرد أو جماعة ، وبعض العلماء يطلق لفظ الحضارة على اكتسـاب الخلال الحميدة ، وبعضهم يطلقه على نتيجة هـذا الاكتسـاب ، أي على حالة من الرقي والتقدم في حياة المجتمع بكاملـها ، ويطلـق لفظ الحضـارة أحياناً على مظاهر التقدم العقلـي والمـادي معـاً في مقابل إطلاق الثقافة على التقدم العقلي وحده»[3].

---

(١) دكتور حسين مؤنس : الحضارة ، ص ١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٩١ ، ٤٠٧ .

(٣) دكتور جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، ١/٤٧٦ ، ٤٧٧ .

• معجم ويبستر : الحضارة ـ المدنية Civilization :

1- A relatively high level of cultural and technological development, specifically the state of cultural development at which writing and keeping of writing records is attained .

١- مرتبة عليا نسبيًا من التقدم الثقافي والتقني ، وبالتحديد المرحلة الثقافية (الحضارة) المتقدمة التي تمكنت فيها البشرية من معرفة الكتابة واستخدامها .

2- The culture characteristics of a particular time or place .

٢- الخصائص الثقافية (الحضارية) لمرحلة زمانية معينة أو مكان معين .

3- Refinment of thought , manners or taste .

٣- تهذيب السلوك وصقل الفكر والتذوق .

4- A situation of urban comfort .

٤- حالة من الراحة والرفاهية الحضرية (المدنية) [١] .

• لسان العرب : «الحضور نقيض المغيب والغيبة ، حضر يحضر حضوراً وحضارة ، وكلمه بحضرة فلان وبمحضر منه أي بمشهد منه ، والحضر خلاف البدو ، والحضر والحضرة خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف ، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار ، والحاضرة والحاضر الحي العظيم أو القوم ، وقال ابن سيدة : الحي إذا حضروا الدار التي بها مجتمعهم ، ويقال للقيِّم على الماء حاضر وحضر ، ورجل حضر يتحين طعام الناس حتى يحضر» [٢].

---

(1) Webster's ninth new collegiate dictionary, P . 244 .

(٢) ابن منظور : لسان العرب ، ٤/١٩٦-٢٠٢ ، مادة حضر .

وقفة منهجية :

١- الترتيب مقصود : فقد بدأ بتعريف الحضارة اصطلاحاً عند الغربيين ، ثم عند العرب ، ثم التعريف والأصل اللغوى الغربي للكلمة والأصل العربي لها .

٢- يتداخل مصطلح الحضارة تداخلاً شديداً ويشتبك مع مصطلح الثقافة ، وكلاهما أوروبي المنشأ . وقد يستخدم أحدهما بديلاً عن الآخر أو معبراً عنه أو عن كليهما معاً كما أشار دكتور أحمد زيد وصاحب المعجم الفلسفى ، بل إن معجم ويبستر يستخدم ثقافة Culture لتعريف حضارة Civilization .

٣- الحضارة مصطلح ، والمصطلح كما أشرنا من قبل ليس كلمة عادية ، ولكنه لفظ مشحون بالمعاني المختلفة المتضاغطة والممتزجة في داخله ، والتي لا يفهم إلا بمعرفتها ، ولأن الكلمة كمصطلح حديثة وهي نتاج الفكر الغربي ، فإنها تحمل من المعاني ما لا يمكن فهمه إلا بالعودة إلى أصلها الأوروبي Civilization ، والتي ترجمتها الأدق هي المدنية ، وهو المعنى الذي يحمله جذر الكلمة في صورها الأخرى .

فـ Civilian هو المدني أو الشخص الخاضع للقوانين المدنية أو يعمل بالوظائف المدنية ، ووضعها قبل كلمة Engineer يعني أنه مهندس مدني لا حضاري ، فمعنى الكلمة هو وصف لأحوال قاطني المدن .

ويلاحظ أن مقابل الكلمة الأوروبي هو العسكري ، فمعجم ويبستر ينص على أن Civilian هو الذي لا يخدم في القوات المسلحة Not serving in the armed forces

٤- معظم ، إن لم يكن كل ، تعريفات Civilization الأوروبية والحضارة العربية ، التي هي صدى للتعريفات الأوروبية ، تتحدث عنها على اعتبار

أنها حالة نشأت من أخرى أو تلتها ، تتسم السابقة بالتخلف والانحطاط واللاحقة بالرقي سواء كان ماديًا أو عقليًا أو معنويًا أو نفسيًا أو اجتماعيًا .

وعلى هذا يُنظر إلى الحالة أو المرحلة الناتجة وصفاتها وآثارها في المكان والزمان والأشخاص على أن هذه هي الحضارة،أو بتعبير دكتور حسين مؤنس : الحضارة هي الثمرة .

٥- عرف ابن خلدون الحضارة بأنها التفنن في الترف ، وأنها : «أحوال زائدة على الضروري» ، ثم جعل هذا الترف وهذه الزيادة سبباً لخراب المجتمعات وزوال العمران وانهيار الأمم ، فهذا الترف والتأنق : «**يتبعه طاعة الشهوات ، فتتكون النفس في تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ودنياها**»[1].

فكأن الحضارة عنده التي هي سكن الحواضر خلاف البوادي وما يتبعها من ترف ورفاهية وتأنق مرحلة في خراب العمران ، وذلك على خلاف المفهوم من كل التعريفات الأخرى التي تجعل الحضارة هي الحالة الأرقى وهي غاية العمران ومنتهاه ، وإن كان يفهم ضمناً أن هذه الحالة لابد أن يتبعها تدهور وانحلال .

أو بصورة أخرى ، كأن ابن خلدون ينظر إلى الحضارة من جهة ما يلحقها ، والتعريفات الحديثة تنظر إليها من جهة ما يسبقها ، مع اختلاف معنى الحضارة عند ابن خلدون عن الآخرين .

* * *

---

(١) المقدمة ، ص ٤١٠ .

رؤية مستقلة

هل هناك شيء يمكن أن يجمع هذه التعريفات كلها معًا ؟

هل نحن نحاول إنشاء تعريف جديد؟

لم لا !

فإن لم يكن جامعًا مانعًا كما يقول أهل المنطق ، فليكن على الأقل منهجنا الذي نبني عليه نظرتنا إلى الحضارة عامة ، وإلى الحضارة الإسلامية وآثارها في الإنسانية خاصة . أو فلنقل إنها رؤية مستقلة وفهم خاص للحضارة .

تشترك تعريفات الحضارة كلها ، كما رأينا ، في شيء واحد رغم اختلافها وتباينها الشديد بين الأركيولوجي والأنثروبولوجي ، وبين المادي والروحي ، وبين الغربي وابن خلدون وابن منظور .

وهذا الشيء الذي تشترك فيه كل التعريفات هو الخروج أو الانتقال من حالة إلى حالة أو من مرحلة إلى مرحلة ، تكون الأولى أدنى من الثانية وأقل رقيًا وسموًا بالإنسان ، ماديًا أو اجتماعيًا أو روحيًا أو عقليًا .

بل إن هذه التعريفات كلها تشترك مع الأصل اللغوي في هذا الانتقال وهذا التحول ، فالحاضر ليس قاطن الحاضرة ، ولكنه الذي حضر من البادية ، أي تحول وانتقل منها إلى الحاضرة ، وهي صارت حاضرة بتغير حدث فيها ، وهو أن سكنها الأهل وقروا فيها بعد أن لم يكونوا فيها .

والحضور ، نقيض الغيبة أو المغيب ، تحول وانتقال من حالة الغيبة إلى حالة الوجود والشهود .

و Civilization الأوروبية يجمعها مع حضارة العربية أنها تغير لسكنى المدن ، و Civilian هو الذي تحول من العسكرية إلى المدنية .

لذا إذا كان بعض الباحثين يرى أن الحضارة هي : «**الاستقرار والقرار**[1]» ، فإننا نرى أن الحضارة ليست هي الاستقرار ولكنه التغير والتحول الذي أنتج هذا الاستقرار ووطد له ، أو هي التغير وما نتج عنه من استقرار في وحدة واحدة .

إذ لو كانت الحضارة هي الاستقرار بدون هذا التغير والتحول لما حدث الخروج من حالة إلى أخرى ، ولا من درجة إلى أرقى منها ، ولما فُهم من الحضارة إلا أنها تثبيت أوضاع قائمة وحالات موجودة .

فالحضارة ، عندنا ، ليست هي العلوم والتقنية ، ولا هي الازدهار والرفاهية ، ولا هي المنجزات العقلية أو الفكرية أو المادية ، وإنما هي التغيير وعملية الخلق والتحول التي أنتجت هذا كله أو بعضه .

ولا يصح أن تطلق الحضارة على المنجزات والنواتج إلا بقدر ما تحمل هذه من بصمة الأصل وما يظهر عليها من آثاره فيها .

ونصيب كل أمة من الحضارة هو بقدر ما غيرت في مسيرة الإنسانية وعدلت في مسارها وأخرجتها من حالة إلى حالة .

فالحضارة التي غيرت مسار العالم وقفزت بالتقنية هي حضارة بقدر هذا الوجه الذي غيرت منه ، وتقدر حضارتها بمجموع آثارها في نواحي الإنسانية كلها سلبًا وإيجابًا .

والحضارة التي اكتشفت قديمًا الزراعة هي حضارة بقدر هذه النقلة في تاريخ البشرية ، وربما أصبحت الزراعة التي هي نتاج هذه النقلة ، فيما بعد ، من آثار الحضارة ، أو ربما حتى لم تعد من أوجه الحضارة مطلقًا ، ولكن تظل النقلة والتغيير الذي أتى بها هو الحضارة .

---

(١) الأستاذ محمد هيشور : سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها ، ص٦٣ .

والحضارة التي أعادت صياغة معنى الألوهية والإنسان والدنيا والآخرة والمعرفة في نسق متفرد غير مسبوق هي حضارة ، وحضارتها هي بقدر هذه النقلة الجبارة في عقل الإنسانية وفى نفسها ومسيرتها .

وآثار هذا النسق المنفرد وهذه النقلة على مظاهر الحياة والعلم والعمران مرحلة تالية ، هي نواتج التغيير ، وليست هو .

فإذا كان الدكتور حسين مؤنس قد عبر في إيجاز بليغ عن نظرة معظم المؤرخين للحضارة بأنها ثمرة ، فإننا نرى أن الحضارة هي ما أنتج هذه الثمرة وأخرجها للوجود وليست هي نفسها .

وربما وقعت الثمرة أو أعطبها الزمن وتظل الحضارة التي أثمرتها قادرة على إثمار غيرها لا ينضب لها معين ولا يجف لها أصل .

وتبقى أمامنا مشكلتان :

الأولى : هي أن لفظ تغيير أو تحول يكاد يكون أقرب في الذهن إلى المعنى السيئ منه إلى المعنى الحسن ، ذلك أن التغيير هو : « **جعل الشيء على غير ما كان عليه** »[1] .

ويُفهم منه تحويل الشيء عن حالته الأصلية أو الحقيقية ، التي هي بالضرورة الأفضل لأنها حالة الخلق .

ومع ذلك نقول : قد يكون الشيء على ما هو عليه ، وما هو عليه في المرحلة التي يتغير فيها ليس بالضرورة هو حالته الحقيقية أو الأصلية ، بل ربما كانت حالته التي طرأت عليه أو اكتسبها بأثر التاريخ والزمن أو اضطراب العقل وانحراف النفس الإنسانية ، وبينها وبين حالته الأصلية بون شاسع .

وربما نقول أيضًا : إن الحضارة في هذه الحالة هي إعادة الأشياء أو الأفكار من صورتها التي صارت عليها إلى حقيقتها الأصلية الصافية .

---

(١) المعجم الوجيز ، ص ٤٥٨ .

وأصدق مثال على هذا وأوضحه هو التوحيد ورسالات الأنبياء ، والتي هي بمقياسنا ثورات حضارية تغييرية لإعادة العقائد والقيم من حالتها التي صارت إليها إلى حالة الخلق الأصلية المهتدية .

وما قلناه يصل بنا إلى المشكلة الثانية .

هل كل تغيير يصح أن يسمى حضارة؟

سيقال : بالطبع لا . فشرط إطلاق الحضارة أن يكون التغيير إلى الأفضل ويسهم في رقي الإنسانية .

ونسأل : وهل يكفي أن يكون التغيير والنقلة في جانب واحد من جوانب الإنسانية لكي يقال عنه وعن ما نتج عنه أنه حضارة؟

قد يقال : نعم يكفي ، ولو أردت الدقة فلتقيد الحضارة في هذه الحالة بالجانب الذي ظهر فيه التغيير والترقي ، فنقول : حضارة العلم أو حضارة الأخلاق وهكذا .

ونقول : وهذا لا يكفي ، فربما يكون التغيير إلى الأرقى في جانب من جوانب الإنسانية منعزلاً عن باقي جوانبها وينمو بصورة طردية ، أو عشوائية لا يدخل في حسبانها جوانب الإنسانية الأخرى ، بل قد تكون على حسابها ، ثم يكتشف أصحاب ما يسمى حضارة أن ما حدث من تغير وما نشأ عنه من تقدم قد أدى في النهاية إلى تمزق الإنسانية وزيادة شقائها .

هل نحن في حاجة إلى مثال .

يقول المفكر الفرنسي وأستاذ علم الاجتماع في السوربون آلان توران في كتابه : نقد الحداثة : «**سواء كان المرء مثقفًا أم لا ، لا يوجد إنسان حي في الغرب في نهاية القرن العشرين ينجو من القلق أمام فقدان كل معنى ، وأمام غزو الحياة الخاصة ، وغزو القدرة على الوجود كذات بواسطة الدعاية والإعلان ، وبتدهور المجتمع إلى مستوى الجمهرة ، والحب إلى مستوى اللذة . . . إن القول بأن التقنيات الجديدة للاتصال قد قربت بيننا**

وجعلتنا نعي أننا ننتمي إلى نفس العالم قد يبدو سطحيًا وتافهًا إذا لم نضف أن هذا العالم الذي تسارعت فيه الانتقالات وتضاعفت يشبه أكثر فأكثر عالم المرايا ، نحن ننتمي إلى نفس العالم ولكنه عالم محطم مشتت»[1]

وربما كان الأدباء أصدق حسًا وأكثر إحساسًا وأبلغ تأثرًا وأرقى إبانة ، فهم مقياس دقيق لحالة الإنسانية في المجتمع .

يقول جوته على لسان فاوست في مسرحيته المشهورة بنفس الاسم : « **إن كل مظاهر التقدم التكنولوجي لن تنقذنا مما نحن فيه ، كما أن أجهزتنا وآلاتنا وأدواتنا ليس فيها الكفاية أبدًا ، إذ لابد من الاعتماد على حسنا وعلى بصيرتنا ، على كينونتنا الحقيقية كبشر وآدميين»**

والغرب ، وهو المنظور إليه في عصرنا على أنه الحضارة بسبب ما بلغه من درجات عليا في التقنية والتصنيع والرفاهية الاستهلاكية ، تبلغ فيه نسبة الأطفال غير الشرعيين ما بين ٢٥٪ في بريطانيا و٥٩٪ في أيسلندا ، والسويد صاحبة أعلى معدل للرفاهية والدخل حسب تقارير البنك الدولي هي صاحبة أعلى معدل للانتحار في العالم حسب تقارير منظمة الصحة العالمية .

إذًا التغيير في جانب واحد من جوانب الإنسانية ، أيًا كان مقداره ، لا يعني الحضارة على إطلاقها .

ومن كل ما سبق نجازف مجازفة أخرى : هل يمكن وضع معيار للحكم على تغيير ونقلة بأنه حضارة أم لا ؟

في علوم الطبيعة والفيزياء الفلكية يُحكم على صحة أي نظرية لتصور الكون وتفسير حركته ونظامه بقدرتها المنطقية على ربط أكبر عدد من الموجودات والظواهر الكونية في نسق واحد ، وبشمولها لكل أبعاد الكون

---

(١) آلان توران : نقد الحداثة ، ص٢٢٢ ، ٢٨٩ .

ومكوناته في رؤيتها ، وبقدرتها على التفسير المنطقي لما يحدث في الكون من ظواهر وأحداث .

فمثلاً نظرية نيوتن الميكانيكية في قوانينه الثلاثة المشهورة ونظرية الجذب العام حُكم عليها بالصحة لقدرتها على توحيد كل الأفلاك وعناصر المكان في نظام واحد يديره قانون واحد .

ثم تجاوزتها نظرية النسبية لأينشتين وصارت أصح منها بقدرتها على توحيد المكان بكل عناصره مع الزمان في منظومة واحدة أو وحدة واحدة ، هي ما يطلق عليه الزمكان Time Space Unit تخضع لنظام واحد وقوة واحدة .

ومن هذا المعيار في الحكم على نظريات تفسير نشأة الكون وتركيبه وحركته نقفز إلى معيار الحكم على التغيير والنقلة ، هل هو حضارة أم لا .

فمعيار الحكم بالحضارة هو أولاً بشمول التغيير إلى الأرقى لأكبر عدد ممكن من جوانب الإنسان ، وبمجموع آثار هذا التغيير في نواحي الإنسانية كلها ، وبمدى قدرة هذا التغيير على ربط الإنسان بعناصر الوجود في نسق أو منظومة واحدة متناسقة ومتجانسة ، وبقدر ما تحتوي هذه المنظومة من عناصر الوجود وتتمكن من ربطها وتفسيرها يكون الحكم عليها .

بإيجاز ، معيار الحكم هو قدرة التغيير على الإجابة على الأسئلة الكبرى للإنسان ، ومدى تأثير هذه الإجابة على جوانب الإنسان ومسيرة الإنسانية .

هذه الأسئلة الكبرى التي كانت وما زالت الشغل الشاغل للإنسان ، ولا ترتقي البشرية إلا بتحديد موقفها منها ، والتي كان البحث عن إجابتها ، على الجانب الغربي ، مهمة الفلاسفة وتصوراتهم ، فلما فشلوا وأيقنوا عجز عقولهم عن الوصول إليها تركوا البحث عنها وانصرفوا إلى ما يدخل في نطاق عقولهم وما يستطيعون إخضاعه للبحث والدراسة ، الظواهر الطبيعية .

فكانت هذه النقلة من البحث في علة الوجود ومصيره وهدفه إلى البحث في ظواهره وقوانين وجوده وحركته ، والتي جسدها مقال ديكارت المشهور ، هي

بداية الرقي الغربي في جانب العلوم والتقنية والذي جاء على حساب جوانب الإنسانية الأخرى .

ذلك أن ديكارت وعقول الغرب كلها لم تستطع الوصول إلى المنظومة الشاملة الحقيقية ، التي تستطيع رؤية مكونات الإنسان كلها ووسائل معرفته وتضع كل منها في مكانه ومجاله ، وتستطيع استيعاب البشر جميعًا ، واستيعاب الكون وكل الموجودات فيه ، وتضع الإنسان في مكانه الصحيح منه ومنها ، وتفسر للإنسان الأسئلة الفطرية المركوزة في كل نفس ولا يستطيع الوصول إلى إجابتها في ظل النسق والمنظومة الغربية للألوهية والكون والإنسان : كيفية وجوده وعلة وجوده ومصير وجوده .

وليست المسألة فلسفية أو نظرية بحت ، لأن الإجابة على هذه الأسئلة وتحديد وضع الإنسان هو الخطوة الأولى لتحديد موقفه من الكون والموجودات وكيفية تعامله معها ، ولتفجير طاقة حركته .

وهي مسائل حسمها الغرب وحدد موقفه منها ، وإن يكن في الاتجاه الخطأ .

ويبقى في ضوابط رؤيتنا للحضارة شيء واحد ، هو أن هذا التغيير والانتقال إلى الأرقى في أى جانب من جوانب الإنسانية لابد أن يتصف بالذاتية .

والمقصود أنه لنحكم على أمة أنها أنشأت حضارة ، فلابد أن تكون فاعلة للتغيير منتجة له لا متلقية له منفعلة به ، بمعنى أن تنتج الأمة هذا التغيير من داخلها ومن رؤيتها هي وبطاقتها هي وبجهادها وأفعالها هي ، لا أن يفعل ذلك الآخرون ثم تصبح هي سوقًا لعرض بضائعهم ، أفكارًا ونظريات وماديات وأدوات ، وتقوم بتكديسها واستهلاكها ثم تدعي بعد ذلك أن هذه هي الحضارة وأنها دخلت الحضارة .

فهذه ليست هي الحضارة ولا شبه الحضارة ، وإنما ذهان السهولة هذا ، كما يسميه الأستاذ مالك بن نبي[1]، هو عين التخلف ، لأنه يقعدها عن فعل الحضارة الحقيقي .

فالحضارة لا تبدأ إلا من رؤية متميزة للأشياء وللإنسان والكون والوجود كله ، يتبعها ظهور آثار هذه الرؤية في سلوك الإنسان وأفكاره وآرائه ونشاطه وحركته وعمله وعلمه وعلاقته بكل شيء حوله .

هذه فقط هي الحضارة أو النموذج الإسلامي للحضارة .

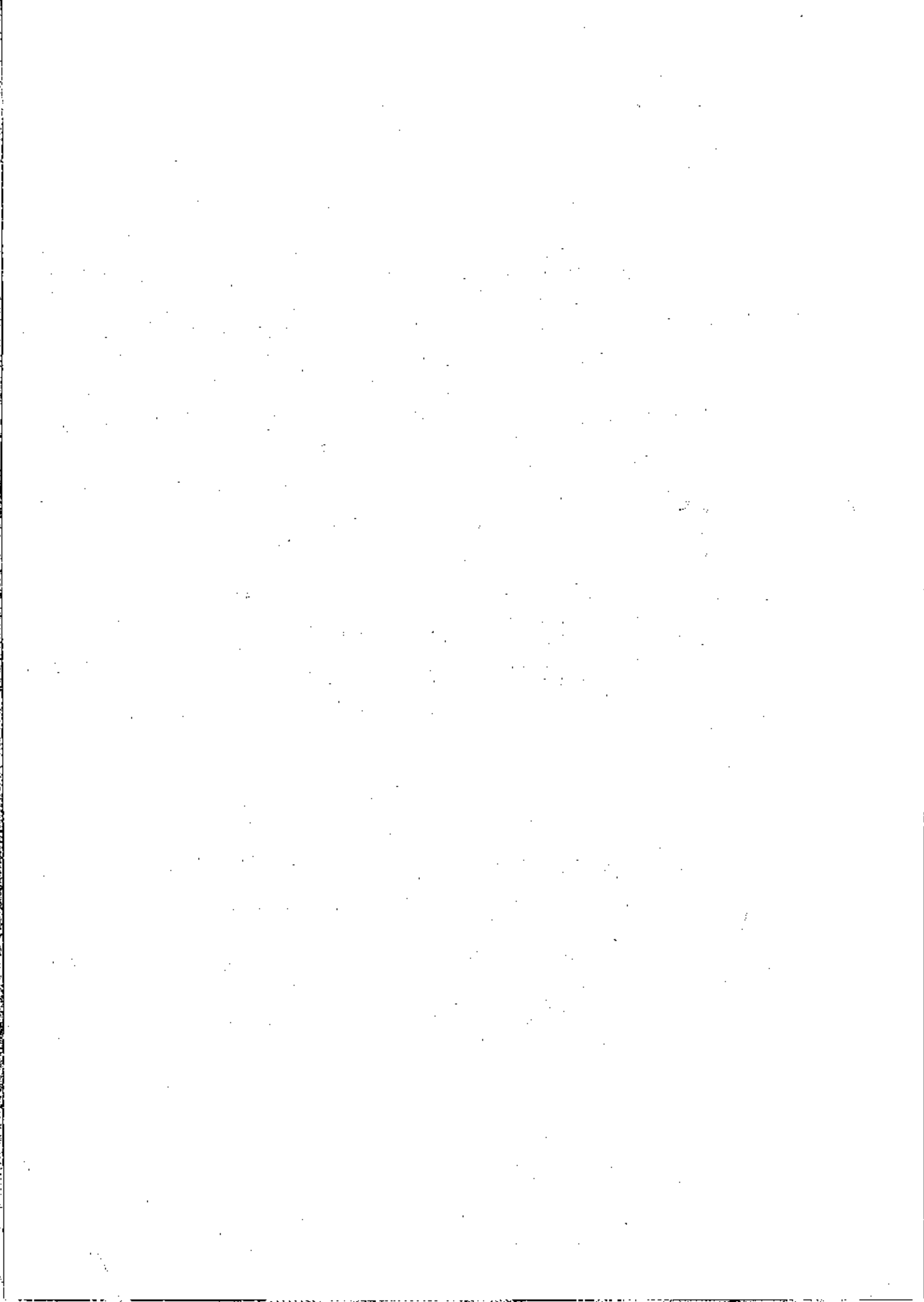
وعلى ذلك ، وبناء على رؤيتنا هذه ، فإن الفعل الذى يصح أن يسمى حضارة أو أن ينسب إلى أفعال الحضارة بالنسبة للعرب كمثال في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي هو حرب العاشر من رمضان ١٣٩٣هـ ، وليس السادس من أكتوبر ، أو تحديداً الفترة المحصورة بين التفكير الجدي وبدء الإعداد والتجهيز للحرب وبين بدء محادثات الكيلو ١٠١ المشهورة التي انتهى بها فعل الحضارة واتصل ما انقطع من سجل التخلف .

ويلي ذلك في الأفعال التي لا يصح أن ينسب إلى الحضارة غيرها الانتفاضة الفلسطينية .

وما قبل هذين ، وما بعدهما ، وما بينهما ليس سوى سيال متدفق غير منقطع من ضد الحضارة ، لا يُحسِّنه ولا يجمله ولا يخفف من وطأة التخلف فيه حشد الآلات والمستهلكات ونواتج أفعال الأمم الأخرى .

* * *

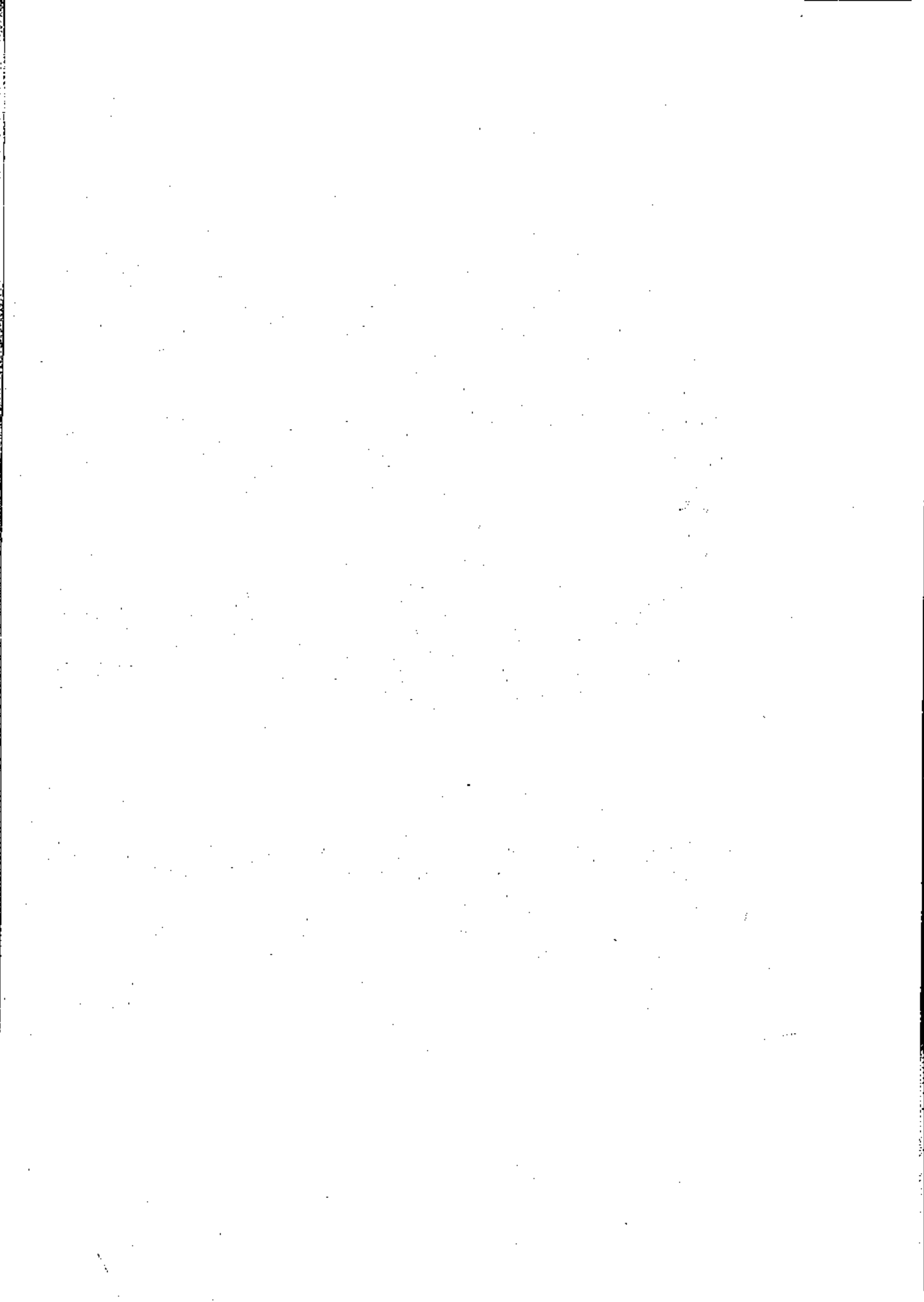
(١) الأستاذ مالك بن نبي : وجهة العالم الإسلامى ، ص ٩٤ .



الفصل الثالث

الانفجار الكبير

- اقرأ
- من وحى اقرأ : سمات فريدة
- الولادة الكاملة للحضارة الإسلامية
- المنهج والحياة
- الوعي بالحضارة وإدراك التغيير
- بين الكمال والنقص



﴿ اقْرَأْ ﴾

أين هي نقطة الانفجار الكبير في الحضارة الإسلامية؟

ارتضى علماء الفلك والفيزياء نظرية أو نموذج الانفجار الكبير Big Bang في تفسير نشأة الكون ، والتي وضعها الفيزيائي جورج جاموف .

وفي هذه النظرية كانت كتلة الكون ، قبل حدوثه وتكوينه ، مجتمعة مكثفة كلها في بقعة أو نواة كونية واحدة هائلة الكثافة جبارة الجاذبية ، ثم حدث انفجار كبير ، بكن الإلهية ، فتدافعت مادة النواة الكونية الأولى في كل الاتجاهات بفعل الطاقة الهائلة التي انطلقت مع هذا الانفجار الكبير .

ومع الانفجار الكبير بدأ الكون في التكون والتشكل ، وبدأ الزمان وقوانين الطبيعة ، وبدأ ما يمكن معرفته ودراسته ، وقبله لم يكن زمن ولا قانون ، ولا سبيل لمعرفة ما سبق لحظة الميلاد الأولى هذه .

وترسخت هذه النظرية باكتشاف الطاقة التي تدفقت مع الانفجار الكبير وما زالت سارية في الكون تعادل طاقة الجاذبية بين مكوناته وتؤدي إلى تمدده ، وبرصد الإشعاعات الغزيرة التي انطلقت مع الانفجار وتتدفق في الكون ودراستها وتحليلها يمكن رؤية لحظة الميلاد الأولى للكون ومعرفة ملامحها .

ونستعير هذه النظرية الكونية لنتساءل : أين هي نقطة ولحظة الانفجار الكبرى التي نشأت منها وفيها الحضارة الإسلامية أو التغيير الإسلامي ولا يزال أثرها ساريًا وباقيًا في كل ما تنتجه هذه الحضارة وتثمره ؟

هذا سؤال مهم جداً ، ليس فقط لتأريخ وتحديد متى بدأت الحضارة الإسلامية ، ولكن لأن الإجابة عليه تتصل اتصالاً وثيقًا بالموقف الذي يقفه العالم الإسلامي اليوم يتلفت باحثًا عن الحضارة ـ المنجزات وفي أي السبل يسلك ليصل إليها .

فطريقة الإجابة على هذا السؤال تتحدد بالأرضية التي يقف عليها صاحب الإجابة والنبع الذي ينهل منه، ولا نغالي إذا قلنا إن هذه الإجابة نفسها تحدد منهج صاحبها في النظر إلى الحضارة ومعنى الرقي ، وإلى الأشياء والعلاقات بينها ، والى الآخرين أممًا وأفرادًا ، بدءًا من الاحتفال والاحتفاء بالغزو النابليوني لمصر وتمجيده ، إلى رد الفعل تجاه العولمة ، إلى مدى الثقة بالوسيط الأمريكي في عملية السلام ، إلى الموقف من ثورة المعلومات وكيفية التعامل معها ، إلى كيف نبعث النهضة في العالم الإسلامي وما هى الخطوة الأولى فيها وما هو الطريق الذي يجب أن نسير فيه لنصل إليها .

إذًا الإجابة على هذا السؤال هي مفترق طرق في فهم ما هي الحضارة وكيف تكون .

هناك إجابتان .

الإجابة الأولى : هي إجابة الغربيين ، وهم لا يعنوننا ، والمستغربين الذين يحملون أسماءنا وسيوفهم على رقابنا ، في سلسال طويل يبدأ من طه حسين وأحمد لطفي السيد ولا ينتهى بالعراقي وأبو زيد وعصفور .

هؤلاء هم أبناء الغرب ، عقولهم منه ، وقلوبهم فيه ، ونفوسهم تهوي إليه ، لذلك لا يرون الحضارة إلا في الغرب ولا التقدم والنهضة إلا بالسير على دربه واتباع خطاه وتلمس ما يتساقط منه من فتات .

ولأن أبناء أي حضارة أو ثقافة ، بمعنى عالم له خصائص مميزة ، لابد أن يدافعوا عنها تلقائيًا بحكم الولاء والانتماء والتكوين ، وأن يشيدوا بها ويعلوا من شأنها ويرفعوا لواءها ، فهؤلاء يرفعون راية الغرب في كل ميدان يمكن نصره وإبراز فضله فيه .

ومن ثم فنهضة الشرق عندهم لا تكون إلا باتباع الغرب ، ولكي يصلوا إلى ذلك في عقول الناس فلا أسرع ولا أسهل نفاذًا في العقول والنفوس من أن يكون الإسلام نفسه بنى حضارته على امتصاص ثقافة اليونان وعلومها والامتزاج بها .

فالدجل من الطراز الرفيع يقتضي أن تكون منطقة الخلق والإبداع ونقطة انفجار الحضارة الإسلامية هي نقطة التقائها باليونان، الغرب القديم.

على أن الأهم والأخطر هو أن كثرة الإلحاح على هذا الدجل وإشاعته بكل وسيلة وخلق جو عام مشبع بهذه النظرة وهذه الرؤية، عملاً بمنهج جوتفريد جوبلز وزير الدعاية النازية: اكذب، اكذب دائمًا، فلا بد أن يبقى من كذبك شيء، أدى إلى تأثر قطاعات عريضة من المسلمين عامة، بل ومن مفكرين يحسبون على الإسلام بهذه النظرة، فأصبح مولد الحضارة الإسلامية عندهم مرتبطًا ببدء الترجمة ونقل العلوم والفلسفات عن اليونان أو غيرها إلى عالم الإسلام، في ذهول تام عن لحظة الميلاد الحقيقية والتكون العظيم للحضارة الإسلامية.

يقول الأستاذ أحمد أمين: «**الآن تستطيع أن تفهم أن الثقافة اليونانية كانت منتشرة في العراق والشام والإسكندرية، وأن المدارس انتشرت فيها على يد السريانيين، وأن هذه المدارس وهذه التعاليم أصبحت تحت حكم المسلمين، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على الشرح الذي شرحته، فكان من نتائج هذا أن تشبعت هذه التعاليم في المملكة الإسلامية، وتزاوجت العقول المختلفة كما تزاوجت الأجناس المختلفة، ونتج عن هذا الزواج الثقافة العربية أو الإسلامية ونتجت المذاهب الدينية والفلسفة الإسلامية والحركات العلمية والفنون الأدبية**»[1].

هذا نص خطير، بل شديد الخطورة، فقد جعل كل شيء في عالم الإسلام انعكاسًا لامتزاج الثقافة اليونانية التي ترجمها السريان بالإسلام، من العقلية والثقافة إلى الفلسفة، إلى العلوم والفنون الأدبية، إلى، وياللغرابة! ، المذاهب الدينية!

---

(١) الأستاذ أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ١٣٢.

ومتى؟ في : فجر الإسلام الذي يحدد هو نفسه نهايته بنهاية الدولة الأموية[1]، أي في المائة عام الأولى من تاريخ الإسلام ، إذ الدولة الأموية سقطت سنة ١٣٢ هـ .

ويمكن فهم كيف تَكَوَّن العقل الذي أنتج هذا الكلام والمؤثرات التي أسهمت في تكوينه وتشكيله إذا عُلم أنه أنتجه عام ١٩٢٩م إبان الزحف الكبير على الإسلام من المستشرقين والإنجليز ، ووسائل الإعلام وتكوين العقول في أيديهم ، وأذنابهم مجاذيب الحضارة الذين تم تدجينهم في جامعات الغرب وإعادة شتلهم في المجتمعات الإسلامية ينفثون سمومهم في كل اتجاه وشعارهم المعلن ، كما صكه توفيق الحكيم حين سأل عن تعليقه على دك القوات الفرنسية لدمشق بالمدافع : عاشت حضارة فرنسا ولتذهب دمشق إلى الجحيم!

ولا نحتاج إلى مناقشة هذا المفهوم وهذه الرؤية لتكون الحضارة الإسلامية ، ذلك أن منهجنا ينقضها من أساسها ، ويكفينا شهادة قصيرة : « **فلا يمكن أن تأخذ ثقافة فكر ثقافة أخرى ، فهذا زرع لعضو غريب في جسم غريب ، وإن حدث ظاهريًا فسرعان ما يلفظ كما حدث لزرع الفلسفة اليونانية في جسم الثقافة الإسلامية ، فقد استمرت حينًا ثم لفظت وكان لابد أن تلفظ** »[2].

إذًا ! مرة أخرى ، أين هي لحظة الانفجار الكبير والميلاد الحقيقي للحضارة الإسلامية؟

حسب رؤيتنا للحضارة وأنها التغيير والانتقال من حالة إلى حالة ، وحسب فهمنا لميلاد الحضارة الإسلامية ميلادًا كميلاد الكون في لحظة واحدة ،

---

(١) فجر الإسلام ، ص ١٤٥ .

(٢) دكتور عزت قرني : الفلسفة المصرية . شروط التأسيس ، ص ٧١ .

كل ما تلاها كان تبعًا لها ، وُجد وتكون ويسير بدفقة الطاقة المتفجرة في هذه اللحظة الأولى ، فلا يوجد حدث يمثل هذا التغيير العظيم ولحظة هذا الانفجار الكبير إلا حدث واحد ولحظة واحدة ، هي حدث ولحظة نزول : ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ .

ففي هذه اللحظة ، ومع هذا الحدث بدأ الميلاد العظيم وانفجرت الطاقة الهائلة وتغير كل شيء ، فلم يعد الكون ولا الإنسان ، في وجوده ومعناه ومنشئه ومسيرته ومصيره ، ولا الدنيا ولا الموت وما بعده ، ولم يعد أي شيء في الوجود بعدها كما كان قبلها .

فهذه واحدة .

والثانية : كيف ؟

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق:١-٥).

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر بقراءة الكتاب فيه هداية الإنسان إلى الرشد ، وحمايته من الضلال ، ووصل له بالملأ الأعلى ، وإحياء للروح وعروج بها إلى أصلها عند خالقها ، فهي تصحيح لعلاقة الإنسان بربه .

و﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر بقراءة الكون في : ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴾ ، يصبح بها الكون مساحة لعقل الإنسان وليس شرًا يفر منه .

و﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ ثورة ومنهج غير مسبوق في علاقة الإنسان بالكون ، ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ ليس أمرًا بقراءتين منفصلتين ، ولكنه أمر بقراءة واحدة تقع على مفعولين ، الكتاب والكون . فتكون قراءة الكون في هدى الكتاب ، وقراءة الكتاب في سطور الكون ، فلا تعارض بين الكتاب والكون ، وليست القراءة في أحدهما واتباعها إعراضًا عن الآخر ولا نفيًا له .

ففي ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ منهج جديد وتغيير هائل ونسق منفرد فريد يجمع بين الوحي ومصادر معرفة الإنسان الذاتية ، وبين الوحي والعلم ، وبين العروج الى الله وعمارة الكون .

و﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر للإنسان بالعلم من الله عز وجل وإرشاد إليه وحض عليه .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ منظومة جديدة وثورة تصحيح في فهم العلاقة بين الله والإنسان والعلم ، فليس الإنسان مقابلاً للإله يقف على نقيض منه ، وليس العلم ضد الألوهية ولا يتوصل إليه إلا بعد نزاع مرير مع الآلهة ورغم أنوفهم كأسطورة بروميثيوس الشهيرة التي سيطرت على نظرة الغرب للعلم وعلاقته بالدين ، ورسختها الصورة التي استقرت عليها المسيحية في ذهن الغرب ، وإنما العلم هبة من الله للإنسان ، هو الذي منحه إياه وأعطاه وسائل الوصول إليه وأرشده ودله عليه .

فـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ بما شحنها به أسلوب القرآن المعجز وجاء بها في سياقه هي ثورة كبرى ومنهج جديد وفتح في إعادة صياغة العلاقة بين الوحي ووسائل معرفة الإنسان الأخرى ، وبين الله والإنسان ، وبين الإنسان والكون ، وبين الآخرة وعمارة الدنيا ، وبين الألوهية والعلم .

وهي إعادة تنسيق لكل الوجود وجمع لكل الموجودات في إطار واحد مترابط متكامل ووضع للإنسان في مكانه المنطقي والصحيح منه .

لذا ، بمعيار حكمنا على الحضارة الذي ارتضيناه ، لا يوجد حدث ولا حادثة ولا ثورة تغييرية في تاريخ العالم كله تستحق أن توصف بأنها لحظة ميلاد الحضارة الكاملة أو الحضارة بمطلق الحضارة سوى لحظة نزول ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ التي أعادت تنظيم الوجود كله واستوعبته كله .

ثم ، يطيب لي أن أقف أمام ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ وقفة نفسية أتمثل فيها معنى الحضارة الحقيقي .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ أمر بالقراءة ، وفي داخل هذا الأمر بالقراءة أمر بالتغيير والخروج من حالة إلى حالة ، من الأمية إلى القراءة ، ومن الغيبة وعدم الإدراك إلى الوعي

بالذات ، ومن سكون الانتظار والتلقي وسلبيته إلى فاعلية الفعل وحركته ، ومن الاعتماد على الآخرين وانتظار ما يقولون أو يفعلون إلى المبادرة بالقراءة والفعل وتكوين الذات ، ومن الإحساس بالضعف إلى الإيمان بقدرة هذه الذات على الإنجاز ، ومن الحيرة والتحير وعجز الإرادة إلى القرار والعزم وسمو الإرادة ووضعها في الأشياء .

﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي منهج حياة ونموذج حضاري متكامل .

* * *

من وحي اقرأ
سمات فريدة

الولادة الكاملة للحضارة الإسلامية

إذا علمنا أن ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي لحظة الانفجار الكبير للحضارة الإسلامية التي تدفقت من باطنها كل معالم الحضارة الإسلامية وتاريخها ، وتكون بها ومنها النموذج الإسلامي للأشياء وتفسيره لها وإعادة صياغتها ، واندفعت معها طاقة التغيير ، وتركت بصمتها على كل شيء نبع من هذا التغيير ، تماما كما تدفق الكون كله من باطن النواة الكونية الأولى واندفع من انفجارها طاقة استمرار الكون حتى لحظتنا هذه ، إذا علمنا ذلك استبان لنا أول فرق في سلسلة الفروق بين الحضارة والنموذج التغييري الإسلامي وبين غيره من الحضارات أو النماذج التغييرية التفسيرية للوجود .

سلسلة الفروق النوعية لا الكمية ، والمنهجية لا الوصفية بين إطار التغيير وبنية الإنشاء للحضارة الإسلامية وبين إطار التغيير ونموذجه في غيرها من الحضارات .

هذا الفرق الأول هو أن الحضارة الإسلامية والنموذج التغييري التفسيري البنائي الإسلامي للكون والإنسان والعلم والدنيا والآخرة والمخلوقات وعلاقتها بالألوهية قد ولد وتكون وخرج مكتملاً للوجود مرة واحدة بصورة انفجارية .

فمنذ اللحظة الأولى في الحضارة الإسلامية ، لحظة الانفجار ، و﴿ ٱقْرَأْ ﴾ تحمل كل عناصر الرؤية والنموذج الإسلامي للوجود كله .

ففيها إنشاء لصلة جديدة بين الوحي والكون ، وبين الوحي ووسائل المعرفة الأخرى ، وتغيير لمفهوم العلم وعلاقته بالألوهية وموقف الإنسان منه ، وفيها

ثورة في فهم صلة الإنسان بربه وموقعه من الكون وموقفه منه وعلاقته بكل ما فيه ، وفيها منهج فريد لربط الدنيا بالآخرة في إطار متناسق تتكامل فيه الدنيا مع الآخرة وتفضي إليها ، ولا تتوازيان توازيًا يكون معه طلب إحداهما نفيًا للأخرى .

بإيجاز : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي نموذج ومنهج متكامل يحمل في داخله كل الوحدات البنائية للتغيير الإسلامي أو الحضارة الإسلامية ، أو هي نواة حضارية هائلة الكثافة تحوي داخلها الحضارة الإسلامية برمتها ، أو بصورة مبسطة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي ماكيت للنموذج الإسلامي من الحضارة .

وليست كذلك كل الحضارات ، فهذه سمة فريدة تتميز بها الحضارة الإسلامية ولا يشاركها فيها غيرها .

فالحضارة الغربية ، مثلاً ، لم تنفجر مرة واحدة ، ولم تتشكل وتستقر رؤيتها ونموذجها للحياة والكون والإنسان والدين والألوهية والعلم إلا على مساحة شاسعة من الزمن ، وبتحولات تراكمية بطيئة ، كل زمان يضيف لمحة أو يعدل فكرة أو يعيد صياغة رؤية حتى وصلت معالم التصور الغربي للوجود إلى وضعه الحالي القابل للتعديل باستمرار .

وهذا التحول والتغير التراكمي البطيء لم يكن انقلابًا ثوريًا شاملاً على الأوضاع السابقة ، وإنما خرج من رحمها شيئًا فشيئًا ولم ينفصل عنها تمامًا ، بل ظلت الأوضاع والرؤى السابقة على التغير والتحول سارية فيه تتلبس به ويتلبس بها حتى برز التكون والنموذج ، ونقول بثقة : ولم يكتمل حتى الآن .

« فالنظرة الجديدة إلى الحياة بدأت بوادرها في القرن الرابع عشر . . . والقرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر كانت قرونًا انتقالية فى حقيقتها »[1].

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ١٧/١٤٩.

«وفي هذه الفترة لم تنفض أوروبا كل غبار العصور الوسطى ولم تتخلص من كل مساوئها ولم تتخل كليًا عن النظرة القروسطية المدرسية للحياة»[1].

فالتغيير في الحضارة الغربية لم ينشأ إلا عبر زمان طويل وبجهود مضنية وصراع يختلط فيه السابق باللاحق ، بل وفي بعض الأحيان يقوم بالتغيير من يُحسب في صف تثبيت الأوضاع القائمة والرؤية والتصور الموجود الآخذ في التحول شيئًا فشيئًا ، وهو ومن يدفعه لتثبيت الأوضاع القائمة لا يعون حقيقة ما يحدث ودلائله .

فتوما الإكويني حاول التوفيق بين العقل والنصوص المسيحية بأمر البابا :

«ولكنه وهو يحاول هذا التوفيق كسب للعقل نصرًا مؤزرًا سيدوم على مدى الأيام ، فقد قاد العقل أسيرًا إلى قلعة الدين ولكنه قضى بانتصاره على عصر الإيمان»[2].

فهذا نموذج كُلف وعمل على تثبيت الأوضاع القائمة عن طريق إعطاء مكانة ثانوية للعقل إلى جانب الكهنوت واللاهوت المسيحي ، ولكن هذه المكانة الثانوية نفسها لم تكن موجودة من قبل ، بل أدخلها هو ، ففتح بها ثغرة في جدار اللاهوت المسيحي المصمت فكان بذلك خطوة أو نصف خطوة في طريق التغيير وهو يعمل على مقاومته ، ودفع به من حيث أراد وقفه .

ويهمنا في المثال قبل كل شيء هو كيفية حدوث التغيير بطريقة تراكمية تختلط فيها الرؤى والنموذج والتصورات السابقة باللاحقة ، ثم تنسلخ عنها في بطء شديد وبصراع وشد وجذب على مدى قرون متطاولة ، على خلاف النموذج التغييري الإسلامي الذي خرج للوجود منهجًا متكاملاً مستقلاً مستقرًا لا يلتبس بما سبقه ولا يختلط به ، بل ولادة كاملة بصورة انفجارية .

* * *

(١،٢) كرين برنتون : أفكار ورجال ، قصة الفكر الغربى ، ص ٣٢٦ .

المنهج والحياة

وما زلنا مع ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ رؤية حضارية كاملة ونموذج متكامل وتصور شامل للوجود لم تسبقه أحداث ولا أفكار مهدت له فجاء لإتمامها ، ولا حركة حياة أو تغيرات علمية أو اجتماعية أو اقتصادية أدت لظهوره أو نموه أو تعديله أو استنباطه أو تراكمه ، بل العكس هو الصحيح .

فـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي نموذج تغييري تفسيري ورؤية شاملة للكون والحياة والإنسان والألوهية ولدت مرة واحدة تامة متكاملة ، ومنها نشأت الأحداث ، وتكونت المجتمعات التي تنطبع بها ، وماجت الحياة اقتصاديًا واجتماعيًا وعمرانيًا وعلميًا بأثر الطاقة المتدفقة من انفجار هذا النموذج التغييرى واصطبغت بصبغته .

وما نقصده هنا أن الرؤية الشاملة والنموذج التغييري وجدا كاملين متكاملين قبل ، وكانا سببًا ودافعًا ، للتغيرات والتحولات التي حدثت بعدهما على مستوى الحياة بكل صورها ، أخلاقًا واجتماعًا وسياسة واقتصادًا وعمرانًا وعلمًا وحركة دافقة ، أو بصورة أخرى ، النموذج التغييرى والرؤية الإسلامية الشاملة وجدا كـ « ماكيت» ، متكامل أقيمت كل مناحي الحياة واتجاهاتها على نسقه وفي هداه .

في الحضارة الإسلامية ، الثمرة ، بتعبير دكتور حسين مؤنس ، كانت تطبيقًا عمليًا لمنظومة متكاملة موجودة ومستقرة لم تتبدل ولم تتغير ولم تتدخل الحوادث وتطورات الحياة في إنشائها ، بل المنظومة هي التي أوجدت الحوادث وحركة الحياة وصبغتها .

ماذا يعني هذا ؟

يعني فرقًا جوهريًا ضخمًا بين الرؤية الإسلامية والنموذج الإسلامي وبين غيره من الرؤى والنماذج الحضارية .

ففي الحضارات الأخرى لم تكن هناك رؤية سابقة ولا نموذج يتبع ولا منهج متكامل يسير من يقومون بالتغيير والنقلة على هداه ، بل في الحضارات الأخرى خلاف ذلك تمامًا ومقلوبه هو الصحيح .

فما يحدث هو كالآتي : حدث أو اكتشاف أو صراع في لحظة من الزمان يؤدي إلى تغيير طفيف في أوضاع قائمة ، وبعد حدوث هذا التغير والتحول الطفيف ينظر المفكرون أو الفلاسفة في عصر لاحق وبعد زمان طويل إليه ، فيؤدي هذا التغيير في الحياة وأحداثها إلى تعديل في فهمهم وتصورهم السابق بقدر ضخامة الحدث وأثره ، والرؤية الجديدة في هذا الجانب أو ذاك من النموذج السابق تؤدي هي نفسها مع الوقت إلى أحداث جديدة وصراعات جديدة تنتهي بتعديل آخر للرؤية والنموذج ، وهكذا في دورات لا تنتهي .

إذًا فما يحدث هو أن نموذجًا قديمًا يعدل جزئية فيه حدث أو واقعة ، وهذا التعديل يؤدي بدوره إلى تغيير جزئية أخرى في النموذج ، وهكذا حتى تكتمل الرؤية ويتشكل النموذج الجديد ، والذي يظل غير متكامل ولا شامل لأنه يتكون من جزئيات متناثرة تفتقد الرابط الذي يجمعها ويوحد بينها ، ولأن المنظومة نفسها عرضة للتغيير والتعديل في كل عصر بحدث جديد أو اكتشاف جديد .

كان الغرب في عصوره الوسطى يتبنى نظرية بطليموس في مركزية الأرض للكون ، ذلك أن مركزية الأرض يتبعها مركزية الإنسان الذي خلق الله الكون من أجله ، وأيضًا لأن الأرض هي موضع افتداء المسيح للبشر فلابد أن تكون مركز الكون .

نحن هنا أمام رؤية ونظرة ونسق تصوري للكون وعلاقة الإنسان به وموضعه منه ، وللكون والإنسان يربطهما معًا بالألوهية والمسيح الفادي ، فماذا حدث؟

هل جاءت رؤية جديدة ونموذج متكامل يجمع هذه الأطراف أو يضم الوجود في إطار واحد مختلف أو حتى متشابه ، ثم نشأت عن هذا النموذج أو الإطار حياة أو تغيرات في بناء المجتمع ونسيجه وقواعده وضوابط علاقاته ؟

لا ، وإنما ما حدث هو العكس .

«تم اكتشاف مظاهر شذوذ واضحة للعين المجردة في حركة الكواكب»[1].

فلم تعد الرؤية الموجودة والمنظومة المستقرة قادرة على تفسير مظاهر الكون وظواهره .

وحل كوبرنيكوس هذا الشذوذ بافتراض نموذج مغاير لحركة الكوكب تكون فيه الشمس هي المركز والأرض فيه متحركة حولها .

نحن هنا أمام اكتشاف أو حدث ولم يحدث أي تغيير في المنظومة بعدُ ، فماذا حدث بعد ذلك للرؤية والتصور؟

هز افتراض كوبرنيكوس فكرة أن الأرض هي مركز الكون والهدف من الخلق ، فأدى ذلك إلى أن : **«الإنسان لم يعد هو المخلوق الذي من أجله خلق الله الكون ، وأصبحت السموات قابلة للفناء وغير أبدية»**[2].

والسموات في اللاهوت المسيحي هي المقابل للدار الآخرة في الإسلام[*].

فكأن نظرية كوبرنيكوس العلمية البحت نسفت فكرة كمال السموات وأبديتها التي تعتمدها المسيحية في مقابل دنس الأرض ودناءتها ، إذ أصبحت السموات والأرض شيئًا واحدًا .

---

(١) جيمن بيرك : عندما تغير العالم ، ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ .

(*) انظر صفحة الوفيات بالأهرام .

وبعد كوبر نيكوس بعقود قليلة اهتزت الرؤية القديمة أكثر ، فقد اشتعل نجم فيما يعرف بظاهرة السوبرنوفا وظل مشتعلاً عامين قبل أن يخبو تمامًا ، فترتب على ظهور هذا النجم التساؤل : « **إذا كانت السموات مثالية الكمال لا تتغير ، وإذا كان الله قد أنهى خلقه في اليوم السابع واكتمل خلق الكون ، فمن أين جاء هذا النجم؟** » [1]

وتوالت الأحداث والتغيرات ، وبعدها بعقود أخرى انهار هذا الجزء من النموذج القديم وأطاح به مقراب أو مرقاب (تلسكوب) جاليليو الذي أكد افتراض كوبرنيكوس .

وهكذا انهار جزء من النموذج والرؤية بحدث أو اكتشاف ، وفي مرحلة أخرى موازية أو لاحقة انهار جزء آخر منه بحدث أو اكتشاف آخر، وفي كل مرة تتخلف رؤية بديلة غائمة في بدايتها ، واضحة في نهايتها بعد عشرات السنين أو مئاتها .

وما نريد أن نصل إليه هو أن الحضارة الغربية كان تشكلها وإعادة صياغتها للوجود مرتبطًا بأحداث أو مكتشفات علمية ، هي التي صاغت هذه الرؤية وأوجدت هذا النموذج تدريجيًا لا أن الرؤية والنموذج هي التي أخرجت هذه الأحداث والأبنية وصيغ الحياة إلى الوجود .

ونوجز فنقول : في غير الحضارة الإسلامية التغيير هو الذي ينتج الرؤية والنموذج والمنهج ، وتطوراته هي التي تحدد بنية الوجود وما يربطه في العقل وما يتكون فيه من تصورات .

وأما في حضارة الإسلام ، فالنموذج والمنهج والمنظومة ولدت كاملة تامة شاملة ، والتغيير في الواقع وداخل الحياة كان نتاجًا وفرعًا منها ، هي أصله ومنبته ورحمه وطاقته . وهذه سمة وخصيصة فريدة أخرى في الحضارة الإسلامية تتمايز بها عن سائر الحضارات ونماذج التغيير إلى الأرقى .

---

(١) عندما تغير العالم ، ص ١٧٨، ١٧٩ .

الرؤية في الحضارة الإسلامية سابقة على التغيير ومنهج متكامل له ، وهي في غيرها نتاج تراكمي وجزئي للتغيير نفسه الذي يحدث تلقائيًا وعشوائيًا بالتدافع وحركة الحياة وعبر أزمان متطاولة .

وهو ما يفسر لماذا تقدم الغرب في العلوم والتقنية وفشل فشلاً ذريعًا في غيرها ، إذ العلوم هي الشيء القابل للنمو والازدهار بالتراكم وضم الجزئيات .

أما المنهج الشامل والرؤية المتكاملة والتصور التام فلا يمكن الوصول إليها بجزئية من هنا وجزئية من هناك ولا بلصق قطع الأفكار والتصورات (*) ، لأن جمع الجزئيات لا ينشأ كمالاً إلا إذا وجد الإطار العام الذي ينظمها ، ولا يؤسس منظومة ولا منهجًا إلا بالاهتداء إلى الرابط بينها .

وهذا الرابط هو الذي يكون فتحًا حقيقيًا في مسيرة البشرية يمنح كل جزئية معناها ، ويمنح الجزئيات جميعها الإحكام والتناسق والتوحد الذي يسعى العقل والنفس في طلبه .

وكمثال على الفرق الشاسع بين نمو بالتراكم ورؤية متكاملة شاملة ، وكتوضيح لإمكان الأول وعسر الثاني ، ونكاد نقول استحالته على العقل البشري ، خاصة حين يراد من الرؤية استيعاب الوجود كله ، فإن إسحق نيوتن أعظم العلماء أثرًا في تاريخ الإنسانية ، والعبقرية الفذة بكل المقاييس في مجال العلم والتفكير الجزئي في ظواهر الأشياء وفهم العلاقات والقوانين التي تسير الأفلاك ، لم يستطع أن يرتقي بعقله إلى فهم المعنى الكلي الكامن خلف النظريات التي صاغها والقوانين التي اكتشفها ، فقد : « **أتت تأملاته الفلسفية**

(*) يصدق هذا الحكم حتى داخل العلم نفسه كوحدة مستقلة ، فإن جل النظريات الفاتحة في تاريخ العلم لم تأت من ضم جزئيات متراكمة ولا ترقيع أفكار متجاورة ، وإنما أتت من عقل خلاق أعاد صياغة الجزئيات وضم إليها ما لم يلتفت إليه أحد من قبل ، بطريقة ثورية ، في نسق ومنظومة جديدة ، ومن خلال رؤية غير مسبوقة ولا موجودة في الجزئيات .

(الكليـة الشـاملة) والميثودولوجيـة (المنهجيـة) أمثولـة علـى السـذاجة والسطحية»[1].

فرؤية الجزئيات وفهم الظواهر شـيء ، وتصـور واستيعاب الأنسـاق الكليـة والوصول إلى الإطار الجامع شيء مختلف تمامًا .

● وقفة توضيحية :

نتوقف هنا برهة لنَسأل قبل أن نُسأل : ما علاقة هذا كله بإسـهام الإسـلام في الحضارة الإنسانية؟

وجوابنا هو أن إسهام الإسلام في الحضارة الإنسانية وأثره في مسيرة البشـرية هو نفسه الرؤية والمنهج والمنظومة التي ذكرناها .

نعم ، ففضل الإسـلام علـى مسـيرة البشـرية والإنسـان هـو هـدايتها إلى هـذا النموذج والرؤية المتكاملة للألوهية والإنسان والكون والـدنيا والآخـرة والـوحي والعقل والعلم ، جميعًا في نسق واحـد ومنظومـة متناسـقة متجانسـة تسـتوعب الوجود كله في صياغة جميلة باتساقها في النفس ، مقبولة مريحة بإحكامهـا في العقل ، جامعة بشمولها بينهما ، وهو ما لا معنى له إلا أن هـذا النمـوذج وهـذه الرؤية هي الحقيقة ، إذ لم تستطع الوصول إلى هـذه النتيجـة وتوحيـد الوجـود رؤية ولا نموذج غيرها .

فكل النماذج والمنظومات غير الإسلامية فشلت في توحيـد عناصـر الوجـود وإيجاد إطار واحد يجمعها .

فلأن النموذج غير الإسلامي يتشكل ويتكـون بالأحـداث وتفسـيرها الجزئـي شيئًا فشيئًا وعصراً بعد عصر فهو مشوه دائمًا ومفتوح أبدًا .

مشـوه دائمًا لأنـه كـمـن يـريـد بناء منـزل ، فبدلاً من أن يضـع لـه نموذجًـا أو ماكيت متناسق يؤدي كل جزء فيه الغرض والوظيفة منه ، بدلاً من ذلك يبني

---

(١) دكتور يمنى طريف الخولى : العلم والاغتراب والحرية ، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللاحتمية ،ص٢٥ .

غرفة ، ثم يخطر له أن يجعل حمامًا في مكان ما ، وبعدها يرى أنه يحتاج إلى غرفة أخرى ، ثم يدرك بعد حين أن الأمر لا يستقيم دون نوافذ فيهدم أجزاء من الجدران ليفتحها ، ويفاجأ بعدها أنه لابد من مطبخ ، وهكذا .

فالمدى الذي يتشوه به بناء كهذا يُبنى بطريقة كهذه هو القدر نفسه الذي تتشوه به رؤية تتكون بتراكم الحوادث ولصق الأفكار .

وهو مفتوح دائمًا ، وما نقصده بمفتوح هنا أنه غير كامل ، بل يتعدل كل حين حسب تغير الأحداث واتجاه حركة الحياة .

فأوروبا ما قبل النهضة والحضارة ـ التغيير كانت تحوي نموذجًا ورؤية خاطئة للكون لكنها متكاملة ، بمعنى أنها مغلقة ، فهدمت المكتشفات العلمية هذا النموذج وغيرت منه شيئًا فشيئًا ، وأحلت بدائل مكان بعض أجزائه ، ولكنها فشلت في إقامة نموذج متكامل ونسق مترابط يحل محل كل عناصره ويضعها معًا في إطار واحد .

فطبيعة التكون التراكمي الناشئ عن حركة الإنسان دون رؤية منهجية مترابطة أدت إلى فقدان النموذج الغربي للرؤية المتكاملة الشاملة ، وإلى التضارب بين عناصر الوجود ووضعها في مواضع متقابلة لا يجمعها إلا الاختلاف وأحيانًا العداء ، وقبول أحدها يعني الرفض التلقائي للآخر .

بإيجاز : فشل الغرب في إيجاد نموذج بديل للنموذج السابق يوحد الإنسان والكون والوحي والمعرفة والدنيا وما بعد الموت في وحدة متكاملة مترابطة منطقية متجانسة . ولأن : «**التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية**»[1] لا نتزيد حين نقول إن كل أزمات الغرب وحضارته ، ومظاهر القلق الروحي والتوتر الميتافيزيقي العميق الذي يعيشه أبنائها وتظهر بعض آثار التنفيس عنه

---

(١) الفيلسوف وليم جيمس : العقل والدين ، ص ٤٠ .

في حركات الهيبز والبانكس ورفض المجتمع وجماعات الانتحار هي ثمار لفشل هذه الحضارة في توحيد عناصر الوجود وربطها بما يصل بالعقل إلى القبول والراحة وبالنفس إلى الرضا والطمأنينة .

وهذا هو فضل الإسلام وحضارته على الإنسانية كما أسلفنا ، هدايتها إلى هذه المنظومة المتكاملة الشاملة المستوعبة لعناصر الوجود في نسق واحد وإطار واحد جميل ومريح ومقبول ، هو الحقيقة ، يعرفها العقل بإحكامها ، وتعرفها النفس بوجودها فى فطرتها وموافقتها لها .

* * *

الوعي بالحضارة وإدراك التغيير

سؤال : هل يعلم من يقومون بالتغيير وإنشاء الحضارة أنهم يغيرون بما يصنعونه وجه العالم ، وهل يدركون الآثار العميقة المترتبة على أعمالهم؟

ولنبسط السؤال : مجموعة من البشر أو جيل من الأجيال يقوم بعمل هائل : (أ) في الزمان : (س) ينتج عنه سلسلة من التغييرات الشاملة والعميقة في الحياة والمجتمع ورؤية الإنسان للكون ولنفسه ولعناصر الوجود كلها : (ب) ، (ج) ، (د) في الأزمنة : (ص) ، (ع) ، (م) ، ثم تستقر هذه التغييرات في صورتها الجديدة بعد عشرات السنين من الحدث أو العمل الهائل : (أ) أو بعد مئاتها .

هل يعلم من يقومون بـ : (أ) أن : (ب) و(ج) و(د) سوف تنتج عنه ، هل وهم في الزمان : (س) على وعي وإدراك بما سوف يحدثه ما يفعلونه من آثار وتحولات عميقة وضخمة وإعادة صياغة لفهم البشر للوجود في الزمان : (ص) ، و(ع) ، و(م) ؟

لنر!

الحضارة الغربية أو التحول الغربي كان نتاجًا تراكميًا بطيئًا للأحداث والمتغيرات اختلط فيه والتبس السابق باللاحق ، وعلى ذلك يصعب تحديد بداية عصر النهضة الغربية وبداية التغير والتحول بدقة .

ومع ذلك يمكن القول إن : «**القرن المفصل بين عصور الغرب الوسيطة وبين عصره الحديث هو القرن الخامس عشر**»[1].

ذلك أن القرن الخامس عشر هو القرن الذي شهد مجموعة من الأحداث الكبرى التي أسهمت مستقبلاً ، وعلى مدى زمني طويل ، في إعادة تكوين

---

(١) أفكار ورجال ، ص ٣٢٣ .

الغرب وصياغة عقله ، وهذه الأحداث الكبرى هي سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وهو الحدث الذي فجع أوروبا في عاصمتها وحصن حصونها لتكون هذه الفاجعة بداية استيقاظها ، وسقوط الأندلس في يد الإسبان سنة ١٤٩٢م وانفتاح الغرب على كنوز الإسلام المنهجية والمعرفية فيها ، ثم حركة الكشوف الجغرافية الكبرى وما أحدثته من تغييرات عميقة ومتلاحقة في بنية العالم وتطور الحياة ورؤية الكون .

ونقف عند الحدث الهائل الأخير هذا كمثال على ما نقصده بالسؤال المذكور آنفًا .

الكشوف الجغرافية ، وتحديدًا اكتشاف رأس الرجاء الصالح والطريق البحري إلى الهند واكتشاف العالم الجديد أدى إلى سلسلة من التغييرات الشاملة في الحياة الغربية ، من الرواج المالي والاقتصادي إلى ازدهار البروتستانتية في العالم الجديد ، إلى الخروج على الكنيسة ولاهوتها الذي فشل في معرفة العالم الجديد وتفسير وجوده ، إلى الإيمان بقدرة الإنسان واستغنائه عن الإله وجعله محور الأحداث ومحركها .

الكشوف الجغرافية أدت إلى تحولات شاملة بدأت بالأحداث الآنية ثم المترتبة عليها ، وانتهت بعد عشرات السنين ومئاتها بالأفكار والعقائد ، فأسهمت بذلك في هدم الرؤية القديمة وتكوين الرؤية الجديدة المنسلخة منها .

فهل كان من قاموا بهذه الكشوف يدركون هذه الآثار العميقة والشاملة لها في حياة الغرب وتطوره ، وفي تكوين عقائده وأفكاره وفهمه الجديد للوجود؟

في يوميات كرستوفر كولمبس ورسائله وتقاريره هو وكبار مرافقيه لا تخلو صفحة من ذكر آمالهم فى العثور على الذهب فيما يرتادونه ويكتشفونه من جزر .

ففي يوم ١٤٩٢/١٠/١٣م ، وهو اليوم التالي لوصوله إلى جزر الهند الغربية يخبرنا كولمبس نفسه في يومياته بما يبغيه من مغامرته : «**اجتهدت لمعرفة**

ما إذا كان هناك ذهب . . . لا أرغب في التوقف عن الذهاب إلى أماكن أبعد ، بل أرغب في اكتشاف المزيد من الجزر والذهاب إليها بحثًا عن الذهب»[1].

وأما الغاية الأسمى التي كان يبغيها كولمبس ويجد في البحث عن الذهب من أجل تحقيقها فهي تجهيز حملة صليبية من أجل استعادة أورشليم !!

فيخبرنا كولمبس في يومياته التي سجلها يوم ١٤٩٢/١٢/٢٦م أنه : «**يأمل في العثور على الذهب بكميات كبيرة حتى يتسنى للملكين فرناندو وإيزابيلا الاستعداد والاتجاه إلى فتح الديار المقدسة**»[2].

وفي رسالة إلى البابا يخبره كولمبس أنه : «**لقد جرى الاضطلاع بهذه المهمة بقصد استخدام ما سوف يتم كسبه منها في رد الديار المقدسة إلى الكنيسة المقدسة**»[3].

فلم يكن في ذهن كولمبس ولا من أهداف رحلته تغيير بنية العالم ، ولا هو كان على وعي بما سوف يحدثه اكتشاف العالم الجديد من آثار شاملة ومتوالدة في الغرب وإعادة صياغة وتكوين للعالم ، بل ولم يكن حتى على علم بأنه يكتشف عالمًا جديدًا ، وإنما : «**ظل حتى آخر ساعة في حياته يؤكد أنه نزل في أرض آسيا ، وأنه إذا واصل السير غربا سيبلغ نهر الجانج**»[4].

كل ما كان في وعي كولمبس وإدراكه هو أن يصل إلى الهند والشرق من طريق بعيد عن سيطرة الدولة العثمانية ، فرحلته الكشفية لم تكن سوى مغامرة للتجارة وجمع الأموال ، وأقصى طموحاته كانت حلمه أن يتمكن برحلته من تجهيز حملة لاستعادة الأرض المقدسة باسم إسبانيا الكاثوليكية .

---

(١) تزفيتان تودوروف : فتح أمريكا ، مسألة الآخر ، ص ٢٤ .
(٢،٣) فتح أمريكا ، ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٤) سيتفان زفايج : ماجلان قاهر البحار ، ص ٢٤، ٢٥ .

فكان من عجائب الأقدار أنه أراد خدمة الكاثوليكية وإعلاء راياتها ، فكان ما فعله سببًا في ازدهار البروتستانتية في العالم الجديد بعيداً عن سطوة الكنيسة .

وفاسكو داجاما الذي تمكن من إكمال اكتشاف الطريق البحري والوصول إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، يقول بحار مرافق له في بداية يومياته عن رحلته : « **بسم الرب ، آمين ، في سنة ١٤٩٧م ، وفي عهد مليكنا مانويل صدرت الأوامر لأربع سفن بالخروج في رحلة كشفية بحثًا عن البهارات[*] ، وكان فاسكو داجاما هو القائد الأعلى لهذه السفن** »[1].

ثم تطور الأمر وارتفعت الغاية قليلاً عند ألفونسو البوكريكه ، خليفة داجاما على الأساطيل والمملكة البرتغالية عبر البحار .

فبعد اكتشاف الطريق إلى الهند استولى البوكريكه على مالقة وأرسل رسالتين إلى ملك البرتغال اقترح في الأولى : « **إسقاط قسم من السلسلة الجبلية لإثيوبيا في النيل الأزرق وقطع مجراه وتحويل تيار النيل من الشمال إلى الشرق ، وكان القصد من المشروع حرمان مصر من مياه النيل وتحويل القاهرة وكل المنطقة المجاورة لها إلى صحراء** »[2].

وفي الرسالة الثانية اقترح البوكريكه : « **إنزال قوات من الخيالة في ينبع على ساحل البحر الأحمر تحت ستار مدفعية السفن ، والاستيلاء على**

(*) مسألة البهارات التي كانت سبباً في اكتشاف العالم الجديد وهدم العالم القديم تحتاج إلى إيضاح ، اكتشف الأوربيون أن قليلاً من التوابل يعطي الطعام نكهة لذيذة ، فأصبحوا لا يأكلون طعاماً إلا إذا كان مخلوطاً بالتوابل ، وهذا الإقبال الهائل على التوابل رفع أسعارها في الغرب إلى درجة أن كانت تباع بالحبة الواحدة وبوزنها فضة ، وكانت قيمة التوابل كقيمة المعادن النفيسة يدفعها الناس ثمناً لأرض يشترونها أو بائنة لعروس ، وكانت الحكومات تتخذها أساساً لميزانية وارداتها ، هذا في الوقت الذي لم تكن تساوي شيئاً في بلادها الأصلية .

(١) يوميات رحلة فاسكو داجاما إلى الهند ، ص ٢٧ .

(٢) بونداريفسكي : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٢٨ .

المدينة بزحف صاعق ونبش مدفن النبي محمد هناك ونقل نعشه إلى لشبونة ، لأجل التقدم فيما بعد إلى الحكام المسلمين باقتراح مقايضته بقبر المسيح والقدس وبعض أراضي الشرق الأدنى الأخرى»[1].

فداجاما لم يكن يقصد إلا تنمية تجارة التوابل والابتعاد عن مناطق سيطرة العالم الإسلامي ، وخليفته البوكريكه طور فكرته من الابتعاد عن عالم الإسلام إلى مهاجمته ومحاولة خنقه ، لكن لم يكن أي منهما على وعي بما سوف يحدثه اكتشافه من آثار متوالدة ومتراكمة في حركة الحياة ، وفي إعادة تكوين الغرب وصياغة عقله وأفكاره ومعتقداته .

فمن العجائب أيضًا أن أقصى ما كان يدور في عقلهما وآخر طموحاتهما هو هدم عالم الإسلام ، فكان اكتشافهما وسلسلة التغييرات التي ولّدها سببًا في هدم العالم الذي خرجا منه واكتشفا ما اكتشفا للدفاع عنه وتثبيته وتوطيده .

وربما كان أثر الكشوف الجغرافية على الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي كبيرًا ومؤثرًا وموجعًا ، لكنه لا يقارن بما أحدثته هذه الكشوف من تأثيرات وتغييرات عميقه شاملة أفضت إلى هدم النموذج والتصور الغربي للوجود ونسف أصوله وبعث الدوافع إلى تكوين رؤية بديلة ونموذج جديد .

إذًا نجيب على السؤال الذي بدأنا به ، من يقومون بالتغيير ويسهمون بأعمالهم في إنشاء العالم الجديد والرؤية والمنظومة التي يحملها لايدركون معنى ما يفعلونه في وقت حدوثه ولا يعون آثاره الضخمة على مسيرة البشرية ومسار الإنسانية ، فضلاً عن أن يكونوا قد خططوا لهذه المنظومة أو دبروا لحدوث هذه الآثار .

بل وفي أحيان كثيرة تكون هذه الآثار والتحولات على خلاف ما قام من أحدثوا التغيير من أجله وما نهضوا لإحداثه ، وإنما يتم تصنيفهم في صف التغيير وكأحد عوامله فيما بعد ، بعد اكتمال التغيير والنظر للخلف للبحث عن أصوله وبداياته .

---

(١) الغرب ضد العالم الإسلامي ، ص ٢٩ .

وهكذا ، كما يقول الأستاذ مالك بن نبي نقلاً عن المؤرخ جوزو : «**يتقدم الإنسان في تنفيذ خطة لم تساور خياله لحظة ، بل لم يعرفها قط ، فهو العامل الذكي الذي يقوم باختياره بعمل ليس له ، فهو لا يعرفه ولا يدركه إلا ريثما يتم حدوثه في الواقع ، بل إن إدراكه آنذاك لا يكون إلا ناقصًا مبتورًا**(*)»(1).

وهذا هو أحد الفروق الجوهرية العميقة بين الحضارة والنموذج الإسلامي وبين غيره من النماذج والرؤى ، وهي الفروق التي لا يمكن فهم الحضارة الإسلامية وتقييمها ومعرفة مدى تميزها واستقلالها إلا بمعرفتها وإدراك آثارها في صياغة النموذج الإسلامي للحضارة .

ففي كل الحضارات لا يدرك أصحاب التغيير ومن يحركون الأحداث أنهم يغيرون أو يعيدون بما يفعلون صياغة الكون والإنسان ومعنى المعرفة ووسائلها ، بل والوجود كله ، وإنما يدرك أنهم فعلوا ذلك من يأتي بعدهم بأزمان متطاولة في مرحلة التأريخ والتحليل والتقييم والبحث عن صياغة للنتائج المتراكمة والمتغيرات المتوالدة .

ولا يوجد لما ذكرناه استثناء إلا استثناءً واحدًا فقط ، هو الحضارة الإسلامية أو النموذج والمنظومة الإسلامية للخلق والخالق والألوهية والوحي والكون والمعرفة التي ولدت بطريقة انفجارية ، وكانت هذه المنظومة هي السابقة على تكوين الحياة التي خرجت منها وهي طاقة هذه التكوين .

(*) ما يقصده ابن نبي وجوزو في المثال الذي ضربه هو أن شخصاً ، تيمور لنك ، يقوم بفعل في جهة ، مهاجمة العثمانيين ، فيؤدي إلى عدم حدوث فعل آخر ، مهاجمة العثمانيين أوروبا ، فيسهم هذا الشخص بفعله في عدم تعويق التغيير ، نهضة أوروبا ، التي تحدث في مكان آخر بعيداً عن مركز فعله وتأثيره ، أي الإسهام بصورته السلبية ، وما نقصده نحن الصورة الإيجابية ، وهو أن صاحب الفعل الذي يحدث التغيير والنهضة ويحرك الأحداث ، الأوروبيون ، لا يكون هو نفسه على وعي بأن ما يفعله هو تغيير وإنشاء لحضارة جديدة ولا يكون على إدراك لآثاره الضخمة عبر الزمان .

(1) وجهة العالم الإسلامي ، ص ١٩٧ .

والذين طبقوا هذا النموذج وصبغوا الحياة بهذه الرؤية وغيروا نظرة الإنسان لكل شيء حوله وعلاقته به وموقعه منه ، كانوا هم الاستثناء الوحيد في تاريخ الحضارات الذي كان يغير الوجود ، وهم يعلمون أنهم يغيرونه ويقصدون أن يغيروه ، ويدركون الآثار الهائلة وسلسلة التحولات المتوالية المتدافعة التي ستنشأ عن هذا التغيير في إدراك الإنسان للخالق والألوهية وللخلق والكون والمعرفة ولنفسه وللحياة وإعمارها وللآخرة والطريق إليها .

فالمسلمون الأوائل ، ولاحظ أننا منذ البدء حتى هذه اللحظة نتحدث بصيغة علمانية لا دخل فيها للإيمان أو الموقف المسبق ، فهذه كلها حقائق تاريخية غير قابلة للدحض ، المسلمون الأوائل هم النموذج الوحيد الذي غير العالم وهو واع لما يفعله ، مدرك لآثاره ، قاصد لها ، ويحمل في عقله ونفسه منهجًا متكاملاً ونموذجًا تامًا يعمل على تفريغ آثاره في الواقع وتحويل الحياة وتشكيلها به وفي ضوئه وعلى هداه .

اشتكى بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام جهد مكافحة العدو ، وقال رجل : يا رسول الله ، أما يأتي علينا يوم نأمن ونضع السلاح[1]؟

فنزل قوله تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ (النور:٥٥).

فلننظر !

أولاً : تبديل وتغيير ، أي حضارة ، من الضيق والحصار إلى الاستخلاف ، ومن الضعف والقهر إلى التمكين والغلبة ، ومن الخوف إلى الأمن والطمأنينة .

«والآية عامة لأمة محمد ﷺ غير مخصوصة»[2]

(١،٢) تفسير القرطبي ، ٦/٤٨٣٥ .

وذلك كله بالطاقة التي تدفقت مع الانفجار الكبير :

﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾

وثانيًا : هذه الحضارة هي الوحيدة التي نشأت والنموذج التغييري الفريد الذي تكون بوعد مسبق حدد سمات الحضارة وهيكلها وطاقتها الدافعة .

وثالثًا : هذا الوعد جاء في أتون الخوف والضعف ، لا في ساعة القوة والغلبة والنصر ، فليس استشرافًا ولا نتيجة منطقية .

ورابعًا : الذين نزل فيهم ولهم هذا الوعد كانوا على إدراك ووعي وهم يحققون معنى الاستخلاف في الأرض أنهم يغيرون الوجود حولهم ، وعلى إدراك أنهم يطبقون منهجًا يسير بالبشرية نحو الكمال والرقي كما أراده الوعد وبيّنه .

وخامسًا : هذا ليس وعدًا عابرًا ، بل هو وعد يقين مؤكد سبقه وعد آخر :

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ (الزمر: ٧٤).

« وأكثر المفسرين قالوا إنها أرض الجنة ، وقيل إنها أرض الدنيا على التقديم والتأخير »[١]

ولا مانع أن يجتمع المعنيان ، وسورة الزمر مكية ، ففي أتون الاضطهاد والتعذيب جاء الوعد بوراثة أرض الدنيا ووراثة أرض الجنة ، فالذين كانوا يعذبون في قيظ مكة وشعابها كانوا واعين مدركين موقنين وهم في المحنة والابتلاء أنه سوف يأتي عليهم يوم يغيرون فيه واقع الأشياء وحال الدنيا ، وأنهم سيمتلكون بالمنهج والمنظومة التي أنزلت عليهم الأرض التى يعذبون فيها وكل أرض ترنو إليها أبصارهم .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٨/٥٩٣٣ .

قال خباب بن الأرت : أتيت رسول الله ﷺ وهو متوسد برده في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة شديدة فقلت : يا رسول الله ، ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : « **إن كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق اثنين وما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله ذلك الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه** »[1].

مرة أخرى ، التغير والتحول ، والوعد بهما ، والثقة في هذا الوعد والإيقان بتحققه في شدة البلاء والجهد والضعف .

فهذه هي الحضارة الوحيدة والنموذج التغييري الفريد الذي نشأ بوعد مسبق ، وعن معرفة تامة ووعي بالتغيير ، وقصد له ورغبة فيه ، في نور منهج متكامل ومنظومة فريدة غير مسبوقة ولا متطورة من سابقة لها ، ولا متلبسة بما قبلها ، ولا تحركها أو تغذلها الأحداث ، بل هي التي تنشئها .

ونستحضر عبارة ربعي بن عامر مرة أخرى : « **إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة** » .

لم ينفر البدوي القادم من بطن الصحراء بحثًا عن الترف والتأنق ، ولا عن المال والذهب ، ولا عن رغبة همجية في هدم دولة معادية ، وإنما ذهب يحمل منهجًا ونموذجًا يريد به تغيير حال العباد ، أي تحضيرهم ، وتعديل معنى سلطة الحاكم ، وإعادة صياغة معنى الدنيا والآخرة في أذهان العباد .

عبارة ربعي بن عامر هي نسق ومنظومة مترابطة وفهم متكامل للعلاقة بين العباد ورب العباد والوحي والدنيا والآخرة ، وهي رؤية لنفسه يدرك بها

---

(١) متفق عليه ، واللفظ للبخاري .

ما يفعله ويعي ما يغيره ويقصده ، ويعلم يقينًا ما سيؤدي إليه ما يفعله وما يقصده وما يدركه من آثار وتأثيرات ، بل ومن منجزات وثمار .

كيف لا وهو يعي قول المصطفى عليه الصلاة والسلام : «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»[1] .

فالفرق الشاسع المساحة الهائل الدلالة والمعنى بين الحضارة الإسلامية ونموذجها وبين غيرها من الحضارات والنماذج أن من حملوا عبء إقامة الحضارة وآباء التغيير كانوا يعلمون تمام العلم ويعون وعيًا فائقًا معنى ما يقومون به من أفعال وأحداث وما لها من آثار في الزمان .

وليس على من يريد التأكد إلا المقارنة بين عقلية ربعي بن عامر وأهدافه ورؤيته لما يفعله ووعيه به وبين أمثالها عند كرستوفر كولمبس وفاسكو داجاما .

* * *

---

(١) رواه مسلم .

بين الكمال والنقص

أحدث كاتب أمريكي من أصل ياباني ، هو فرانسيس فوكوياما ، ضجة كبيرة حين أصدر كتابه : نهاية التاريخ ، والذي فسر فيه سقوط الاتحاد السوفيتي والعالم الاشتراكي بأنه انتصار للرأسمالية والنموذج الليبرالي الغربي ، وإعلان لسيادته على العالم ، وإنهاء للتاريخ باعتباره صراعًا بين النماذج الحضارية المختلفة .

وما يهمنا في هذه الرؤية هو الإحساس بالكمال الذي تنطلق منه والشعور بالسيادة والتفوق ، أو كما يسميها وليم فولبرايت : غطرسة القوة ، وتنبه أنه سماها غطرسة القوة وليس صحة المنهج .

وعلى خلاف ما قد يظن البعض ، ليست هذه فكرة جديدة ، بل هي فكرة أصيلة في الغرب وشعور يلازمه ويبرز مع اكتمال كل دورة تغيير وما يعقب هذا الاكتمال أو يواكبه من رخاء مادي وحياتي أو اجتماعي واقتصادي أو ما يتلوه من سيطرة وتفوق على الآخر .

فعلى سبيل المثال : «**اعتبر رجال الطبقة الوسطى الإنجليز أن التاريخ انتهى بالنسبة لهم في الشئون الخارجية بانتهاء معركة ووترلو سنة ١٨٤٥م، وفي الشئون الداخلية بصدور قانون الإصلاح العظيم سنة ١٨٣٢م ، وفي الشئون الإمبراطورية بالقضاء على ثورة الهند سنة ١٨٥٩م ، وفي شمال الولايات المتحدة كانت الطبقة المتوسطة ترى أن التاريخ انتهى حين تملكت الأقاليم الغربية وانتصرت الولايات الشمالية المتحدة على الجنوب في الحرب الأهلية ، وفى ألمانيا ، أو بروسيا على الأقل ، كانت هذه الطبقة نفسها ترى أن التاريخ وصل إلى هذه النهاية الدائمة بهزيمة فرنسا وتأسيس الرايخ الثاني سنة ١٨٧١م**»[1].

---

(١) أرنولد توينبي : الحضارة في الميزان ، ص ٢٥، ٢٦ .

وما نريد أن نصل إليه هو أن الرؤية والنموذج التغييري والمنظومة الشاملة غير موجودة في الحضارات غير الإسلامية ، وإنما هي دائمًا تتشكل ، أو في حالة تكوُّن غير منتهية وغير مكتملة ، وهذا التشكل والتكون يحدث على امتداد زمان الحضارة بتأثير الأحداث وحركة الحياة والمكتشفات .

فالنموذج والمنظومة يفترض أنهما موجودان دائمًا في الأمام ، وأنهما غير كاملين ولا تامين ولا شاملين ، لأن الكمال والتمام والشمول معناه أن أحداث الحياة قد توقفت والمكتشفات قد انتهت وأن الحركة التي تعدل النموذج وتغير الرؤية والمنظومة باستمرار قد وصلت إلى حالة جمود وسكون .

وهو ما لا يحدث ، لأن الحياة لا تتوقف ، والأحداث مستمرة ، والمكتشفات تتوالى ، والحركة دافقة ، ومن ثَم فالنموذج مفتوح وقابل للتغيير والتعديل دائمًا ، وهذا هو أصل القلق والتوتر العميق الذي تعانيه الحضارة الغربية ، أفرادًا وجماعات ومجتمعات .

وهاهنا المفارقة الغريبة التي سنجدها مقلوبة في الحضارة الإسلامية .

فرغم عدم اكتمال النموذج والمنظومة الغربية للكون والإنسان والحياة وقابليتها للتعديل والتغيير باستمرار ، فهناك إحساس بالكمال وشعور بالتمام ينتاب أبناء هذه الحضارة في قمة موجة من موجات التغيير على مستوى الأحداث والحركة والحياة وليس على مستوى الرؤى والمعتقدات والمناهج ، ولفترات قصيرة .

ولنبسط الأمر كما فعلنا سابقًا .

الحدث : (أ) يقع في الزمان : (س) فيؤدي إلى سلسلة من التغييرات إلى الأرقى من منظور الحضارة المعنية : (ب) ، (ج) ، (د) في أزمان مختلفة : (ص) ، (ع) ، (م) ، ثم يأتي أبناء النتاج النهائي لهذه السلسلة من التغييرات : (د) ومعاصروها في الزمان : (م) وينظرون إلى الوضع الذي بدأ منه التغيير : (أ) في الزمان : (س) ، ويقارنون بين ما كان وما صار ، فيتلبسهم شعور نفسي وقناعة عقلية أن التغيير وصل في عهدهم إلى الكمال والنهاية .

وبعد ذلك يصبح الحدث : (د) في الزمان : (م) هو نفسه مقدمة لموجة تغيير أخرى ينهار معها الإحساس بالكمال والنهاية .

إذًا المفارقة الغريبة التي نقصدها هي أن النموذج والمنظومة والرؤية التي يُفهم بها الوجود تظل ، ولابد أن تظل ، ناقصة ويُنتظر الوصول إليها في الأمام الزماني الذي لا يأتي ، ولن يأتي أبدًا ، لأن كل أمام في الزمان لابد أن يتلوه أمام وتكون فيه حركة وأحداث .

وفي الوقت الذي يتسم فيه النموذج وما يحمله من رؤية تغييرية وتفسيرية للأشياء بالنقص الملازم له المكون لبنيته ، يؤدي اكتمال موجة تغيير حياتي أو وصولها إلى نهايتها إلى الإحساس بالكمال والنهاية ، وأنه ليس بعد ذلك بعد ، ثم يكتشف أصحاب الإحساس بالنهاية والتمام فيما بعد أنها لم تكن سوى مجرد بداية في موجة أخرى .

فثمة فجوة بين النموذج والمنظومة الناقصة دائمًا وبين الإحساس الزائف بالكمال والوصول إلى الحالة الأرقى على مستوى الحياة وحركتها .

والعكس صحيح تمامًا في النموذج الإسلامي للحضارة .

فعلى خلاف النموذج والمنظومة الغربية الناقصة دائمًا ، النموذج الإسلامي ونسقه ومنظومته للوجود ولدت شاملة تامة كاملة لا تقبل التعديل ولا التغيير بالأحداث ولا حركة الحياة ، بل هي التي تنشئها وتحميها وتوجهها .

ووظيفة البشر في هذه المنظومة المتكاملة هو استيعابها استيعابًا شاملاً وتنظيم المجتمعات وتسيير وقائع الحياة وأحداثها على نسقها وفي هداها .

والمفارقة في الحضارة الإسلامية ، التي هى مقلوب المفارقة في الحضارات الأخرى ، هي أنه رغم أن النموذج والمنظومة تامة كاملة شاملة مغلقة لا تبديل فيها ولا تعديل ، فلا يوجد فرد مسلم ولا جيل مسلم ولا مجتمع مسلم ، نتاج المنظومة ، في أى زمان أو أي مكان ، يشعر أو يمكن أن يشعر أنه قد وصل إلى الكمال أو الغاية التي ليس بعدها كمال ولا غاية .

بل هناك شعور نفسي وقناعة عقلية ملازمة للمسلم أنه في حالة تقصير دائم يحتاج إلى الجبر أو التغيير إلى الأفضل .

ويبدأ غرس هذا الشعور وهذه القناعة في نفس المسلم وعقله من عبادته اليومية ، فيصلي المسلم الفرائض ويستشعر دائمًا أنه يحتاج إلى جبر بالنوافل وتغيير إلى الأفضل لما في عبادته من نقص .

فإذا صلى النوافل لازمه ، أو يجب أن يلازمه ، إحساس بالنقص والتقصير مهما كانت النوافل والقربات التي يؤديها ، لأن إحساسه بالكمال في العبادة هو نفسه نقص فيها ، إذ هو عُجب واغترار يودي به ويهلكه .

فسبيله إلى الكمال هو أن يكون شاعرًا دائمًا بالتقصير ، وشعوره بالكمال في أي لحظة يجعله يحكم هو على نفسه بالتقصير الذي يحتاج إلى تغيير إلى الأفضل ، والأفضل أن يحس بالتقصير، والكمال عند شعوره بالنقص والتقصير لا يكون كمالاً من ذاته ، بل باعترافه الدائم لله عز وجل بتقصيره ، فيكون جبر النقص وتمام الكمال من الله عز وجل وليس منه .

﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ (الشورى:٢٣) .

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٩٥).

«لن يدخل أحدكم الجنة بعمله»[1] .

ولا يوجد جيل مسلم يمكن أن يصاب بالإحساس بالكمال وبلوغ الغاية ، لأنه دائمًا ينظر إلى النموذج والمنظومة على أنها الكمال لأنها إلهية ، وتطبيقه لها لابد أن يكون ناقصًا غير كامل لأنه بشري .

فمصدر النموذج والمنظومة قد حتّم كماله وحتم نقص من يستهدون به مهما بلغت درجة الرقي أو الازدهار ، لأن مقياس الرقي والازدهار ليس المنجزات ،

---

(١) متفق عليه .

وإنما القدرة على فهم المنظومة وتطبيقها كما يجب ، وأحد علامات صحة الفهم والتطبيق هو الشعور بالتقصير إلى جوارها .

ولا يوجد مجتمع مسلم إلا ويستشعر النقص ، أيًا كان رقيه أو تقدمه أو سيطرته وقوته ، وهو ينظر إلى التطبيق النموذجي للمنظومة والمنهج في القرون الأولى ، خير القرون ، والعهد النبوي والخلافة الراشدة خاصة .

فإذا جئنا إلى العهد النبوي نفسه ، وهو الذي يقاس عليه ، رأينا أبناءه ورجاله ، وهم وما أنتجوه التطبيق المثالي الذي لا خطأ فيه للمنظومة بسبب عصمة الوحي الذي يتنزل عليهم ووجود النبي عليه الصلاة والسلام المصحح المرشد دائمًا بين ظهرانيهم ، لو نظرنا إليهم لرأيناهم في إحساس دائم بالنقص والتقصير لأن المنظومة تعلمهم أن كل ما يصلوا إليه هو نعمة من الله عز وجل تستوجب شكرها :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣)

وأن ما قد يمتلكونه من قوة هو ممنوح قابل للسلب ، وأن ما عندهم من إيمان ، أيا كان قدره ، هو في جناب كمال الألوهية ونعمها قليل يستوجب الزيادة دائمًا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾ (النساء:١٣٦) .

وإذا أحس أحدهم أو بعضهم بالكمال تعلمهم المنظومة ومنهجها أنه كِبْر يقصر به في حق نفسه ويحرمها النعيم ، وفي حق ربه الذي العظمة إزاره والكبرياء رداؤه وحده .

وإذا امتلك العلم والسطوة فلابد أن يفهم ويوقن أنه :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٧٦) .

وتعلمه المنظومة والمنهج أن أصغر الكائنات وأقلها شأنًا ربما أوتي من العلم ما لم يؤته من سُخرت له الإنس والجن والطير والريح :

﴿ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ (النمل:٢٢) .

وتحـذرهم المنظومـة أن الإحسـاس بالكمـال والاغـترار بـالرقي هـو مقدمـة الهلكة والمحو .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾ (القصص:٧٨) . . . ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (القصص:٨١) .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾

(التوبة:٢٥) .

فكل شيء في البناء يجعـل المسـلم ، فـردًا أو جماعـة ، مستشـعرًا التقصـير موقنًا به ، أيًا ما كانت مرتبة عمله أو درجة ما بلغه .

وليست مصادفة ولا زيادة أو حشوًا تلـك العبـارة العلامـة والمـنهج وعنـوان العقلية والنفسية التي يختم بها المؤلف أو الباحـث أو المحقـق المسـلم عملـه : **والله أعلم** .

فإذا وصلنا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وهـو الـذي سـألت عنـه السيدة عائشة رضي الله عنها فقالـت : «**كـان خلقـه القـرآن**»[1] ، أي أنـه ﷺ لم يكـن يطبق المنظومة أو يحققها وينزلها على الواقع ، بل كان هو هي أو هو التجسيد الحي لها في صورة بشرية ، لو وصلنا إليه عليه الصلاة والسـلام لرأينـاه ، وهـو المنظومة نفسـها في صـورتها العمليـة ، وهـو المعصـوم مـن الخطـأ بـالوحي ، والذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لرأيناه مستشعرًا التقصير في جنـاب كمال الله وسـابـغ فضله : «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»[2] .

---

(١) رواه النسائي .

(٢) متفق عليه .

وحتى وهو عليه الصلاة والسلام في ذروة النصر والفتح الأعظم يجب أن يقف ويستشعر التقصير وإن كان العمل تامًا كاملاً لا نقص فيه ، لأن الشعور بالتقصير رفعة في الدرجات ومنزلة رفيعة في الجنات :

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ١-٣).

ونوجز فنقول : الأمر سلسلة متصلة الحلقات ، النبي عليه الصلاة والسلام يستشعر التقصير في جناب الله عز وجل لأن هذه مرتبة العبد الشكور، وصحابته رضوان الله عليهم يستشعرون التقصير إلى جواره ﷺ ، يوجل ما يوجل وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، والمسلمون بعدهم يستشعرون التقصير إلى جوار هذا الجيل الفريد الذي اختاره الله عز وجل لإنزال وحيه عليه وتكليفه وتشريفه بحمل دعوته ، والجميع شاعرون بالتقصير في جوار المنظومة التي تعلمهم أن الإحساس والاعتراف بالتقصير خطوة في طريق نوال الكمال الذي ليس في الدنيا .

وهاهنا المفارقة الغريبة .

فالنموذج التغييري والمنظومة كاملة متكاملة ، على خلاف حضارة الغرب ناقصة الرؤية فاقدة النموذج ، والمسلمون شاعرون دائمًا بالتقصير الذي يتطلب السعي معه إلى الكمال ، لأن أحدًا منهم لن يصل إلى التجسيد الكامل للمنهج والمنظومة فردًا ، وهو النبي عليه الصلاة والسلام ، ولا جماعة ومجتمعًا ، وهو العهد النبوي ، وأيضًا على خلاف الغرب الذي يصيبه الإحساس بالكمال من آن لآخر تبعًا لاكتمال دورة تغيير أو نهاية موجة حياة .

وننبه في ثنايا هذا الفرق إلى فارق آخر .

فنموذج الحضارة الغربية أمامها لا تراه أبدًا ولا تصل إليه .

وقد يلتبس الأمر بالبعض أو يتعمد التلبيس ، فيرى أو يدعي أن نموذج الحضارة الإسلامية ومنظومتها موجودة دائمًا في الخلف ، فهي تشد المسلمين

إلى الماضي وتقيد حاضرهم وتكبل مستقبلهم ، كما يقول بعض الغربيين والمستغربين .

لذا لزم أن ننبه حتى لا يقع أحد في هذا الفخ .

فليس نموذج الغرب ومنظومته في الأمام ، ونموذج الإسلام ومنظومته التي يستمد منها المسلمون الرؤية في الخلف ، لأن نموذج الإسلام ومنظومته مطلقة من الزمان مرتفعة عن الجهة .

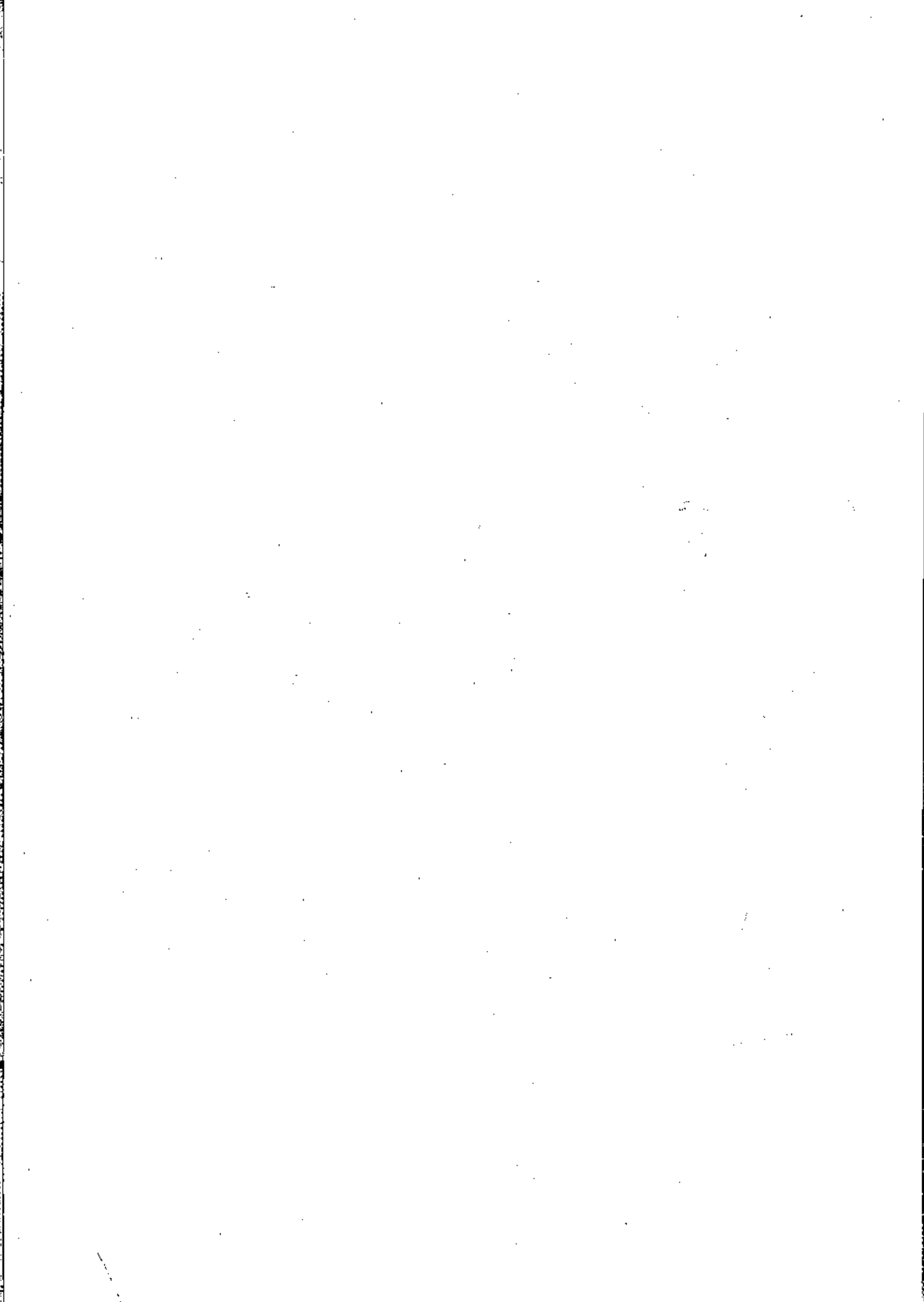
وإذا كان لابد من التقريب حتى يستقر الأمر في الأذهان ، فمنظومة الإسلام ونموذجه بالنسبة لأمته ، في كل عصر وزمان ، وفي كل جيل ، وفي كل مكان ، ليس أمامها ولا خلفها ولكنه أعلاها ، لأن هذه المنظومة ولدت بأمر علوى : ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ .

* * *

الفصل الرابع

ما بعد ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾

- اليوم أكملت لكم دينكم
- بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾



﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ نموذج مكثف أو نواة حضارية متكاملة تحمل داخلها كل الوحدات البنائية للحضارة والنموذج التغييري الإسلامي ، كما تحمل أيضًا السمات الفريدة لطبيعة هذه الحضارة وتكوينها .

فماذا حدث بعد ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ ؟

سوف نقفز أولاً إلى :

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (المائدة:٣).

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ تعني تمام النموذج واكتمال المنظومة ووصول التغيير أو التفسير الجديد للوجود إلى نهايته ، بما يعني إغلاق المنظومة واستقرارها وعدم قدرة أحد أن يضيف إليها أو يعدل فيها ، ذلك أن أي إضافة أو تعديل تتنافى مع : ﴿ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ ، فلن تكون هذه الإضافة أو التعديل ، كائنة ما كانت ، سوى نحر في بنيانها وتآكلٍ في أصولها أو انحرافٍ وتشوهٍ في النموذج .

ولأن هذه كانت هي خاتمة النماذج الإرشادية من الخالق إلى خلقه ، كان من رحمة الله عز وجل بهم أن تكفل بعصمة هذه المنظومة وضمان استقرارها وعدم انحرافها ولا تآكلها ، عصمتها بحفظ النص الذي يحملها ، وبقائه لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يزاد فيه ولا ينقص منه ، ولا يتطرق إليه اضطراب عقول البشر ولا انحراف نفوسهم ولا أهواء قلوبهم ولا هفوات أيديهم :

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)

فحفظ عز وجل بذلك المنهج والمنظومة والإطار التفسيري الجديد والصحيح والحق للوجود من التعديل في أصله بزيادة أو نقص ، أو إعادة

وضع لموجود في غير مكانه ، أو وسمه بغير سماته ، أو بتغيير العلاقة بين هذه الموجودات بما يحرف ما أوجدها عز وجل فيه .

فكل زائد على عناصر هذه المنظومة هو خارج عليها غريب عنها ، قد تنخدع بعض العقول ببريقه وزخرفه ، أو برنين أسماء من يحملونه ، أو بالغفلة عن أصول المنهج ، لكن المنظومة نفسها لا تلبث أن تلفظه ، وتعيد باستقرارها وكمالها ، تصحيح الأوضاع الذهنية الخاطئة في عقول أبنائها .

وهذا ركن مهم إلى أقصى درجة في فهم المنهج والمنظومة الإسلامية للوجود وتقييمها ، فالمنظومة كاملة مستقرة تامة شاملة غير قابلة للتعديل والتحريف بعصمتها وحفظها ، ولا للزيادة والتزيد بتقرير كمالها وحسمه .

وإلى جوار كل هذا هي نفسها تتسم بالفاعلية الذاتية التي تجعلها قادرة بإحكامها على لفظ كل غريب عنها وإعادة غربلة أي تصور يوضع إلى جوارها ، في استقلال كامل عن أذهان الأتباع .

فالمنظومة هي التى تقبل وترفض وتفسر وتصحح حتى في ظل غفلة أصحابها ، وهو ما يفسر قدرة المنظومة القرآنية على البقاء نقية صافية لا يتلبس بها تصور ولا يختلط بها نموذج آخر، وحتى إذا وجد إلى جوارها نموذج أو تصور آخر أو حتى عنصر في تصور يتشابه مع أحد عناصرها فإنه يظل منفصلاً عنها خارج إطارها ولا يدخل إلى بنيتها ولا يتداخل بمكوناتها أبدًا .

وبذلك صمد المنهج أمام وثنية العرب وفلسفة الإغريق وأساطير الهند ، فلم تفلح أي منها في أن تحيد به ولا بأي مكون فيه قيد شعرة عن أصله ووضعه ومكانه وعلاقته بما حوله ، ومن جاوره منها فإلى حين ، ثم يفنى وتبقى هي بعد فنائه كما كانت قبل وجوده .

وليست كذلك كل الحضارات أو النماذج ومنظومات الرؤية ، فكلها يتعدل ويتغير ويتشكل ويعاد صياغته من عصر إلى عصر ، ومن مكان إلى مكان ،

ومن عقل أمة إلى عقل أخرى تأثراً بالبيئة وطبيعة الإنسان المختلفة والاحتكاك مع التصورات الموازية أو اللاحقة، التي تتداخل كلها فتؤدي إلى ابتعاد المنظومة أو التصور عن أصله بما يقاس بالسنوات الضوئية.

والمسيحية خير مثال، ليس فقط ببعدها عن أصلها الذي نعتقده في الإسلام، بل حتى عن أصلها الذي يعرفه أصحابها ويقرون به.

وما نقوله ليس ببعيد عما نحن فيه: «**فأى انحراف في العقيدة (المنظومة أو الرؤية التي يفهم من خلالها الوجود) يؤدى إلى تغييرات عميقة متلاحقة يتوالد بعضها من بعض**»[1].

فانحراف التصور وتعديل أو تبديل المنظومة أو التصور يغير طريقة فهم الإنسان لها وتعامله مع مكوناتها، ذلك أن التعامل مع الشيء نابع عن تصوره الذي يوجد به في الذهن، فينتهي التعديل والتغيير بنتائج فادحة في التعامل مع الكون والإنسان والخلق وإلى آثار لا حد لها في مسيرة البشرية وفهم الوجود.

* * *

(١) جوستاف لوبون: سر تطور الأمم، ص ١٦٣.

بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ هي لحظة الانفجار الكبير للحضارة الإسلامية ومنظومة التغيير والتفسير الإسلامي للوجود ، و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ هي اكتمال المنهج ولحظة غلق المنظومة وعصمتها بذلك من التعديل وحفظها وصونها عن التغيير .

فماذا حدث بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾؟

حدث بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ أمران مهمان ، لاحد لأهمية فهمهما وتقديرهما ووضع كل منهما في موضعه وفهم العلاقة بينهما .

والأمران متشابهان ومختلفان ، متمايزان ومتداخلان ومتكاملان ، أحدهما أصل والثاني فرع عنه ، أحدهما مطلق والآخر مقيد ، أحدهما غير قابل للتعديل ولا التغيير والآخر غير قابل للتكرار، والأمران متلابسان متجانسان .

أولاً : بسط المنظومة وتحديد ملامحها :

الأمر الأول هو بسط المنهج ونشر المنظومة التي ولدت مكثفة متضاغطة في ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ لحظة الانفجار الكبير .

فـ ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ كما علمنا ، تحمل سمات الحضارة الإسلامية كلها ومعالم المنهج والمنظومة الإسلامية في صورة نواة تحوي طاقة التغيير ومعالمه موجزة مكثفة متضاغطة .

وما بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ تم إخراج المنظومة من النواة وبسطها ونشرها وتحديد مكوناتها وعناصرها بصورة واضحة لا تحتمل لبس الإيجاز ولا امتزاج التكثف .

ومع تحديد عناصر الوجود في الرؤية الإسلامية وبيان مكوناته ، كان أيضًا بيان صفات كل مكون وحدوده وملامحه هو في نفسه ، وإبراز موضعه من التصور وعلاقته بغيره من المكونات داخله ، والرابط الذى يربط هذه المكونات كلها وعناصر الوجود معًا ويحدد دور كل منها ، مما أنتج لحظة الاكتمال والغلق منظومة شاملة تامة كاملة متناسقة متجانسة محددة المعالم واضحة السمات ، كل مكون فيها هو أيضًا واضح محدد المعالم والملامح في مكانه الصحيح الذي ينبغي له من مكونات الوجود الأخرى وفي مستقره المكين من المنظومة ، بما يجعله عصيًا على الاهتزاز والقلقلة ومحاولات التعديل والتغيير والانحراف به في نفسه أو في علاقته بغيره .

فبين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ خرجت للوجود معالم الألوهية الحقة كما يجب أن تكون وصفات الإله الحق وكيف أنشأ الوجود ويسيره ، وبينهما تمت الصياغة النهائية لمعالم الإنسان في نفسه واكتمل الإطار الذي يجمعه بغيره من بني الإنسان ومن المخلوقات ومكانه من الخالق ، وبينهما ظهر وضع الإنسان في الكون وعلاقة له به لم تكن له من قبل .

وبينهما حضر إلى العالم والإنسانية نسق واضح غير مسبوق للربط بين الوحي والعلم والعقل ، ومنهج متكامل في المعرفة ووسائلها ، وبينهما تمت إعادة تفسير العلاقة بين الدنيا والآخرة تفسيرًا يشملهما معًا فى إطار واحد وتكمل فيه إحداهما الأخرى ، وبينهما توحدت كل هذه العناصر والمكونات في وحدة واحدة غير مسبوقة ولا ملحوقة .

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ كانت نواة حضارية شاملة متكاملة ، والمسافة بينها وبين «﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ كانت وضعًا لهذه النواة تحت المجهر لرؤية تفاصيلها وسماتها الدقيقة وتكبير ملامحها وإخراجها في صورة واضحة مفصلة لا مجال فيها للبس ولا للخلط أو التوهم .

ففي المسافة بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ تحددت السمات النهائية للنموذج واكتملت صفات المكونات في المنظومة .

وما حدث بين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ من إكمال ثم غلق للمنظومة وتحديد لسماتها وتفصيل وبيان لسمات مكوناتها هو الأمر المطلق غير القابل للتعديل ولا التغيير .

وهو النموذج الذي ، وإن تلبس نزوله وبيانه بفترة زمنية محددة ، فهو مطلق عن الزمان ، يعلو فوقه ، أو هو خارج نهر الزمن ، ليس في الأمام ولا في الخلف الزمني ، وإنما هو ، دائمًا وفي كل عصر ، في الأمام النفسي لأتباعه ، وهو في الحقيقة فوقهم وأعلاهم ، يمر نهر الزمان بهم تحته وهو ثابت لا يتغير ولا يتحرك ولا يتبدل وضعه بالنسبة لهم في أي عصر ، لأنه فوق نهر الزمن وخارج مجراه ولا يتداخل به .

وفهم هذه المسألة مهم في ذاته ومهم لفهم رؤية المسلمين وتصورهم لحضارتهم ، فالمسلمون الذين أنتجهم هذا النموذج وأخرجتهم هذه المنظومة لم يحدث أبدًا في أي عصر بعد العصر الذي التقت فيه المنظومة ، التقاءً غير متلابس ، بالزمن أن ارتبطت المنظومة في أذهانهم بالتاريخ أو الماضي ، بل كانت دائمًا كيانًا حيًا متدفقًا موجودًا معهم في كل زمن وفي كل عصر كما هو في الذي قبله والذي قبله ، وكما سيكون في الذي بعده والذي بعده .

وما نريد أن نقوله هو أنه كان هناك دائمًا فصل واضح وتمييز بين النموذج والمنهج والمنظومة وبين الزمن الذي عاصر نزولها إلى البشر ، فلم يلتبس أحدهما بالآخر أبدًا ، ولم تؤثر معاصرة نزول النموذج والمنهج للحظة معينة ، ولا استطاع توالي العصور بعد هذه اللحظة التي التقت المنظومة فيها بالزمن أن يحدث لبسًا يدخلها في وعي أهلها داخل مجرى الزمن ولو للحظة واحدة .

وقفة تمييز :

ويقتضي الوصول إلى هذه النقطة الوقوف ، إذ قد يتصور البعض من غير أهل النموذج والمنظومة القرآنية ، أو ممن يحسبون عليها وهم في الحقيقة ليسوا منها ولا يمتون لها بصلة ، أن هذه حالة مرضية أصيبت بها الأمة الإسلامية كلها وعبر تاريخها كله ، تجعلها توقف الزمن دائمًا في لحظة واحدة لا تتحرك ، هي لحظة البداية والنشأة ، مثلها مثل حالات الحنين إلى الماضي أو نقطة الميلاد الأولى المرضية Nostalgia .

والأمر شاسع البون ، إذ الفارق الجوهري بين الأمرين هو أن حالات الحنين إلى الماضي النفسية المرضية هي حالات ذاتية لا دخل لما خارج نفس الإنسان في إنشائها ، ولا يوجد شيء خارج ذهن المصاب بها وعقله ونفسه يحمل في حقيقته ملامح اللازمنية أو الارتفاع عن الزمن .

وليست كذلك حال أمة الإسلام ، ثمار النموذج والمنظومة ، ذلك أن هذا التصور وهذه الرؤية منهم وهذا الفهم للمنظومة والنموذج على أنه خارج الزمن وقابل للوجود كما هو في كل عصر ، وإمكان تغيير الحياة لإعادتها إليه رغم ملابسة نزوله للحظة زمنية معينة ، هذا التصور وهذه الرؤية لم تنشأ في نفوسهم وعقولهم أولاً ومن لا شيء ، وإنما نشأت في عقولهم وقرت في نفوسهم صدى وانعكاسًا للمنظومة نفسها وأثراً من آثار النموذج والمنهج المتكامل .

فالرؤية والتصور المرتفع عن الزمن هو تصور صحيح لحالة حقيقية موضوعية واقعة وليس حالة مفترضة أنشأتها النفس المريضة دون أصل لها في الواقع .

فاللازمنية هي إحدى ملامح المنظومة نفسها ، وهي علامة من علاماتها ، وأركانها وتفاصيلها وجزئياتها الدقيقة هي التي تبني هذا الانفصال عن الزمن وتجعله أحد أركانها الحقيقية وسماتها في تصور من تُنشئهم .

فالمنظومة من الله عز وجل ، وهو عز وجل خالق الزمان ويحيط به علمًا ، ولا يأتي زمان ولا يحدث فيه حدث إلا وهو معروف مسجل مكتوب .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٥٩) .

فالأحداث لن تؤثر في ثبات المنهج ولـن تغير في المنظومـة لأنها معلومـة مسجلة .

والمنظومة القرآنية نفسها لا دخل للزمن فيها ، ماضيًا أو مستقبلاً ، فالقرآن منزوع الإشارات والدلالات الزمنية، والمستقبل عند البشر قد حدث فيه وصار واقعًا معروفًا .

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:١).

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (الزمر:٦٩) .

والماضي في معارف البشر عنده حاضر يقع في لحظته ، فإبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ (البقرة:١٢٧)

ونوح عليه السلام : ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ (هود:٣٨)

والقرآن كله مشرف على الزمن من علٍ وخارج مجراه ، يرى بدايته ونهايته ولا يتداخل به، ويُعلِّم أهله أن قيد الزمان عليهم لا يسري عليه ولا يخضعه له:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ ﴾ (القصص:٤٤) .... ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ﴾ (القصص:٤٥) ... ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ ﴾ (القصص:٤٦) .

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(آل عمران:٤٤).

فارتفاع المنظومة والنموذج التغييري والتفسيري الإسلامي عن الزمن بكل تفاصيلها ، حتى وهي تتنزل تدريجيًا هو حقيقة من حقائق المنظومة ووحدة من وحدات بنائها .

المنهج والمنظومة وقانون الدورة الزمنية :

إذا كان المنهج والمنظومة ولدا بصورة انفجارية غير ملتبسة برؤية مسبقة ولا مختلطة بها ، بل في استقلال تام ، وإذا كانت المنظومة تامة كاملة مغلقة لا يختلط بها رؤية ولا منهج يعاصرها أو يلحق زمان نزولها لأنها بطبيعتها المكتملة المقررة في حسم لا تقبل دخول عناصر جديدة إليها ، فإن هذه المنظومة الحضارية هي أيضًا غير قابلة للتحلل بفعل الزمن ولا تخضع لنظام الدورة الزمنية وقانونها الذي يصيب غيرها من الحضارات والنماذج ، فتمر بمراحل مختلفة تنتهي بالاحتضار والوفاة وأن يستبدل بالمنهج والمنظومة غيرهما .

وقد يقال : إن الدورة الحضارية الزمانية إنما تسري على المجتمعات ومنجزاتها ، أي على الحضارة بمعناها الاصطلاحي الغربي ، وليس على التصورات والمناهج والنماذج .

وتقول : لا ، بل إن قانون الدورة الحضارية الزمنية يسري على المجتمعات والمنجزات ، ويسري أيضًا على التصورات والمناهج والرؤية التي تتزامن مع هذا الرقي ، فهو ينشئها تراكميًا وهي تدفعه .

فخضوع المنجزات الواقعية المادية للدورة وتحللها يواكبه بالضرورة تحلل وتآكل أصول المنهج والرؤية التي تكونت منها تراكميًا وتغذيه ، ويكون تحلل المنهج والرؤية بالقدر نفسه الذي تتحلل به المنجزات ، وزوال هذا يتبعه زوال ذاك ، والعكس صحيح .

وأبرز مثال على ذلك هو الماركسية ، وهي نظام فكري مغلق ، ولسنا هنا في مقام عرضه ونقده ، وما يعنينا هو أن الماركسية كانت نموذجًا تغييريًا تفسيريًا للتاريخ أنشأه تطور المجتمعات الأوروبية وطبيعتها وكان إفرازًا لها ، وقامت بحمل لوائها وتطبيق أفكارها دول ومجتمعات متقدمة علميًا وتقنيًا .

ثم انهارت هذه المجتمعات وانهارت معها النظرية واعترف أصحابها بفشلها،

والمكابر منهم من يدعي إمكان تطويرها بإدخال عناصر وتصورات جديدة أو محاولات ترقيعية لإعادتها إلى الحياة .

ولو سلمنا جدلاً بإمكان ذلك ، فلن يكون له معنى إلا أنه إنشاء لمنهج ورؤية جديدة من ثنايا السابقة ، أي طريقة التكون الغربي هي هي .

وما يسري على الماركسية كمنهج وتصور للوجود ورؤية للكون يسري على غيرها من التصورات والمناهج ، وإن تكن دورة الماركسية قصيرة سريعة ، مما يجعلها نموذجًا مثاليًا على خضوع الرؤى والمناهج لقانون الدورة ، وانهيارها ليحل محلها غيرها من الرؤى والمناهج التي تتشكل بصورة تراكمية بطيئة .

وحضارة الغرب كلها تأكيد لذلك ، فتاريخ الفلسفة الغربية ومناهبها ليس إلا مظهراً لخضوع المناهج والتصورات والمنظومات الغربية للدورة الزمنية وتحللها بفعل حركة الأحداث ونشوء منظومات أخرى بديلة تتكون من داخل الذاهبة ، وهكذا دواليك .

وعلى سبيل المثال : **«فالفلسفة الغربية (أي منهج الرؤية الغربية للإله والإنسان والكون والوجود كله) دخلت أزمة عميقة عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وتتمثل أعراض الأزمة في ظهور حركات فكرية تعارض المذهبين الأهمين في الفكر الأوروبي الحديث ، أي المذهب الميكانيكي المادي والمذهب الذاتي ، وهذا التغير لا يقتصر على ميدان الفلسفة وحدها ، بل يمتد إلى ما وراءه ، أي إلى ميادين الاجتماع والاقتصاد والفن والإنسان بعامة»**[1].

أليست هذه هي كل سمات الدورة الزمنية تصيب التصورات والنظريات ورؤى الإنسان للوجود بأسره ؟

وليست كذلك المنظومة والتصور والنموذج الإسلامي ، فهو لا يتحلل

---

(١) أ . م . بوشنسكي : الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص ٣٧ ، ويراجع فصل «الأزمة» في الكتاب المذكور .

ولا يختفي ليحل غيره محله ، وإن جاورته رؤية أو عناصر رؤيـة فـإلى حـين ، ثم تذهب ويبقى هو كما هو .

فلا توجد منظومات ولا تصورات بديلة أمكنها وراثة المنظومـة الإسـلاميـة أو زحزحتها ، ولا هي انفكت أو تحللت أو خبت جذوتها منـذ التقـت بـالزمن والناس ، وغايـة مـا يحـدث هـو أن يغفـل النـاس عنهـا في زمـان مـا ، دون أن يستبدلوا بها غيرها ، فيخضـعون هـم لقـانون الـدورة وتظـل المنظومـة مستقلة كاملة مغلقة ثابتة راسخة إلى أن يعودوا إليها .

ثانيًا : تحويل المنظومة إلى مجتمع وحياة :

في الوقـت الـذي كانـت فيـه المنظومـة بـين ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ تُبسط وتفصل وتوضح أركانها وقواعدها وتحدد سماتهـا وملامحهـا ، كان يحـدث الأمـر الآخـر ، ألا وهـو تحويـل المنظومـة والمـنهج مـن الصـورة النظرية إلى حياة وواقع تبدو آثارها فيه ، أي إخراجها من القوة إلى الفعل .

فبينما كانت أركـان المـنهج والرؤيـة تفصـل وتوضـح ، كانـت هـذه الأركـان نفسها في لحظة تفصـيلها وبيانهـا تتحـول إلى واقـع عملـي وحركـة فعليـة في مجتمع قائم ، هو المجتمع النبوي ، بل إن جزءاً من تفصيل المنهج وبيان أركان المنظومـة كـان في ترجمتهـا إلى أثـر عملـي في السـلوك والأخـلاق وطريقـة التعامل مع الواقع المحيط مكانًا وأفرادًا وجماعات .

وحين كانت تتنزل جزئية في المنظومة كانت تتنـزل لا كفكـرة نظريـة ، بـل كبيان عملي في صورة أمر بحركة أو فعـل أو إرشـاد أو نهـي يحمـل عناصـر المنهج في ثناياه(*) .

(*) تنزيل القرآن منجماً حسب الوقائع والأحداث معروف مشهور ، ولمن يريد معرفة كيف كان المنهج النظري جزءًا فاعلاً في حركة الحياة وتكوين المجتمع والدولة يمكن مراجعة كتب التفسير وأسباب النزول ، وما نقصده بالمنهج القرآني هنا وإن كان عامًا ، وعمومه صحيح ، إلا أنه منصب أساساً على التفسير القرآني لمسألة الألوهية والإنسان والكون والوجود كله والروابط بينهم ، إذ الأحكام الفقهية والتشريعية في كل مناحي الحياة مجرد فرع من هذه الرؤية ونتاج لهذا التفسير .

فتكوين المنظومة النظرية حدث عن طريق تطبيق أركانها مباشرة في تفاعل مع النفوس والمجتمع والحياة لا بمجرد الصياغة النظرية ، وهذه حكمة من حكم تنزيل القرآن منجمًا حتى لا يكون مجرد نظرية في الأذهان والعقول ، لا يُعرف كيف تطبق أو ما هو الفهم العملي الصحيح لها .

وإنما كان القرآن منجمًا لتكون لكل جزئية في المنهج الذى يحمله واقعة فعلية وموقف عملي تتنزل عليه بالتوجيه والإرشاد أو الأمر أو النهي ، فتتجسد الفكرة النظرية حياة في لحظة نزولها ، وحين وصل المنهج والنموذج النظري إلى الاكتمال كانت كل جزئياته قد تحولت إلى وقائع عملية وتطبيقية في الحياة ، وكانت الحياة والمجتمع نفسه قد تم تكوينه وتشكيله وإعادة صياغته بالمنهج الجديد ، فصارت بذلك المنظومة هي المجتمع في صورة نظرية ، وصار المجتمع هو المنظومة في صورة تطبيقية .

أو يمكن القول : إنه بهذه الطريقة صارت المنظومة والمجتمع البشري وجهين لشيء واحد ، أحدهما نظري والآخر عملي واقعي ولا يمكن فصلهما .

وبهذه الطريقة التي كان يتحول بها المنهج إلى حياة حية حتى إذا اكتمل وتم كان قد اكتمل تطبيقه في الوقت نفسه وتم ، صار للمنظومة القرآنية والرؤية الإسلامية للألوهية والوحي والإنسان والكون والمعرفة ووسائلها والدنيا والآخرة نموذجًا تطبيقيًا معصومًا من الانحراف في الفهم أو الخلل فى التطبيق بوجود النبي عليه الصلاة والسلام ، إذ ما يحدث خطأ في التطبيق حتى ينبه ﷺ إليه أو يدله الوحي عليه ، فيعاد معالجة الخطأ وضبط الواقع على المنهج والنموذج .

وهذه خصيصة فريدة أخرى في الحضارة الإسلامية ، فهي الحضارة والمنظومة التغييرية الوحيدة التي تم تطبيقها في وقت تكونها ، وكان اكتمال المنظومة النظري هو اكتمالها العملي ، وفهمها من تطبيقها تطبيقًا لا يتطرق إليه الخلل ، وتطبيقها جزء من فهمها .

وهذا ما لم يتوافر لأي فكرة أو تصور أو نموذج آخر ، فكلها ، صحيحة كانت أو مخطئة ، ظلت حبيسة الجدران النظرية ولا يوجد نموذج تطبيقي لها يحولها من أفكار مجردة معزولة عن الحياة والمجتمع إلى واقع يمكن محاكاته ، أو الإنشاء على غراره ، أو فهم أركان المنهج النظرى وعناصره في ضوئه وبهداه .

وهذا هو الإسهام الحقيقي للمسلمين الأوائل فى الحضارة الإنسانية الذي حول المدينة الفاضلة من حلم خيالي إلى واقع حقيقي ومن يوتوبيا إلى توبيا(*) .

ولدينا الآن سؤال يطرح نفسه : هل هذا التطبيق والتحويل للمنظومة النظرية في وقت تكوينها إلى حياة تكون صورة كاملة للمنظومة وتجسيداً للمنهج يخضع للزمن أم لا يخضع له؟

هذا سؤال منهجي خطير ، الإجابة عليه مفترق طرق يترتب عليها آثار بالغة الضخامة والاتساع في التعامل مع الحياة في كل عصر بعد عصر النبوة .

وهذه النقطة بالذات مجال خلط شديد والتباس أشد ومجال لتسرب الدجاجلة الذين يريدون استبدال المنهج وكسر المنظومة واختراقها ، ويعلمون استعصاءها عليهم فيلتفون حولها ويحاولون الولوج إليها من باب تطبيقها .

المنظومة والمنهج القرآني مطلق خارج الزمن لا جدال في هذا ، ومن يماري فيه أو يحاول أن يستبدل به غيره فهو خارج المنظومة والمنهج ولا صلة

(*) يوتوبيا Utopia كلمة لاتينية مكونة من مقطعين : u ، أي : لا ، وtopos ، أي : مكان ، أى : لا مكان ، وهو الاسم الذي اختاره توماس مور عنواناً لمدينته الفاضلة التي تصورها ، لإيقانه باستحالة تحقيقها في الأرض ، والمحاولة الحقيقية الوحيدة في التاريخ لإقامة مدينة فاضلة واقعية هي محاولة أفلاطون لتحويل جمهوريته الخيالية المثالية إلى واقع ، وهى المحاولة التي انتهت بأن أسره القراصنة وبيع مع العبيد!!

بينه وبينهما ، وهو أخف شراً وأقل خطراً لأنه وضع نفسه في نقطة الأصل التي لا مجال للبس فيها .

أما مجال الخلط الحقيقي فهو : هل النموذج النبوي والخلافة الراشدة نموذج تطبيقي لا زمني للمنهج القرآني فهو لا يخضع لمجرى الزمن ، بمعنى هل المراد من كل مجتمع مسلم في كل عصر أن يكون صورة من النموذج النبوي الذي هو التطبيق المعصوم للمنهج ، ومن الخلافة الراشدة وهي التطبيق البشري المثالي غير المعصوم للمنهج ؟

نعم ولا !

فما معنى هذه الإجابة الملغزة؟

معناها أن النموذج التطبيقي للمنهج والمنظومة القرآنية يمكن النظر إليه هو نفسه على أن له وجهين .

الوجه الأول : هو فهم المنهج وكيفية التعامل معه لتحويله إلى قوة فاعلة في الحياة ، والوجه الثاني: هو الآثار التي نتجت عن هذا الفهم والتعامل والتحويل .

فالوجه الأول ، وهو فهم المنهج وكيفية التعامل معه وتحويله إلى قوة فاعلة في الحياة لا زمني ، فهو خارج الزمن ولا يخضع لتياره ومجراه ، لأنه جزء من المنهج نفسه ومن المنظومة ولا يمكن فصله عنها ، بل إن المنهج القرآني نفسه يجعل هذا الفهم وهذا التطبيق ركنًا من أركان المنظومة وحقيقة من حقائقها :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر:٧).

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء: ٨٠).

إذًا فليس لأحد ينتمي إلى المنظومة ، أو يدعي أنه ينتمي إليها ، فردًا كان أو مجتمعًا ، في أي عصر أن يفهم المنهج أو يفسره أو يتعامل معه بغير ما فهمه وتعامل معه المجتمع النبوي في وجود النبي عليه الصلاة والسلام ، وليس لأحد أن يقتطع شيئًا من سياقه أو يتعامل معه منفردًا أو يعظمه على

حساب غيره من أركان المنهج وجزئياته ، مثلما نسمع عن أن الإسلام دين العقل أو أنه دين السلام .

فالإسلام دين العقل والوحي معًا ، وإذا كان للسلام ركنه الركين ، فللجهاد والحرب الصريحة مكانها وموضعها .

ولو أن فهم المنهج وكيفية التعامل معه كان زمنيًا مفتوحًا لكل عصر ليفهم ما يشاء ، لما كان لوجود النبي عليه الصلاة والسلام وجهاده وإرشاده ، ولا لتنجيم الوحي وارتباط نزوله بوقائع الحياة من معنى ، ولكان يكفي أن ينزل القرآن كتابًا كاملاً ورؤية تامة ثم تبلبل العقول في فهمها وتتوالد منها النظريات ولا مرجح لإحداها على الأخرى ، كما حدث لكل النماذج والمناهج غير الإسلامية .

فوجود مجتمع حي متحرك معصوم تتحول فيه تفاصيل المنظومة إلى وقائع عملية هو تكوين لنموذج يُحتذى ، وعصمة لأصول المنهج من التحريف وسوء الفهم على مستوى التطبيق .

وأما الوجه الثاني : وهو الآثار التي نجمت في الحياة من فهم المنهج والتعامل معه وبه ، فهو جزء زمني يخضع لقانون الزمن والتاريخ بالضرورة ، لأن تفاصيل الوقائع والأحداث التي يتعامل معها المنهج ويطبق عليها الفهم قد اختلفت وتغيرت ، ولا يمكن أحد أن يعيد شكل الحياة ووقائعها إلى ما كانت عليه في العهد النبوي لينتج آثاراً شبيهة بما أنتجه فهم المنهج وتطبيقه في العهد النبوي .

إذًا فالمطلوب دائمًا هو فهم أركان المنهج الإسلامي كما فهمه النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه والتعامل معه كما تعاملوا هم معه ، وإن كانت الآثار الناجمة ستختلف صورتها لاختلاف الوقائع وأحداث الحياة .

ويمكن أن نضع الأمر في صورة رياضية فنقول : آثار المنهج وثماره في الحياة هي نتاج تفاعل الفهم والرؤية مع الوقائع والأحداث ، أو :

(الآثار والثمار = الفهم + الوقائع والأحداث)

فالفهم في طرف المعادلة الثاني ثابت لا يتغير ، والوقائع هي المتغيرة المتجددة ، ونتاج التفاعل بينهما هو الآثار والثمار أيًا كان شكلها ومظهرها .

وهنا ينبغي ملاحظة أن جزءًا من تكوين المنهج القرآني وحقائقه هو مرونته الفائقة واستيعابه لكل أحداث الحياة ووقائعها على امتداد الزمان وتنائي المكان ، لأن الله عز وجل محيط بالزمان والمكان .

والملاحظة الثانية هي أن إحكام المنظومة وشمولها يعصم الآثار ويمنع الثمار من أن تخرج على حدودها وأركانها ، بمعنى أن اختلاف الوقائع لا يخل بالمنهج لمرونته ، واختلاف الفهم أو انحرافه سيؤدي إلى آثار يلفظها المنهج وتأباها المنظومة لشمولهما وإحكامهما الفائق ، فتظل المعادلة دائمًا متوازنة لا يعجز فيها الفهم عن التعامل مع الوقائع ، ولا تخرج فيها الآثار والثمار عن المنهج إلا بانحراف في الفهم تكشفه على الفور المنظومة وتلفظه .

الدورة الزمنية مرة أخرى : نمط فريد

ولابد من العودة الآن إلى موضوع الدورة الزمنية .

قلنا : إن المنهج والمنظومة الإسلامية الشاملة لا تخضع لقانون الدورة الزمنية التي خضعت لها وتخضع كل المناهج والمنظومات التصورية التفسيرية الأخرى .

إذًا فما الذى يحدث للمسلمين ، وإذا لم يكن ما يحدث لهم هو دورة زمنية تبدأ بالرقي وتنتهي بالتخلف ، فماذا يكون ؟

والإجابة في السؤال نفسه ، فهناك دورة فعلاً ، ولكن هذه الدورة لا أثر لها في المنظومة والمنهج والتصور ، وإنما أثرها في من يقومون على هذا المنهج

ويطبقونه ويتعاملون معه ، فإحدى خصائص هذه الحضارة وسمات هذه الرؤية أن من حقائقها ومكوناتها إقرارها بوجود دورة فريدة تلحق أتباع المنهج وأصحاب المنظومة .

وتفرد هذه الدورة في الرؤية والمنهج الإسلامي عن غيرها من التصورات هو أنها لا ترتبط بالزمن وليست حتمًا مقضيًا لا إرادة للبشر فيها ، وإنما هي مرتبطة بالنموذج والمنهج قربًا منه أوبعدًا عنه وليس بالزمن ، فهذه الدورة ليست حتمًا محتمًا على المسلمين من خارج أنفسهم وبفعل قوى خارجة عن إرادتهم ، وإنما هي قانون يرتبط بإرادتهم وفعلهم ، وجزء من هذا القانون هو تغيره وتوقف الدورة ، وأيضًا بإرادتهم وفعلهم .

ونوضح فنقول : الدورة في المنظومة والتصور الإسلامي تحدث بالصورة التالية : المنظومة شاملة كاملة ، وحين يطبق المسلمون هذه المنظومة كما ينبغي لها وكما فهمها العهد النبوي ، يتفاعل المنهج والمنظومة مع الحياة فتأتي المنجزات والثمار .

فإذا وصل المسلمون إلى قمة الإنجاز أو ذروة الدورة ، وهي تطبيق المنهج بصورة شاملة صحيحة في المجتمع ، فلا شيء يحتم الانحدار والتدهور طالما ظل المنهج كما هو والمنظومة كما هي على أصل فهمها استيعابًا وتطبيقًا .

فإذا ابتعد المسلمون عن المنظومة أو غفلوا عنها أو أساءوا فهمها أو تغاضوا عن بعض أجزائها بدأ التدهور والانحدار ، ويكون مقداره بقدر بعدهم عن المنظومة النظرية والنموذج التطبيقي لها ، وهو العهد النبوي ، وتكون سرعة انحدارهم وتدهورهم بقدر سرعة ابتعادهم عنها .

فإذا انفصل المنهج والمنظومة والتصور عن المجتمع انفصالاً تامًا وصار هو في واد وهم في واد آخر كانت هذه النقطة هي حضيض الدورة ، ويكون إنشاء الحضارة مرة أخرى في هذه الحالة هو تغيير المجتمع بإعادة التصور والمنظومة والمنهج إليه وإعادة بنائه وتكوينه بها وعليها ، فيصل المجتمع إلى

قمة الحضارة عندما يكتمل المنهج فيه حين يكون قد تم نزول جزئياته وتفاعلها داخله .

إذًا فالدورة وتقلب الحضارة ، سواء برؤيتنا وهي التغيير والتصور الجديد ، أو بما يفهمه الآخرون وهو الثمار والمنجزات ، ترتبط بالمنهج والمنظومة وصحة فهمها والقدرة على تحويلها إلى واقع حي ، وليس بالزمن طال أو قصر .

وهذه حقيقة في ذاتها ، وحقيقة مقررة في أذهان المسلمين حال الوعي والإدراك ، وهي حقيقة تقررها المنظومة نفسها ويؤكدها المنهج ، وكذا تؤكدها وقائع المسلمين وأحوالهم في التاريخ .

فالمنظومة نفسها تؤكد ارتباط نوع الحياة وشكل المجتمع بالقرب أو البعد عنها ، فهذه هي عواقب الابتعاد عن المنهج :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (طه:١٢٤).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال:٥٣).

والعكس صحيح ، فهذه هي نتائج اتباعه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الأعراف:٩٦).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ (المائدة:٦٦).

والمنهج يجمع طرفي الدورة المرتبطة به معًا :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ (سبأ:١٥،١٦).

فالـدورة ، رقيًا وانحـدارًا ، تـرتبط بـالمنهج قربًا وبعـدًا ، وإرادة البشـر هـي الفاعلة فيها وليس الزمن المحض ولا القوى الخارجة عنهم .

فهذه الدورة لاترتبط بالمدى الزمني ولا بمرور عصور متطاولة ، وإنما فقط بالقدرة على فهم المنظومة وتطبيقها ، وهـذا هـو مـا يفسـر حـالات الانبعـاث الإسلامي المفاجئ والذي لا يخضع لقانون تطـور الإنجـازات الظـاهرة المعتـاد في سائر الأمم الأخرى .

وهو مـا لا يستطيع الغـرب أن يفهمه كيـف يحـدث وإن كـان يعـرف أنـه يحدث ويتحسب دائمًا له ، يستوي في ذلك مفكروه وساسته .

وتؤكد هذه الحقيقة من حقائق المنظومة حقائق التاريخ .

فحين يقف مسلم من أبنـاء المنظومـة في القـرن الحـادي والعشـرين وينظـر خلفه ، فسيرى أن حوادث التاريخ نفسها تؤكد القـانون الـذي وضـعته المنظومـة للدورة ، وهو أن فهم المنظومة كما فهمها العهد النبوي والتعامل معهـا والـوعي بها وإعادة المجتمع إليها وتكوينه بها وتشربه للرؤية والتصور الذي تحملـه هـو الحضارة ، والإنجاز ، أيًا كان ميدانه ، هو الثمار .

يقول أرنولد توينبي : **« في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي كان العـالم يتساءل وهو ينظر للإسلام والمسلمين : هل يبقى من دين محمـد شيء؟ وفي نهايته كان العالم كله يحبس أنفاسه ويتساءل : هل يبقـى أمـام ديـن محمد شيء؟»!**

والفرق بين بداية هذا القرن ونهايته هو الوعي بالمنظومة وتكـوين المجتمـع بها ، فمما يرويه ابن جبير في رحلته عن مجلس الناصر صـلاح الـدين الأيـوبي في الوقت الـذي كـان العـالم يحـبس فيـه أنفاسـه : **« وحضـره أحـد مماليكـه المتميزين عنده بالحظوة والأثرة مستعديًا على جمَّال ذكر أنه باعه جملاً معيبًا ، فقال السلطان له : ما عسى أن أصنع لك؟ للمسلمين قاض يحكم**

بينهم ، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالشرع يقضي لك أو عليك»[1].

فالإنجاز الذي حققه الناصر صلاح الدين لم يكن بالقوة والخطط العسكرية المحض ، مع قدراته الفريدة والفذة فيها ، وإنما كان بفهم المنظومة الفهم النبوي وإعادة تنزيل جزئيات المنهج في دولته وجيشه وبنائهما به ، ولو أدى تطبيق هذه الجزئيات إلى التسوية بين أحد قواده المتميزين وبين بائع جمال ، وهو خطأ فادح بميزان العسكرية المحض .

فهذا نموذج حقيقي على فهم المنهج وتشربه والإيمان بقدرته وأثره ، وهو في الوقت نفسه مثال نموذجي على قدرة المنهج على الإثمار في أي وقت وتحت أي ظرف .

فقمة الدورة الحضارية الإسلامية هي فهم المنهج الفهم النبوي وتمام بناء الواقع به وإخضاعه لأركانه وجزئياته ، والحضيض هو خلاف ذلك تمامًا .

وهذا الفهم لمعنى الدورة هو ما نلمحه ونستشفه من ثنايا تفسير ابن خلدون لتعاقب الدول الإسلامية ، حين علق نشوء الدولة على إقامة الشرع وإعادة الدين ، وربط نهايتها بفساد حكامها وخروجهم على الشرع : **«فلم يكن معاوية ليعهد إليه (يزيد) وهو يعتقد ما عليه من الفسق ، حاشا لله لمعاوية من ذلك ، وكذلك مروان بن الحكم وابنه ، وإن كانوا ملوكًا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي ، وإنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة ، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء ، فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك ، وأما مروان فكان في الطبقة الأولى**

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص٢٤٤ .

من التابعين ، وعدالتهم معروفة ، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه ... ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها ، فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم ، وولي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا ، حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح ، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه وانغمسوا في الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريًا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منه ، والله لا يظلم مثقال ذرة»[1].

وما قاله ابن خلدون لا يحتاج إلى إبانة إلا أن يُقرأ في ضوء ما أسلفناه وبصورة تتعدى مجرد حيازة الملك أو الحكم إلى المجتمع كله وقدرته على الإنجاز والإثمار .

* * *

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٨، ٢٢٩ .

الحضارة القرآنية
ماذا غيَّر القرآن في العالم وماذا أحضر للإنسانية

هذه هي الحضارة الإسلامية الحقيقية ، ما غيَّره القرآن في عقل العالم وما أحضره للإنسانية ، العالم الذي هو في الغرب والشرق والشمال والجنوب وليس الغرب فقط ، والإنسانية التي هي في أوروبا كما هي في آسيا وإفريقيا ، وهي فى العالم القديم كما هي في العالم الجديد ، هي المنهج والنموذج والمنظومة التي أحضرها القرآن للعالم وحضر للإنسانية بها ، فكانت فتحًا في مسيرتها ونقلة أعادت عناصر الوجود إلى أماكنها الصحيحة ، وفسرتها ، وفسرت العلاقة بينها والروابط بين مكوناتها التفسير الصحيح والمنطقي الوحيد الذي يجمع بينها جمعًا لا تتوزع به مكونات الإنسان ، ولا يتوه فيه عقله ، ولا تتضارب بتضاربه نفسه وتتمزق روحه .

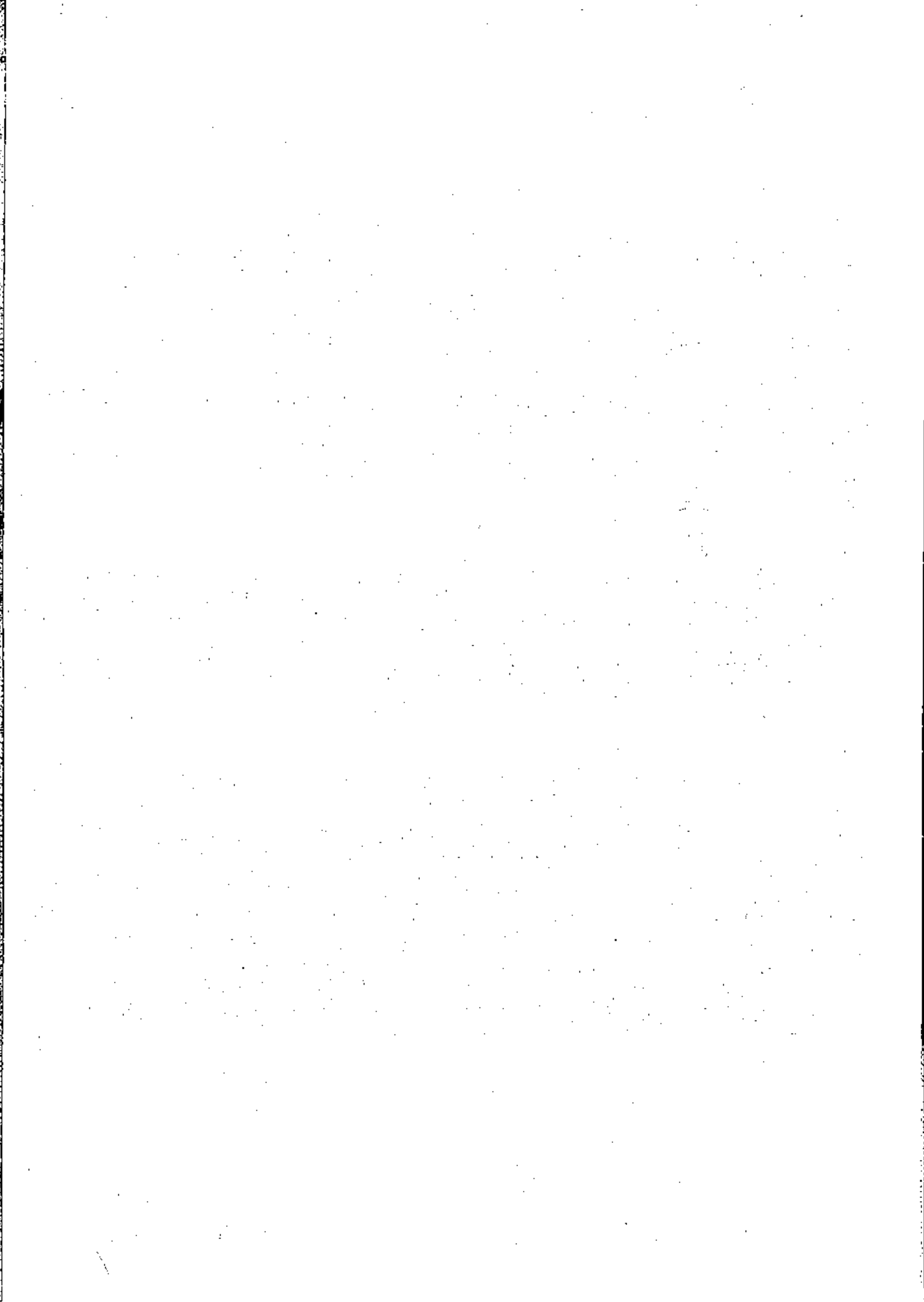
فالحضارة القرآنية وإسهام الإسلام الحقيقي في مسيرة البشرية ، هو الأعمدة الكبرى والأركان التي غيَّر بها القرآن فهم الإنسان للألوهية والكون والوجود ولنفسه ، وبهذا التغير في الفهم تغيرت وقفة الإنسان من الوجود وتغيرت طريقة تعامله معه وتناوله له ، فكان الإثمار والإنجاز .

* * *

الفصل الخامس

الإلــــه

- وجود الله
- التوحيد
- التوحيد بداية ونهاية
- التوحيد الوهمى
- المسألة الإخناتونية
- التوحيد الخالص
- آثار التوحيد القرآنى



وجود الله

يمكن أن نقرر بثقة أن البشر في مجملهم والإنسانية عامة ، إلا شواذًا لا يعتد بهم ، لم يختلفوا في وجود الله عز وجل ، أو بدقة أكثر لم يختلفوا في أن وجود الإله الذي يعبد حق لا يحتاج إلى دليل وحقيقة يعرفها كل إنسان في نفسه .

وما غيره الإسلام في هذه الحقيقة ومنَّ به على الإنسانية فيها ليس في تقرير وجودها في حد ذاته ، وإنما هو في الصورة التي وضعها فيها والموضع الذي جعله لها في النفس الإنسانية .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

(الروم: ٣٠)

فبوأ القرآن وجود الإله من النفس الإنسانية موضع الأصل الذي خلقت عليه ، وأنزله منزلة الحقيقة الراسخة المستقرة في أعماق الإنسان .

فلم تعد الألوهية والإيمان بوجود إله مسألة خارجة عن ذات الإنسان ، ويعتمد إحساسه بها ومعرفته لها على مؤثرات ومؤشرات قادمة له من خارج تكوينه وأصل خلقته ، وهو ما تتفق فيه الأديان خلا الإسلام والأساليب غير القرآنية مع الملاحدة .

فالألوهية عند الأولين حقيقة وعند الآخرين ظاهرة اخترعها عقل الإنسان ، ثم يتفق هؤلاء وأولئك في أن معرفة النفس الإنسانية بوجود إله خالق وإيقانها أنها تخضع له إنما هو ناشئ من مؤثرات خارج نفسه .

فالملاحدة يفسرون إيقان الإنسان أو معرفته أو إحساسه بضرورة وجود إله يعود إليه ويستعين به بـ : « **ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من**

القوى الطبيعية والأحياء ، فلا غنى له عن سند يبتدعه ابتداعًا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه والتوجه إليه بالصلاة»[1].

وأما المؤمنون بوجود الإله في غير المنهج القرآني وأسلوبه فإنهم يجعلون وجود الإله حقيقة ، لكنها حقيقة خارجة عن تكوين الإنسان ويعتمد إيمانه بها على إقناعه وتعريفه بها بالبراهين العقلية والأدلة المنطقية .

وهذه هي إعادة صياغة المنهج القرآني لحقيقة الوجود الإلهي ، فوجود الله عز وجل ليس قضية خارجة عن ذات الإنسان ، لا يعرفها ولا يهتدي إليها إلا بأدلة وإشارات صادرة من خارج نفسه فإن لم توجد هذه الأدلة فُقدت حقيقة الوجود الإلهي في نفسه .

وجود الله عز وجل في المنهج القرآني حقيقة موجودة راسخة مستقرة في نفس الإنسان ، أو هي جزء من ماهية الإنسان مكنون فيه ، وإنكارها يستدعي قبل إثباتها العجب من منكرها لأنه شذوذ عما هو مستقر في نفس الإنسانية وانحراف بها عن أصلها .

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠)

والسؤال هنا : إذا كانت حقيقة الوجود الإلهي جزءًا من ماهية الإنسان ومكونًا من مكوناته ، فما معنى الاستدلال والتدليل القرآني على وجود الله عز وجل؟

ونقول : معناه أن الألوهية كنز مستقر في النفس وجزء أصيل منها ، وما وظيفة الدلائل والبراهين إلا استخراجها من ثنايا النفس واللا وعي إلى منطقة الوعي والإدراك ، أو من منطقة الجمود والسكون في النفس إلى حيز الفعل والحركة ومنطقة الدفع فيها ، لتوضع في الموضع الذي تؤثر به في النفس وتحركها وتصير قوة فاعلة فيها ، فالأدلة والبراهين هي مجرد إزالة لغشاء الكفر[*] عن الحقيقة المكنونة في النفس.

---

(١) الأستاذ عباس محمود العقاد ، الله ، ص ١٢ .

(*) لاحظ أن معاني الكفر كلها تدور حول أصل واحد هو ستر الشيء وحجبه .

وقد يقال : هذه سفسطة ، فهب الأمر كان هكذا أو كذلك ، فما الفرق؟

ونقول : فرق كبير هائل بين أن تكون الحقيقة موجودة في النفس مكونة لها مستقرة فيها والأدلة والبراهين تزيل الغشاوة وتستخرجها ، وبين أن تكون الحقيقة معدومة في النفس والأدلة والبراهين توجدها وتنشؤها .

ويكون الرد : فلتكن الألوهية حقيقة مستقرة في النفس تستخرجها الأدلة أو فلتكن معدومة تنشؤها وتوجدها ، الأمران سواء ، فإذا أقر الإنسان بالألوهية ، موجودة واستخرجت أو معدومة وأوجدت ، كان مؤمنًا ، وإذا لم يقر بها وأطاح بالأدلة كان كافرًا ، واستوى في أمره أن تكون حقيقة الألوهية في نفسه أو أتت بها البراهين من خارجه .

ونقول : ها قد وصلنا إلى المراد ، وهو أثر هذه النقلة الحضارية التي أتى بها المنهج القرآني في فهم النفس الإنسانية ، عبر تفسير معنى الألوهية وبيان موضعها من نفس الإنسان ومكانها من وجوده وأثرها في أفعاله وأثر طمسها في كينونته وحركته .

إذا كانت حقيقة الألوهية معدومة في النفس لا تعرفها إلا من خارجها ولا يوجد لها أثر في تكوينها وماهيتها ، فإذا لم تأت لها الأدلة والبراهين لتعرفها بها ما وُجدت في نفس الإنسان ، كما يفسر الملحدون نشأة ما يسمونه : ظاهرة الألوهية ، لو كانت حقيقة الألوهية كذلك لكان عدم الإيمان بها أو عدم معرفتها أصلاً مجرد إلحاد فقط لا أثر له في نفس الإنسان ولا في حياته عند الملحدين ، وأثره على الإنسان محصور في ما بعد الموت وما سيلقاه فيه من عقاب عند أهل الدين غير القرآني ، ولا أثر له في دنياه وحياته ومعاشه وسلوكه ، وأهم من ذلك كله لا أثر له في نفسه هو .

وحينئذ فإن تبني بعض المجتمعات للإلحاد وإنكار الألوهية ، أو قيام نظريات تجعل دعاماتها وسداها ولُحمتها تنشئة الأجيال التي تحكمها على أن الإله ظاهرة مخترعة لا وجود لها في الحقيقة ، يمكن أن ينشئ أفرادًا أصحاء

ونفوسًا سوية ومجتمعات راسخة قوية ومنجزات وثمار حياتية وسعادة دنيوية ، وإن كانت العاقبة والمآل هي الخسران والعذاب الأخروي الذى يؤمن به المتدينون وينكره الملحدون .

ونوجز فنقول : إن كون الألوهية ، حقيقة كانت أو ظاهرة ، أمرًا خارج النفس تنشؤه وتوجده الأدلة والبراهين يجعل عدم الإيمان بالوجود الإلهي لا أثر له في الدنيا والحياة ، ولا على نفس الإنسان وحركته ، ولا على المجتمع وتكوينه وسيرته ، وتصير العاقبة كلها متعلقة بما بعد الموت ، وفي قناعة المؤمن فقط .

أما أن تكون الألوهية حقيقة ، ولكنها ليست حقيقة فقط كما وقف عند هذا الحد المُقِرون بالألوهية ، بل حقيقة موجودة مستقرة في النفس وجزءًا من ماهية الإنسان وفطرته وأصل خلقه ، فهذا هو الذي أتى به القرآن ليجعل الألوهية والإيمان بها فطرة فوق مرتبة الحقيقة تصل إلى البداهة والقضية التى لا يكون الإنسان إنسانًا إلا بها :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾ (الأعراف:١٧٢).

ذلكم هو الفتح في عالم البشرية وهو المحل الرفيع الذي أنزله القرآن لقضية الألوهية من النفس الإنسانية ، هو إعادة تفسير المنهج القرآني لوجود الله عز وجل وموضعه من النفس الإنسانية بما يجعل الإيمان بوجود الله عز وجل حقيقة لا تعتمد معرفة النفس بها على الأدلة والبراهين فقط .

والأهم أنه يجعل سلب هذه الحقيقة من النفس وطمسها فيها ليس فقط حسابًا عسيرًا وعذابًا أليمًا مؤجلاً إلى ما بعد الموت ، ولكنه أيضًا وخيم العقابيل عاجلاً في الدنيا ومسيرة الحياة وسلوك البشر .

فإذا كانت الألوهية والإيمان بها جزءًا من النفس وحقيقة فيها مكونة لماهيتها ، فإن إنكارها مؤد لا محالة إلى حيرة الإنسان وقلقه وتمزق نفسه

بفقدانها لجزء منها ووشيجة من وشائجها لا قرار للإنسان ولا راحة ولا طمأنينة إلا بها .

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ ﴾ (الأنعام: ٧١)

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ (التغابن: ١١)

فالإنسان دون الإيمان بوجود الإله والقوة الخالقة المدبرة فاقد لمكون من مكوناته ولجزء من هويته وماهيته ، فهو حائر قلق لا يقر له قرار في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة .

وإذا كان الإنسان يرى الكون والبشر والحياة من خلال نفسه ، فتربيته على نزع الإيمان بالألوهية من نفسه أو إفقاد الألوهية لمعناها ومحتواها يعني فقدانه جزءًا من تكوينه وماهيته يرى الوجود به ويتعامل مع الكون والبشر من خلاله، فلا معنى حينئذ للخلل الذي أصابه في تكوينه إلا إفضائه إلى خلل في التعامل مع كل ما يحيط به وإفساده له .

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ (الإسراء: ١٦)

فوجود الله عز وجل في منهج القرآن فطرة في داخل الإنسان مع كونها حقيقة ، وأثر وجودها أو نزعها حال على الإنسان في نفسه وطمأنينته وفي مجتمعه ومسيرته وفي كونه وموقفه منه .

ففهم هذه الحقيقة ، الوجود الإلهي ، الفهم الصحيح لها كما صاغه القرآن وتصحيح وضعها بإعادتها إلى موضعها الحقيقي الأصيل من النفس الإنسانية هائل الآثار على الكون والحياة وعلى الإنسان نفسه .

تفرد الأدلة القرآنية

بعد وضع المنهج القرآني لحقيقة الألوهية في موضعها من النفس الإنسانية كمكون لها مستقر فيها ، كان الفتح الآخر للمنهج القرآني والنقلة التي جاء بها هي كيفية إزالة الغشاوة من أمام هذه الحقيقة واستخراجها من ثنايا النفس ومنطقة السكون فيها إلى موضعها الذي تؤثر به في النفس وتحركها .

فقبل المنهج القرآني وبعده لم يكن الاستدلال على وجود الله عز وجل إلا أمرًا من اثنين ، إما قضية تلقينية جامدة تلقى إلى الإنسان على أنها حقيقة من خارج نفسه ، فهي لا تخاطب فيه عقلاً ولا تحرك نفسًا ولا تلمس فيها شيئًا فتثيرها وتأسرها وتعرف أنها الحقيقة بمطابقتها لما فيها ، وإنما هي معلومة تلقى كغيرها من المعلومات تفتقد الحيوية والقدرة على تحريك الإنسان أو إقناعه ، فضلاً عن إعادة تكوينه بها ، فهي بالضبط كمعلومة تذاع في أخبار الإذاعة أو تنشر في صحيفة عن وجود جبال على المريخ مثلا ! ، وأثرها لا يتعدى أثر هذه المعلومة في نفس من يسمعها .

« ١٥ وَقَالَ اللهُ أَيْضًا لِمُوسَى : «هكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : يَهْوَهْ إِلهُ آبَائِكُمْ ، إِلهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلهُ إِسْحَاقَ وَإِلهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ . هذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ»[1] .

وإما قضية تخضع للاستدلال البرهاني الجاف الذي لا يؤثر في نفس ، ولا يثير حياة ولا حركة في صاحبه ، ولا يستطيع فهمه واستيعابه ابتداءً أغلب البشر ، وإنما يقوله ويتحاور فيه ويلقيه ويأخذه قلة ضئيلة منهم ، هم الفلاسفة أصحاب النظر العقلي المحض .

وهؤلاء قد يثبتون قضية ولكنهم لا يستطيعون تحويلها بأساليبهم إلى عقيدة مستكنة في نفوس البشر فاعلة في حركتهم وآثارهم ، بل تظل معزولة في أذهانهم هم ، لا تخرج عن جدران قوالبهم ، فإذا استطاعوا نقلها إلى العقل فلا يملكون الوصول بها إلى النفس أو إلى المنطقة الفاعلة فيها لتصير مصدر طاقة ومعين حياة للنفس الإنسانية ، ودفعة رقي وتماسك للمجتمع البشري .

وأكثر من ذلك ، ربما لم يستطيعوا الوصول بها ، وهم أصحابها ، إلى منطقة الفعل والحركة في نفوسهم هم ، فالشيخ الرئيس ابن سينا صاحب

---

(١) خروج : (٣ : ١٥)

القانون في الطب قضت عليه التخمة والشره ، وعاش وهو الحكيم عقلاً حياة لا أثر للحكمة فيها ، فلم ينتفع لا بطبه ولا بحكمته!!

إذًا فضل المنهج القرآني في مسألة الألوهية ووجود الإله ، بعد تحويلها من مجرد حقيقة إلى مكون من مكونات الإنسان وجزء من ماهيته وفطرة في وجوده وأصل خلقه ، هو في طريقة عرض هذه الحقيقة والأسلوب الذي جاء به لإماطة اللثام عنها واستخراجها من مكنونها في نفس الإنسان وباطنه إلى منطقة وعيه وإدراكه لتصير قوة فاعلة ومحركة له ، وفي كيف استطاع بأدلته الوصول إلى المنطقة المؤثرة في الإنسان .

وقد يقال : وهل إيجاد أسلوب أو طريقة عرض واستدلال ، وإن كانت غير مسبوقة ، يعد فتحًا ونقلة في مسيرة الإنسانية حتى يعطى مثل هذا الحجم ويصير جزءًا من المنهج القرآني المتكامل للوجود؟ .

ونقول : نعم ، نعم .

فالحقيقة ليست هي فقط ، لكنها هي وطريقة عرضها والأسلوب الذي يحملها، واختلاف طريقة العرض ووسائل الاستدلال هي مظاهر لاختلاف رؤية هذه الحقيقة والقدرة على الإحاطة بها والتعامل معها وتقدير موقعها من الإنسان .

فاختلاف أسلوب نقل الحقيقة ، أي حقيقة ، وطريقة توصيلها للإنسان ثماره هي اختلاف الدرجة التي تصل بها هذه الحقيقة إلى الإنسان ، والقدر الذى تستقر به في أعماقه ، واختلاف تصوره وفهمه لهذه الحقيقة بعد وصولها إليه واستيعابه لكل أركانها وما تعنيه .

ذلك أن : «طريقة الأداء حاسمة في تصوير المعنى ، وأنه حيثما اختلفت طريقتان للتعبير عن المعنى الواحد اختلفت صورتا هذا المعنى في النفس والذهن»[1].

---

(١) الأستاذ سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ص ١٩٤ .

لذلك نقول : أسلوب عرض قضية الألوهية وطريقة الاستدلال عليها هو جزء منها حاسم في تقرير مدى قدرة الاستدلال على الوصول للنفس واستخراج الحقيقة الكامنة فيها ، وإزاحة الحجب من أمامها ، وتحريكها في النفس وتحريك النفس بها .

الفتح في منهج العرض والاستدلال القرآني هو مخاطبة الإنسان في منطقة الطاقة داخله ، أو المنطقة التي توجد فيها الحقيقة مستقرة في أعماقه وتحتاج إلى لمسة تهزها وتحركها .

فإذا كانت علة الفلاسفة هي تعاملهم مع الألوهية كحقيقة خارج النفس ، مما جعلهم يدورون حولها هي ويحاولون التدليل عليها ووضع القوالب للوصول إلى عقل الإنسان بها ، في غفلة عن المنطقة المؤثرة في الإنسان التي لا تحتاج لكل هذه القوالب لإثبات الوجود الإلهي وهي حقيقة مستقرة فيها وجزء منها ، فإن القرآن إذ جعل الألوهية فطرة في النفس فإنه خاطب أولاً وقبل أي شيء آخر هذه الفطرة مباشرة ، وكان منهجه هو لمس منطقة البداهة في الإنسان وإثارة الجزء من ماهيته والمكون من مكوناته الموجود في أعماقه المجبول عليه في أصل خلقه .

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥،٣٦)

وكانت إثارة هذه الفطرة ومخاطبة البداهة وأصل الخلق بالتنبيه المباشر إلى حقائق الكون ، فكأن القرآن حين يعرضها يقول للإنسان : إنها ليست هي التي تراها كل يوم، انظر إليها ببصر طفل يراها لأول مرة ، تعرف عليها من جديد ، تحسسها كما يتحسس الطفل عالمه حين يقدم إلى الوجود .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠)

وإثارة للبداهة تقوم على وضع حقائق الكون في صورة جديدة لم يألفها الإنسان من قبل ، ولم ينشئ اعتياده عليها حجابًا من الغفلة على فطرته وبديهته ، صورة حية تخرج الكون أمامه عن جموده وسكونه ، صورة متدفقة تموج بالحركة لترى النفس كل شيء اعتادت عليه في صورته الجديدة وكأنها تراه لأول مرة .

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٨)

﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ ﴾ (النمل:٨٨)

وإثارة للبداهة والفطرة وإزالة لغشاوة الغفلة وساتر الاعتياد عن الحقيقة المستكنة في النفس بسلب النعم والموجودات من أمام الإنسان ليرى كيف يكون من غيرها .

فلا يشعر الإنسان بأهمية شيء وإن كان بديهة لا تحتاج إلى تأمل إلا عند شعوره بنقصه أو إحساسه بفقده .

وأبين مثال على ذلك هو الهواء ، يتنفس المرء به ، وبه يعيش ويعمل كل عضو وجزء فيه ، ولكنه من اعتياده عليه لا يوليه من عقله ونفسه اهتمامًا وما يشعر به وبحاجته إليه إلا حين ينقص نقصًا يهدد حياته بالفناء .

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ (القصص:٧١)

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٍ تَسۡكُنُونَ فِيهِ ﴾ (القصص:٧٢)

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرًا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ ﴾ (الملك:٣٠)

وإعجاز المنهج القرآني في أسلوبه والفتح الذي أتى به ليس في مخاطبته لمنطقة البداهة وأصل الخلق في الإنسان فقط ، وإنما النقلة الكبرى لاستخراج

الألوهية من النفس هي أن أدلة القرآن وأسلوبه المعجز يخاطب الإنسان كُلاً كاملاً ، وأنه يثير حقيقة الألوهية في نفسه المستقرة فيها من كل وسائل إدراكه وسبل التأثير فيه .

فالمنهج القرآني في العرض والاستدلال لا يتعامل مع الإنسان كعقل فقط يخاطبه وحده ثم يترك نفسه في حيرة واضطراب ، والإنسان في القرآن ليس بداهة ونفسًا فقط ، فهو يخاطب فطرته ونفسه ، وعقله في شك مستريب ، بل القرآن يخاطب الإنسان بكل ما فيه من الإنسان ، وبكل ما يكونه ويجعله في نطاق الإنسان ، نفسًا وبداهة وعقلاً وحواسًا ووجدانًا .

ولأن الإنسان كل واحد لا يتجزأ ولا ينفصل فيه عقله عن نفسه ، ولا فاصل بين حواسه ووجدانه ، وإنما هي كلها مزيج واحد هو الإنسان ، فالقرآن يخاطب مكونات الإنسان كلها في العبارة الواحدة والآية الواحدة .

وهو بذلك يؤكد شمول حقيقة الألوهية للإنسان بكل أجزائه ومكوناته ، فكأن القرآن يستوعب في الدليل الواحد الإنسانية كلها ووسائل المعرفة كلها .

فنقلة القرآن الكبرى هي أنه في منهجه ما هو مستقر في الفطرة لا يخالف ما يطمئن العقل إليه ، بل يتوحد معه ، فما يستريح إليه العقل هو الموجود في الفطرة ، وما هو مستقر فيها هو ما يرضيه في الوقت نفسه ، وهما معًا ماتدركه حواسه مما حولها من مظاهر .

وإذا كان الناس ، كما يقول ابن رشد : «**متفاضلون في طرق الإقناع والتصديق على ثلاثة أصناف ، الصنف الأول : وهم الجمهور الذي يصدق بالأقاويل الخطابية ، والصنف الثاني : وهم أهل التأويل الجدلي الذين يصدقون بالأقاويل الجدلية ، والصنف الثالث : هم أهل التأويل اليقيني الذين لا يؤمنون إلا بالبرهان**»[1].

---

(١) ابن رشد : فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، ص ٣١ ، ٥٨ .

فإن المنهج القرآني يخاطب هذه الأصناف جميعها وغيرها مما لا يدخل في هذا التصنيف بالأسلوب الواحد والدليل الواحد ليقول لنا : إن العقل والفطرة والحواس والوجدان والنفس هي روافد متآزرة لنهر واحد ، أو هي أفنان تبدو متفرقة ولكنها تلتقي في أصل واحد ، هو الإنسان .

فأسلوب القرآن يثير العقل ، والعقل يقول : لابد لكل مخلوق من خالق ولكل موجود من موجد،ومن سمات العقل البحث عن أسباب الأشياء وعللها ، وفقدان الأشياء والموجودات لعلل وجودها ومسبباتها يُفقد العقل الترابط ويسكب في النفس التشتت والحيرة .

فوجود المخلوقات يستلزم في العقل وجود خالق لهم ، وهذا هو ما يسمى بدليل الخلق أو الحدوث أو الإيجاد .

وهذا الخالق والموجد لابد أن يتصف بالكمال وطلاقة القدرة التي يفارق بها مخلوقاته وما أوجده ، وإلا كان مخلوقا مثلها ، وهذا هو دليل الكمال .

وهذا الخالق الذي يتصف بالكمال وطلاقة القدرة لابد أن تكون قدرته وكماله بالقدر الأسمى الذي يكون كافيًا لإيجاد الموجودات ثم الهيمنة والسيطرة عليها ، وهذا هو دليل العلة الكافية .

وقد جمع القرآن ذلك كله وأتى به في الآية هي هي التي خاطب بها الفطرة والبداهة وأمثالها : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ (الطور:٣٥،٣٦)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:١٧)

فجمع القرآن بذلك بين الفطرة وبداهتها وبين العقل وطلب البرهان في آن واحد .

ومن إعجاز القرآن وإحكام المنهج القرآني واستيعابه لمكونات الإنسان ولطبيعته ولأنه مزيج واحد من كل وسائل إدراكه ، ومن فرائده في بيان حقيقة الألوهية كمكنون داخلي في الإنسان يصبغ كل أجزائه وتعرفه كل أبعاضه ،

مخاطبة الإنسان بحقيقة الألوهية واستثارتها من مكامن نفسه من خلال حواسه ، وهي مصادر المعرفة الأولى للإنسان ووسيلته الأولى في إدراك الأشياء حوله والتعرف عليها .

والحواس هي المدخل والمكون الإنساني الذي أهمله فلاسفة البراهين العقلية المحض واستعلوا عليه استعلاء أخل بمناهجهم وقدرتها على التأثير في البشر والوصول بالحقائق إلى نفوسهم .

فالقرآن يستخرج حقيقة الوجود الإلهي من نفس الإنسان بمخاطبة حواسه وشحذها وتنبيهها إلى الكون لرؤية ما فيه .

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (ق:٦،٧)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٣٧-٤٠)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨)

ففي هذه الآيات يحرك القرآن حقيقة الوجود الإلهي في ماهية الإنسان عن طريق حواسه ، وهي وسائل معرفته الأولى والدائمة والمشتركة بين كل بني الإنسان ، ويجعل حواس الإنسان ورؤيته البصرية ، وانتبه إلى أن الآية الأخيرة جعلت دليلها مجرد التنوع اللوني فهي آية لونية ودليل بصري خالص ، يجعل القرآن حواس الإنسان وإدراكه لما حوله بها منفذًا إليه ودليلاً على وجود حقيقة الألوهية في نفسه ، بما يعني أن حقيقة الوجود الإلهي تشمل الإنسان ، كل الإنسان حتى حواسه .

ثـم والقـرآن يخاطـب الحـواس وينبهها ويحركها لتتصـل بمكـامن الـنفس وتحرك حقيقة الألوهية فيها ،هو يخاطب في الوقت نفسه بداهة الإنسان وفطرته التي تعرف الحقيقة بمجرد وقوعها عليها بمطابقتها لما هو مستقر فيها .

وفي الوقت ذاته الآيات تقول : السماء محكمة مبنية مرفوعة بغير عمد ، وأفلاكها تسير في إحكام ونظام لا يختل ، وكل شيء في الكون محكم دقيق في سيره ، ولو حاد عن قانونه ونظامه قيد شعره لاختل الكون كله وأصابه الفساد والدمار ، فلابد لهذا النظام والإحكام الدقيق من منظم يقوم عليه ويُسيّره بعنايته وأمره ، وهذا هو دليل النظام والعناية العقلي المحض في الاستدلال على الوجود الإلهي .

فجمع القرآن بذلك بين الفطرة والحواس والعقل ، وخاطب الإنسان بها كلها ونفذ إليه منها جميعًا في آن واحد .

وما نريد أن نصل إليه هو أن المنهج القرآني نقل قضية الوجود الإلهي نقلة تقاس بآلاف السنين حين جعلها قضية متعلقة بالوجود الإنساني وبماهية الإنسان وجعل كينونة الإنسان معلقة بالإيقان بالوجود الإلهي .

وأيضًا حين جعل معرفتها واستقرارها في النفس متعلقًا بوسائل إدراك الإنسان كلها ، فليست هي قضية عقل خالص بمعزل عن النفس وفطرتها ، ولا هي بقضية نفس وبداهة لا سبيل لعقل الإنسان إلى إدراكها ، ولا هي قضية عقل ونفس تعلو على حواس الإنسان أن تدركها أو هي ليست مهمتها أو من وظائفها .

وإنما علق القرآن قضية الوجود الإلهي بالعقل والنفس والحواس ووحد بينها جميعًا في إدراكها واستقرارها ، فكل وسائل إدراك الإنسان مختصة فاعلة في إدراك حقيقة الألوهية ، وكلها تلتقي معًا في هذا الإدراك ، والوجود الإلهي نفسه وإدراكه هو أحد وسائل توحيد وسائل المعرفة وتنظيمها والربط بينها وتحقيق وحدة الإنسان نفسه .

فكأن عرض القرآن لحقيقة الألوهيـة ولقضـية الوجـود الإلهـي وإشـارته إلى تعلقها بجميع وسائل المعرفة ، هو في الوقـت نفسـه أحـد طـرق بيـان وسـائل المعرفة وتنظيمها وإعادة التجانس بينها .

مـا أحضـره القـرآن للإنسـانية هـو : الوجـود الإلهـي قضـية مكونـة للـنفس الإنسانية ، وقرار هذه النفس الإنسانية وطمأنينتها متعلقة بمعرفة الوجـود الإلهـي والإيمان به ، وافتقاد النفس للوجود الإلهي هو افتقاد لجـزء أصـيل منهـا ، مآلـه الحيرة والقلق والتمزق والاضطراب على مسـتوى الفـرد ، والخلـل في التعامـل مع البشر والكون على مستوى الاجتماع البشري .

والوجود الإلهي لأنه جزء من ماهية الإنسان وتكوينه ، فإدراكـه هـو بكـل ما يكـون بـه الإنسـان إنسـانًا ، الحـواس والعـقـل والـنفس والوجـدان والفطـرة والبداهة ، وكلها تلتقي معًا وتتوحد أفنانها في أصل واحد ولا يطغى منفـذ إلى الحقيـقـة منـها على منفذ ، ولا يغـني أحـدهـا عن الآخر ، والاستغناء بأحـدها أو الاستقلال به جموح وانحراف في تنظيم العلاقة بينها ، وإفساد لمعنـى قضـية الوجود الإلهي ولحقيقة الألوهية وموضعها من كينونة الإنسان .

* * *

التوحيد

التوحيد هو قضية المنهج القرآني الكبرى ، إذ هو قاعدة المنهج الذي جاء به الإسلام ، وهو الرابط الذي أعادت به المنظومة القرآنية تفسير الوجود وغيرت معناه أمام الإنسان ، وهو السيال الذي يتدفق في كل وحدات النموذج الإسلامي ويطبعها بطابعه ، وتعود إليه كل جزئية في المنهج لتصطبغ به وتنضبط بأثره .

فحقيقة التوحيد : «**امتدت إلى تصور المسلم للكون كله وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة في حياته هو بحذافيرها ، كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الإنسانية كلها ، خافيها وظاهرها ، صغيرها وكبيرها وجليلها ، شعائرها وشرائعها ، اعتقادها وعملها ، فرديها وجماعيها ، دنيويها وأخرويها ، بحيث لا تفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة**»[1]

فالتوحيد هو القاعدة التي يقوم عليها البناء الإسلامي كله ، بل وكل عقائد الإسلام وغيبياته هي فرع منه ، ولا تستقيم ولا تكتسب معناها إلا من هذا الأصل .

وقد يقال : هذه عقيدة خاصة بالإسلام وبمنهجه القرآني ، فما الذى يلزم البشر ، كل البشر بها ويجعل مجيء البيان القرآني بها وترسيخه لها فتحًا في عالم الإنسانية ونقلة في تاريخ البشرية وحضارة ارتقى بها الإنسان وعالمه؟

ونقول : بل إنها لكذلك ، فالتوحيد هو نقلة صححت مقاييس الفكر وأعادت تفسير الكون في وجوده ونظامه وحركته التفسير الذي يرضي العقل

---

(١) الأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢١٥ .

وتطمئن به النفس ، ومن يخالفون عقائد الإسلام يعلمون ذلك تمام العلم ، يعلمون أن :

«التوحيد والربط هو إحدى الرغبات العقلية»[1]

يعلمون ذلك ويقرون به وإن أنكروه ، إذ جاء من طريق ، إيمانهم به حكم بإلغاء أنفسهم وهدم عالمهم وبطلان عقائدهم التي يوقنون بخطئها وخلطها ، فهم لا يؤمنون بها وإنما هم ينتمون إليها ويدينون لها بالولاء ، فدفاعهم عنها وانضواؤهم تحت لوائها ، وإن لم تقنع لهم عقلاً أو ترضي نفسًا ، وعداؤهم لما خالفها ورفضهم له وإن علموا وأيقنوا أنه الحق ، هو انتماء المرء وولاؤه لما ولد فيه ورضع منه وغذى به وعاش فيه وهرم .

فهؤلاء لسان حالهم : لولا نزل هذا القرآن على رجل من الغرب عظيم ، وإذًا لكانوا أول المؤمنين .

أتريد الدليل؟

يقول العلامة جوستاف لوبون : **«للإسلام وحده أن يباهي بأنه أول دين أدخل التوحيد إلى العالم»[2]**.

فتأمل قول لوبون : «**يباهى**» التي تعطيك معنى التوحيد وقيمته ورفعة درجته فى عقل واحد من ألمع المفكرين الاجتماعيين وأرصنهم .

«**يباهى**» هي علامة رفعة التوحيد وشرفه ، ودليل على أنه هو الغاية التي كان العالم يبحث عنها ولم يعرفها ويعيها سوى بالمنهج القرآني .

وأدل من لوبون ، الرصين المنصف ، إرنست رينان ، الحقود المتعصب الذي سخر قلمه وأشهر معوله على الإسلام ، ومع ذلك لم يملك ، وهو المغيظ المحنق ، أن يقول : **«إنه لا يستطيع أن يقاوم شعورًا يجرفه حين يدخل**

---

(١) الفيلسوف وليم جيمس : العقل والدين ، ص ٤٠ .

(٢) العلامة جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ١٢٥ .

المسجد في رحلاته ويرى خلوه من التماثيل والزخارف التي تثقل الكنائس وتشغل العابد عن الرب ، وحين يرى وحدة المسلمين في صلاتهم ، وهذا الشعور هو أنه يتمنى لو أنه كان مسلمًا»[1].

فتأمل هذا الذي تمنى أن يكون مسلمًا لتعلم أن الذى منعه هو الذي جعله يشهر قلمه ومعوله ، وهو الذي يجعله ويجعل غيره يعرف إلى أي ذرى سامقة وسماء حمل التوحيد الإنسان ونقل البشرية وارتقى بها ثم لا يقر بذلك إلا عرضًا أو سهواً .

التوحيد هو الرابط الذي يربط الوجود ويوحده ويفسره بصورة منطقية ترضي العقل وتحمل الطمأنينة إلى النفس .

والتوحيد هو الطريق والوسيلة التي لا طريق ولا سبيل غيرها للتعامل مع الكون ، فإن : **«حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر إلى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب يتسلط عليها هذا بإرادة ويتسلط عليها غيره بإرادة تنقضها وتمضي بها إلى وجهة غير وجهتها . . . ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية وإن لم تبلغه دعوة الأنبياء»**[2].

فالإنسان لا يستطيع أن يتعامل بعقله مع كون مفتت تتنازعه القوى والإرادات ، ما يسيّر سماءه غير ما يحكم أرضه ، وما يدير حركته خلاف ما يضبط سكونه .

العقل والنفس ، وإن لم تقر بالتوحيد الإيماني فإنها تجدُّ في البحث عنه وتسعى في الوصول إليه ليمكنها أن تتعامل مع الكون ، ويستوي في ذلك من يتعاملون مع الكون كمكون من مكونات الوجود كالفلاسفة ومن يتعاملون معه كوحدة طبيعية تحكمها القوانين كعلماء الطبيعة .

---

(١) روبرت بريفالت : أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص ١١٩ .
(٢) الأستاذ عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ، ص ٤ .

فمسيرة العلم الطبيعي هي في حقيقتها مسيرة بحث عن التوحيد أو عن آثار التوحيد في الكون ، فنيوتن وحد المكان ، وأينشتين وحد المكان والزمان في وحدة واحدة .

والكون ، كما يقول علماء الطبيعة ، تحكم حركته وتتوزعه أربع قوى ، هي الجاذبية ، والكهرومغناطيسية ، والقوة النووية الضعيفة ، والقوة النووية القوية ، ولكن العلم لا يقنعه ذلك ولا يرضيه .

ما الذى يجعل العالم والكون تحكمه أربع قوى؟ إن هذا شيء مشتت للعقل مقلق للنفس ، يحس معه العلم والعالم ضيقًا ويتساءل : هناك شيء ما غير صحيح ، ثمة شيء يحتاج إلى تصحيح ، تعدد القوى منفر للنفس غير مقبول في العقل ، وهو باعث لهما على البحث عما وراءها .

لذلك ، فإن مسيرة العلم الكوني بعد توحيد المكان والزمان تدور حول رد هذه القوى الطبيعية الأربع إلى قوة واحدة انبثقت عنها في لحظة الانفجار العظيم ، وهي قوة مجهولة حتى الآن ولكن يجب البحث عنها لأنها لابد أن تكون موجودة ، ذلك أن اتساق الكون ونظامه المذهل لا معنى له إلا أن قوة واحدة هي التى تحكم أجزاءه وتنسق حركتها وتجانس بينها على هذه الصورة .

هذه هي طريقة تفكير العلم الذي لا يرضي عقل أصحابه ونفوسهم إلا معرفة القوة الكاملة التي تجعل الكون كله كاملاً في نظامه، فهو أثر من آثارها .

ولا يهمنا بعد ذلك أنهم يبحثوا عن هذه القوة الواحدة الكاملة المطلقة التي ترد إليها كل قوى الكون في النظريات المادية ، كنظرية الأوتار الفائقة ونظرية التماثل الفوقي[1].

---

(١) ميشيل كاكو : ما بعد أينشتين والنسبية ، نظريات توحيد الكون . ونبه من يقرأ أن يراجع اسم المؤلف من حين لآخر حتى يتأكد أنه ليس مسلماً !!

مايهمنا هو أن النفس لا تطمئن والعقل لا يقنع إلا بوجود قوة واحدة تحكم الوجود وتسيره وتكون هي الفاعلة فيه ، نسميها نحن التوحيد وليطلقوا هم عليها ما شاءوا من الأسماء .

ولا يعنينا غفلتهم عن المعنى الذي يحمله وجود هذه القوة الواحدة عندما يجدونها وتصبح حقيقة واقعة ، لأن هذا المعنى الذي تحمله هو الذي جاء به القرآن فقفز بالبشرية آلاف السنين إلى الأمام.

فإذا كانت مسيرة العلم ستنتهي بالتوحيد المادي على الأقل ، كما هو راسخ في أذهان العلماء ، فإن هذه النقلة من التوحيد المادي إلى التوحيد الشامل ، ورد القوة الواحدة إلى الإله الواحد هي الحضارة الإسلامية ، الحضارة التي تسعى مسيرة عقول البشر للوصول إليها ، لأنها الحالة الأرقى مطلقًا ، الشاملة للإنسان بكل ما فيه من مكونات الإنسان ، فهي الحضارة بمطلق الحضارة .

ولا بأس أن ننبه من يقرأ إلى أنه لابد أن يكون قد فهم الآن لماذا لا يمكن أن يكون العالم الباحث في الغرب مؤمنًا حقيقيًا ، ولماذا هذا الفصام بين العلم والدين في الغرب .

ببساطة لأن الذي يقلقه أن الكون فيه أربع قوى ويبحث عن القرار في توحيدها في قوة واحدة ، لا يمكن أن يؤمن وتهدأ نفسه أو يصدق عقله أن الإله المسيطر على هذا الكون وعلى الوجود كله ثلاثة !

* * *

التوحيد بداية ونهاية

التوحيد الذي جاء به المنهج القرآني والمنظومة القرآنية في تفسير الوجود لم يكن نقلة إلى مجهول لم تعرفه البشرية ، بمعنى أنه إذا كان التوحيد هو الحالة الأرقى مطلقًا في تفسير الوجود وفهمه وكيفية التعامل معه والسير فيه ، فإن هذا التوحيد الذي هو لب المنظومة القرآنية ، أو هو «الجيروسكوب» فيها ليس ابتداعًا ولا خطوة في مسيرة تطورية بدأت بالتعدد الوثني وانتهت في القرآن بالتوحيد الشامل ، بعد مراحل وأطوار متعددة من الوحدانيات البدائية المتعاقبة .

وهي النظرية التي صبغت نظرة المفكرين والباحثين في أصول العقائد ، فجعلوا العقيدة سلمًا يرتقيه الإنسان بعقله ، كل درجة فيه هي أرقى من سابقتها ، فيبدأ بالتعدد وينتهي بالتوحيد .

فالإنسان عندهم : «**ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته**»(1).

ويقول هؤلاء العلماء(*) : «**إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي دور التعدد ، ودور التمييز والترجيح ، ودور الوحدانية**»(2).

---

(1) الأستاذ عباس محمود العقاد : الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ، ص ١٠ .

(*) أول من وضع هذه النظرية في تطور العقائد وصاغها الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر الملقب بفيلسوف التطور ، وقد نشرها في كتابه : مبادئ في علم الاجتماع الصادر سنة ١٨٧٠م .

(2) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، ص ١٠ ، ١٩ .

وهذا التفسير لتاريخ التوحيد ومسيرته ، والذي تأثر به الأستاذ عباس محمود العقاد في عرضه لمسيرة العقيدة الإلهية ، واختلط فيه كلامه بكلام علماء مقارنة الأديان ، ولا توجد إشارة منه إلى خطئه وانحرافه ، هذا التفسير يفرغ التوحيد من مضمونه ، ويجعله مجهولاً في ماضي البشرية وخطوة في مسيرة عشواء لرقي العقل البشري نحو فهم حالة العقيدة وكمال الإله ، وليس عقيدة البشرية التي بدأت بها وإليها تعود .

فالتوحيد طبقًا لهذا المنهج هو مسيرة من البشرية في عماء إلى مجهول لا تعلم عنه شيئًا ، ولم تستطع الوصول إليه إلا بعد آلاف السنين من التدرج .

وحسب هذا التفسير ، فإن لمن آمن بالتعدد في الألوهية العذر ، إذ لم تكن البشرية ارتقت بعقيدتها ولا وصل عقلها إلى الكمال الذي يدرك به معنى التوحيد وضرورته .

وهذه النظرية في التوحيد التي تفرغه من مضمونه ، وتفصل التوحيد عن خلق الإنسان ، وتجعله فكرة وصل إليها البشر من سابقات لها وليست عقيدة البشر الأولى الأصيلة والأصلية هي أثر من آثار نظرية التطور لتشارلز دارون : **« فهذا المذهب الذي يقول إن كل كائن عال يأتي من كائن أدنى منه نُقل تطبيقه على علم الحياة إلى علم النفس وإلى علم الاجتماع ، ثم ظهر الاتجاه إلى إرجاع كل حياة الوعي بما فيها العمليات العقلية إلى عناصر أدنى منها وإلى اعتبارها خاضعة لقوانين تطور الكائنات الحية »**[1] .

فهذا التوحيد التطوري الذي يريد أن يجعل الوحدانية تطورًا في مسيرة فهم العقل البشري للألوهية ، هو في الوقت نفسه إنكار للتوحيد كحقيقة أصلية وكعقيدة مستقرة في نفوس البشر ، وهو إهدار لمعنى التوحيد الحقيقي وعلاقته بخلق الإنسان والكون وتحريف لعلاقة الخالق بخلقه .

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص ٤٨ .

بل هو بهذا المعنى إهدار للوجود الإلهي نفسه ونقض له ، فإذا كانت نظرية التطور والنشوء والارتقاء لدارون تبدأ بأن الإنسان ارتقى من كائنات أدنى فأدنى في سلم تطوري ، لتكوين النهاية هي إنكار الخالق وعملية الخلق ، فإن التوحيد بهذا التفسير والفهم ، الذي هو المعادل المعنوي والعقائدي لنظرية التطور ، يبدأ من أن التوحيد حالة أرقى وصلت إليها البشرية من حالات أدنى ، ليصل في الطرف الآخر عند نهايته إلى أن الإله غير موجود ، تعالى الله ، لأن توحيده حالة عقلية راقية وليس حقيقة أصلية ، وهو نهاية البشرية وليس بدايتها التي بدأت بها وخلقت عليها .

فنصل بذلك إلى مفارقة لا أعجب منها ولا أغرب ، وهي فهم التوحيد بطريقة تؤدي إلى نقض الألوهية !!

ففهم التوحيد بهذه الطريقة هو في الحقيقة أحد ثمار الإلحاد وافتقاد الوحي المرشد أو الاستقلال عنه ، ولا نقصد بذلك الأستاذ العقاد طبعًا ، رحمه الله وغفر له ، وهو فى الوقت نفسه أحد وسائل غرس الإلحاد وتكريس استقلال العقل بالمعرفة وعدم حاجته إلى الوحي المعصوم .

وليس هذا هو التوحيد في المنهج والمنظومة القرآنية .

فالتوحيد كما جاء به القرآن وأعاد به تفسير الوجود هو حقيقة واقعة قبل الخلق الإنساني ، وبه بدأت البشرية مسيرتها ، عارفة بالله عز وجل وبكماله وعزته وطلاقة قدرته وانفراده سبحانه بالسلطان والقوة ، عابدة له وحده ولا تشرك به شيئًا .

فالبشرية بدأت بآدم وزوجه ، وآدم وزوجه هبطا إلى الأرض فبدأت مسيرة البشرية وهي تعلم علم يقين وجود الله عز وجل ووحدانيته وتوحده في العبادة وتوحده في الخلق ، إذ لا شيء معه سبحانه وتعالى ، ولم يكن معه جل وعلا عند بداية البشرية ما يمكن أن تزيغ به وتضل فيه فتعبده ، وهي بعد قد شهدت الخلق الإنساني بالقدرة الإلهية مباشرة .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:٣٧)

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه:١٢٢)

فآدم ، أبو البشرية الذي بدأت به ، كان على الأرض مهتديًا تائبًا إلى الله عز وجل ، مجتبى منه عارفًا به عابدًا له ، وورث أبناؤه وأنساله عنه ذلك ، وظلت البشرية عشرة قرون ما بين آدم ونوح عليهما السلام على الحق الأول والتوحيد الأصلي ، كما أخبر بذلك المعصوم عليه الصلاة والسلام[1].

وما حدث هو أن البشرية ضلت وظلت تضل طوال مسيرتها على الأرض عن الحالة الأصلية الأولى ، حالة الخلق العارفة بالله الموحدة له المؤمنة به ، ضلت وظلت تضل بسبب الغفلة ، وطول الزمن وبعده عن أحداث الخلق الأول ، وبانحراف النفس واضطراب العقل وأهواء البشر .

والله عز وجل لم يترك البشرية تسير في عماء تبحث عن مجهول ، وإنما كلما ضل البشر اصطفى عزوجل رجلاً منهم لا تزال فيه نقاوة الفطرة وحالة الخلق الأصلية ، فيوحي إليه ويعلمه بضلال البشر ويكلفه تعريفهم بحالة الخلق الأصلية التي وجدوا عليها وبدأوا بها مسيرتهم على الأرض ويأمره بإعادتهم إلى منهاج أبيهم الأول .

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢١٣).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)

فالبشرية كانت أمة واحدة على التوحيد والمعرفة الحقة بالله عز وجل ثم انشعبت وافترقت وضل من ضل ، وما بدأت البشرية بالوثنية والتعدد ، ولا ظلت تائهة دون إرشاد من الخالق إلى أن جاء الإسلام .

---

(١) رواه الحاكم .

وبصورة أخرى ، فإن المنهج القرآني لم يأت لنقل البشرية من التعدد إلى الوحدانية والتوحيد كحالة عقلية أرقى ، وإنما جاء ليعيد البشرية إلى التوحيد الأول الذى بدأت به ، والذي هو حقيقة قبل الخلق وعنده وبعده ، ولا سبيل لمعرفة الإنسان بها على وجهها الصحيح المطابق للحق إلا ممن شهد الخلق الأول وبداية البشرية ، وليس التوحيد حالة راقية أو نظرية تنتظر من عقل الإنسان رقيه ليكتشفها أو يخترعها ، فإن لم يعرفها ظلت في طي المجهول ، وإن عرفها فليس له من سبيل ولا وسيلة يمكنه أن يحكم بها إن كان ما وصل إليه عقله حقيقة أم وهمًا ، صحيح أم تحريف .

والسؤال الآن : إذا كان التوحيد هو حالة البشرية الأصلية التي فطرت عليها ، وهو الرسالة التي بعث بها الأنبياء جميعًا إلى البشر ، فلماذا إذًا يكون الإسلام وحده هو الذي من حقه أن يتباهى بالتوحيد ويباهي به ، إذ عندها لا تكون هذه النقلة الحضارية في عقل البشرية من صنعه وحده ولا هو انفرد بها؟

ونقول : لا ، بل هي من صنعه وحده وخصيصته وحده ، لأن البشرية لم تحفظ التوحيد قبل الإسلام ولا هى وعته ، وإنما ما يلبث إلا قليلاً بعد أن تجيء به الأنبياء والرسالات ثم يذهب ويدرس وتحل محله ضلالات البشر وتحريفاتهم .

وفضل الإسلام هو أن التوحيد فيه قد عُصم من التحريف في أصوله وتغيير معناه الحقيقي بحفظ النص الذي يحمله .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

وعُصم من التزيد على أصوله واختلاطها بغيرها من الرؤى والتصورات والضلالات البشرية بغلق المنظومة التي تحمله .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)

والسؤال الآخر الذي يُسأل : التوحيد عقيدة راقية في العقل سواءً كان بداية البشرية أو كان النهاية والغاية التي وصلت إليها ، فهبه كان هكذا أو كذلك ما الذي يفرق ، أليس المهم أنه وصلت البشرية إلى التوحيد؟

ونقول : لا . بل الأهم كيف وصلت البشرية إلى التوحيد وعرفته ، لأن الإجابة على هذا السؤال عن طريق التوحيد هي التي تحدد هل هذا التوحيد توحيد حقًا أم حالة وهمية يطلق عليها اسم التوحيد .

أو بتعبير آخر ، الطريق والوسيلة التي عرفت بها البشرية التوحيد هي جزء من التوحيد لا ينفصل عنه .

لو كان التوحيد نهاية في عقل البشرية وليس بداية مكونة لها لكان معنى ذلك :

أولاً : نقض الألوهية والوجود الإلهي كما أسلفنا .

ثانيًا : إهدار الوحي ، إذ لا فائدة منه إذا كانت البشرية قادرة على الوصول إلى التوحيد بعقلها في استقلال عنه .

ثالثًا : استبعاد الوحي كوسيلة للمعرفة معصومة لا يكافئها العقل ولا هو بند لها ، واستبعاده من صياغة النفس الإنسانية وتشكيل المجتمع البشري .

رابعًا : انحراف التوحيد ، إذ لو كان التوحيد متعلقًا بالعقل لكانت المنظومة مفتوحة قابلة للتعديل والتغيير ، وقابلة للاختلاف بين عقل وعقل ، وبين زمان وزمان ، وبين مكان ومكان .

فالتوحيد هو العقيدة الراقية في كل عقل ، بيد أن صفات هذا التوحيد ولوازمه ونواتجه لا حد لاختلاف عقول البشر فيها ، بل وتضاربها ، والمسألة حينئذ سوف تفضي إلى أن يكون لكل قطاع أو فئة من البشرية توحيدها الخاص ، وكلها لا علاقة لها بالحقيقة الأصلية الأصيلة .

خامسًا : هو أثر ذلك كله في نفس الإنسان وتكوين المجتمع ، فأن يكون التوحيد حالة أو نظرية غير أن يكون حقيقة .

فعدم الوصول إلى الحالة لن يضير الإنسان في نفسه ولن يؤثر في المجتمع طالما أنه لم يعرفها ولم يطمح إليها .

أما أن يكون التوحيد حقيقة خلقت بها وعليها البشرية ، فإن نزعه منها هو تمزيق لنفس الإنسان وتشتيت لعقله وخلل في تكوينه يفضي إلى خلل في رؤية عناصر الوجود ، وإلى انحراف في فهم الروابط بينها ، وإلى آثار فادحة متراكمة في التعامل مع الخلق والكون .

* * *

التوحيد الوهمي

الألفاظ كثيرًا ما تكون خداعة وتحدث لبسًا يخلط الصواب بالخطأ والحق بالضلال .

ولفظ التوحيد يستخدم أحيانًا بطريقة تُدخل فيه ما ليس منه وتضع عقائد متعددة ومتباينة ، بل ومتنافرة تحت مسمى التوحيد .

فـ : **«عبادة أتون هي أرقى ما وصل إليه البشر من عبادات التوحيد في القرن الرابع عشر قبل الميلاد»[1].**

و**«اليهودية والإسلام تريان أن هذا الاعتقاد (التثليث) ليس إلا شركًا مقنعًا وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ»[2].**

ونوضح أولاً أننا لم نختر هذين المثالين عبثًا ولا مصادفة ، وإنما اخترناهما لأن أحدهما يوصف بأنه أرقى ما وصلت إليه البشرية من توحيد ، ولأن الإعلام في بلاد المحروسة يستخدمه كدعاية للفرعونية وكتلميع لها لإحلالها محل الهوية الإسلامية ورموزها .

وأما الثاني ، فلأن اليهودية تعد ديانة توحيدية للإله في أرقى صور التوحيد ، بما جعل ول ديورانت يقرنها بالإسلام مع علمه التام بما بينهما من شاسع البون .

واخترناهما معًا لأنهما ضمًا بشهادة من استدلوا بهما أرقى ما عرف البشر من التوحيد لنعرف مقدار القفزة الهائلة التي قفز فيها الإسلام بالبشرية حتى أعادها إلى التوحيد الحقيقي الأصيل الذي بدأت منه وبه مسيرتها .

---

(١) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية، ص ٩٢ .

(٢) قصة الحضارة ، ٥٣/١٣ .

وليس يعنينا عرض المسيحية ولا نقدها ، لأن التثليث من اسمه ورسمه أهون من أن يوضع إلى جوار التوحيد ابتداءً .

ولسنا في حاجة إلى عرض الوثنيات وعبادة الآلهة المتعددة ، إذ يغنينا عن ذلك كله ما يوصف بالرقي والذروة في العقيدة : التوحيد الإخناتوني والتوحيد اليهودي .

ولنبدأ بالتوحيد اليهودي الذي جعله ديورانت صنواً للتوحيد الإسلامي .

الإله في التوراة في أرقى صورة له فيها واحد .

حسنا! هذا هو الشيء الوحيد الذي يشترك فيه التوحيد اليهودي مع التوحيد الإسلامي ، وما بعد ذلك فلا وجه للشبه ولا للمقارنة بينهما مطلقًا .

فإله التوراة الواحد جعله كتبتها إلهًا قبليًا خاصًا باليهود وحدهم ، لا يعبده ولا يعرفه سواهم ، وهو نفسه لا يرى إلا اليهود ولا يخاطب أحدًا غيرهم ، ولا يغضب إلا لهم ، ولا ينصر أحدًا إلا هم ، ولا يعنيه أحد في الكون سوى مجد قبيلته بني إسرائيل وقوتهم ، وما يربطه بهم ويربطهم به ليس طاعته ولا الإيمان به ، بل هو معهم ولهم على كل حال ، أطاعوه أو عصوه ، فرابطتهم به رابطة دم ونسب وليس رابطة عقيدة وإيمان .

فالإله الذي هو واحد في التوراة أقرب إلى شيخ القبيلة المدافع عنها ، والمتطلعة هي إلى سلطته منه إلى الإله ، فمما نسبه إلى الإله كتبة التوراة :

«[6]لِذلِكَ قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ : أَنَا الرَّبُّ ، وَأَنَا أُخْرِجُكُمْ مِنْ تَحْتِ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَبِأَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ ، [7]وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْبًا ، وَأَكُونُ لَكُمْ إِلهًا»[1].

وهذا الإله لأنه شيخ القبيلة اليهودية فهو مقيد بها لا يستطيع أن يغضب عليها أو أن يعاقبها لأن ضعفها مهانة له هو نفسه بين الناس وأمام مشايخ القبائل الأخرى .

---

(١) خروج : (٦ : ٦-٧) .

«[9] وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى : «رَأَيْتُ هذَا الشَّعْبَ وَإِذَا هُوَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَةِ . [10] فَالآنَ اتْرُكْنِي لِيَحْمَى غَضَبِي عَلَيْهِمْ وَأُفْنِيَهُمْ ، فَأُصَيِّرَكَ شَعْبًا عَظِيمًا» . [11] فَتَضَرَّعَ مُوسَى أَمَامَ الرَّبِّ إِلهِهِ ، وَقَالَ : «لِمَاذَا يَا رَبُّ يَحْمَى غَضَبُكَ عَلَى شَعْبِكَ الَّذِي أَخْرَجْتَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ بِقُوَّةٍ عَظِيمَةٍ وَيَدٍ شَدِيدَةٍ؟ [12] لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ الْمِصْرِيُّونَ قَائِلِينَ : أَخْرَجَهُمْ بِخُبْثٍ لِيَقْتُلَهُمْ فِي الْجِبَالِ ، وَيُفْنِيَهُمْ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ؟ اِرْجِعْ عَنْ حُمُوِّ غَضَبِكَ ، وَانْدَمْ عَلَى الشَّرِّ بِشَعْبِكَ . ... [14] فَنَدِمَ الرَّبُّ عَلَى الشَّرِّ الَّذِي قَالَ إِنَّهُ يَفْعَلُهُ بِشَعْبِهِ .» (1).

من يقرأ هذا المشهد وقد أُخفيت أسماء أبطاله ، أيمكنه أن يعرف من الرب ومن العبد ، موسى الذي يوبخ ويرشد وينبه ويحذر أم الرب الذي يغضب غضبًا شديدًا ثم يندم على غضبه ويتراجع عن ما أراده مخافة الفضائح وكلام الناس وحتى يظل الخلاف محصورًا في نطاق القبيلة؟!

وهذا الإله الواحد في التوراة جاهل ناقص العلم لا يحيط بما يحدث في الكون والخلق ، ولا يستطيع تمييز شعبه من أعدائه :

«[1] وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ فِي أَرْضِ مِصْرَ قَائِلاً : [2] ... [3] كَلِّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ : فِي الْعَاشِرِ مِنْ هذَا الشَّهْرِ يَأْخُذُونَ لَهُمْ كُلُّ وَاحِدٍ شَاةً بِحَسَبِ بُيُوتِ الآبَاءِ ، شَاةً لِلْبَيْتِ . [4] وَإِنْ كَانَ الْبَيْتُ صَغِيرًا عَنْ أَنْ يَكُونَ كُفْوًا لِشَاةٍ ، يَأْخُذُ هُوَ وَجَارُهُ الْقَرِيبُ مِنْ بَيْتِهِ بِحَسَبِ عَدَدِ النُّفُوسِ . كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أُكْلِهِ تَحْسِبُونَ لِلشَّاةِ . . . . [6] وَيَكُونُ عِنْدَكُمْ تَحْتَ الْحِفْظِ إِلَى الْيَوْمِ الرَّابعَ عَشَرَ مِنْ هذَا الشَّهْرِ . ثُمَّ يَذْبَحُهُ كُلُّ جُمْهُورِ جَمَاعَةِ إِسْرَائِيلَ فِي الْعَشِيَّةِ . [7] وَيَأْخُذُونَ مِنَ الدَّمِ وَيَجْعَلُونَهُ عَلَى الْقَائِمَتَيْنِ وَالْعَتَبَةِ الْعُلْيَا فِي الْبُيُوتِ الَّتِي يَأْكُلُونَهُ فِيهَا . . . [12] فَإِنِّي أَجْتَازُ فِي أَرْضِ مِصْرَ هذِهِ

---

(1) خروج : (٣٢ : ٩-١٤) .

اللَّيْلَةَ ، وَأَضْرِبُ كُلَّ بِكْرٍ فِي أَرْضِ مِصْرَ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ . وَأَصْنَعُ أَحْكَامًا بِكُلِّ آلِهَةِ الْمِصْرِيِّينَ . أَنَا الرَّبُّ . ١٣ وَيَكُونُ لَكُمُ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى الْبُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا ، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ ، فَلاَ يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلاَكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ»(١)

فإله التوراة الواحد بحاجة إلى علامة ليستطيع تمييز بيوت شعبه من بيوت غيرهم .

وهذا الإله القبلي الغضوب الجامح النادم على أفعاله المتراجع عنها ، الذي يملك شعبه السلطة عليه ويوبخه ، والذى يجهل ما يحدث ويحتاج إلى من يعرفه ما يجهله هو أيضًا مغفل ويمكن للإنسان أن يخدعه كما في قصة سرقة يعقوب البركة من إسحق وهي من حق أخيه عيسو(٢).

وهو ضعيف والإنسان ند له قادر على مصارعته ومغالبته وهزيمته لولا أن الإله غير شريف ويستخدم وسائل غير نظيفة ويلجأ للضرب تحت الحزام ، كما في قصة مصارعة يعقوب للإله وعدم قدرة الإله على هزيمته إلا بضربه على حقويه في غفلة دفاعية منه(٣).

وهذا الإله الضعيف أمام قبيلته وأفرادها ، يهزمونه ويستغفلونه ويوبخونه ، شرس عاتٍ أمام كل قبيلة غير قبيلته ، يبيدها ويفنيها عن آخرها ، لا لشيء إلا لعداوتها لقبيلته(٤).

فإذا كنا نتحدث عن الحضارة وعن ثمار الحضارة ، كيف يكون وضع هذا الإله القبلي الجاهل المغفل الغضوب الشرس في الكون ، وما دوره المنطقي فيه

---

(١) خروج : (١٢ : ١-١٣)

(٢) تكوين : (٢٧)

(٣) تكوين : (٣٢)

(٤) تثنية : (٢٠)

الذي يتناسق مع صفاته هذه ، وما هي قدرته على تسيير كونه وخلقه ، والعقل الذي يؤمن بإله هذه صفاته كيف يتعامل معه ، هل يعبده ، وكيف يعبده وبإمكانه أن يستخفي منه فلا يعرف إن كان يعبده أم لا ، هل يطيعه ، هل يمكن أن يصدر منه أي عمل ويقصده به ويرجو ثوابه أو يخشى عقابه ، هل هذا الإله يمكن أن يكون قوة فاعلة في العقل والنفس الإنسانية ، تثيره وتحركها ، هل يرضى العقل أن يكون الإله هكذا وأحد أدلة وجود الإله هو إحساس الإنسان بضرورة وجود من هو أكمل منه كمالاً يتنزه عن نقصه ، هل يمكن أن تستقر النفس مع هذا الإله؟

بإيجاز : هل يمكن لاعتقادٍ ، هذا الإله جوهره ومركزه أن يثمر تفاعلاً مع الكون والحياة أو أن ينتج رقيًا للإنسان في عقله ونفسه ، هل وجود هذا الإله دافع أم عائق ، قوة أم أثقال؟

يجب الإجابة على هذه الأسئلة لنعرف مقدار النقلة التي أتى بها المنهج القرآني حق قدرها في ميزان العقل والنفس وفي ميزان الحضارة ، بتحرير الإنسانية من هذا الإله وأمثاله .

* * *

المسألة الإخناتونية

المسألة الإخناتونية لا تستحق الوقوف عندها هي في الحقيقة ، بل عند ما يحيط بها من دجل واسع النطاق ، حولها إلى ما يشبه العقيدة الراسخة في أذهان قطاعات واسعة من المصريين .

هذا الدجل الواسع النطاق الهادف إلى ترسيخ صورة راقية لعقيدة إخناتون ، من أجل الترويج للفرعونية ونشرها وخلق ثقافة عامة بها لتحتل مكان ثقافة الإسلام التي قطعت كل ما كان قبلها .

لذلك يعتمد عرض المسألة الإخناتونية وبثها دائمًا على العموميات والاختباء خلف الألفاظ ، ويحرص ناشروها على ألا يحيطوا من يلقون إليهم بها علمًا بكل تفاصيلها ، فالمطلوب هو الجزء الظاهري فقط أو الغلاف الذي يسهل عملية البلع ويصرف الذهن عن المحتوى .

فقد صار من المسلمات البديهية في أذهان ناشئة المدارس أن إخناتون هو أول من نادى بالتوحيد على الأرض!!

ولم يعد من الغريب في مسابقة أو سؤال في الإذاعة أو التلفاز أن يسأل المذيع أو المذيعة الضيف أو المتسابق : من أول من نادى بالتوحيد؟ فيعتدل المتحدث ويضع ساقًا على ساق ويعيد ضبط نظارته ثم يقول في تواضع العلماء : إخناتون !! ليرد عليه المذيع أو المذيعة : برافو ، ويكسب الجائزة !!

ولا يسأل أحد عن آدم عليه السلام ، ولا يرد ذكر لنوح ولا إبراهيم وأولاده وأحفاده ، وكلهم أنبياء عليهم صلوات الله وسلامه .

ولأن المسألة كلها دجل نقف عندها وقفات نبينه ونجليه بها .

ما هو التوحيد الإخناتوني ؟

هب أن أقوامًا يعبدون آلهة متعددة ، ولتكن تماثيل وأصنامًا مثلاً أو نجومًا وكواكب ، ثم توحد هؤلاء الأقوام معًا في دولة واحدة ومكان واحد فارتأوا إكمالاً للوحدة أن يوحدوا الآلهة في إله واحد يجمعهم جميعًا ويلتقون عنده ، فتكتمل الوحدة بتداخل الأفكار والعقائد مما يكسب الدولة قوة ومنعة ، فاختاروا إلهًا من الآلهة المتعددة واتفقوا عليه وصار هو معبودهم الوحيد .

ولكي تصير الدولة قوية ، ولكي يستمد الجند والشعب القوة ، ولكي يشعروا دائمًا بالمدد وصفوا الإله الجديد بصفات القوة والقدرة وأسندوا له كل فعل يحدث حولهم في الطبيعة أو في الدولة ، واستمد الملك الموحد شرعيته منه .

هل هذا يسمى توحيدًا ، هل استبدال صنم بأصنام أو نجم بكواكب هو الوحدانية وتوحيد الإله؟

لماذا لا يذكر من يدعون أن إخناتون هو أول من نادى بالوحدانية على الأرض إله إخناتون وصفته وما هو؟

لا يستطيعون ، إذ لو فعلوا لصاروا أضحوكة وصار التوحيد الذي يختبئون خلف اسمه مادة للتندر ، وصار من يروجون له ويقفون خلفه ويقفزون خلف الإسلام إليه هزؤا وسخرية .

فما هو إله إخناتون الواحد؟

كانت الشمس قبل إخناتون إلهًا معبودًا يمثل على هيئة إنسان له رأس صقر ، وما فعله إخناتون في إلهه الجديد هو أنه جعل : «**الإله على صورة الشمس نفسها ، ومن الشمس تخرج أشعة تنتهي بأيد ، وهذه الأيدي معناها أن الشمس تعطي الإنسان الحياة وكل ما هو طيب ، وفي بعض الأحيان كان يثبت في الطرف السفلي لقرص الشمس شعاره القديم ، الصل**»[1].

---

(١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٧ .

فآتون ، إله إخناتون ، هو آمون رع السابق له في صورة جديدة فقط .

وأما أنشودة إخناتون التي يناجى فيها الإله[1] .

فأولاً : هذه الأنشودة ليست إلا مجرد نظم لأثر الشمس الظاهر في الطبيعة والناس ، فهي تنظر إلى آثار أشعة الشمس على الأرض ثم تناجي الشمس الإله به : «إذا غربت في أفق السماء أظلمت الدنيا . . . فيقصد السكان النوم في حجراتهم . . . الأسود تخرج من أجحارها وكذا الثعابين . . . يسود الظلام لأن خالق هذه الأشياء كلها ذهب ليستريح في أفقه (!) . . . إذا ما ظهرت في الأفق أضاءت الأرض . . . . الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله حتى المساء ، والبهائم كلها مستريحة في مراعيها . . . والأشجار والنبات جميعًا يانعة . . . والعصافير تخفق والأغنام ترفض والطيور تحلق إذا ما أشرقت عليها».

ثانيًا : هذه الأنشودة المناجاة والصفات المخلوعة على الشمس الإله فيها ليست فريدة في بابها عند المصريين القدماء ، ولا هى وحي هبط على أمنحتب الرابع الملقب بإخناتون فجأة .

ففى عصر أبيه أمنحتب الثالث كانت أنشودة آمون تحمل من المعاني ما تحمله أنشودة آتون التي أتى بها إخناتون : «التسبيح لك . . . أنت تعطي الحياة ، الذي لم يولد ... أنت الوحيد من فرعك الذي يعبر الأبدية كلها ... فبفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بأداء شيء بعد أن تنام جلالتك (!)... نورك تفتح الأعين ولكنك حينما تغرب فإنهم ينامون كالأموات . . . المجد لك أي شمس النهار التى خلقت كل الكائنات الحية وتكفلت بما يحتاجون إليه . . . أنت أيها الصقر الكبير ذا الريش . . . أنت الخالق الطيب الذي يتعب نفسه من أجل مخلوقاته العديدة»[2] .

---

(١) انظر أنشودة إخناتون كاملة فى : جيمس برستد : تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص٣٠٤-٣٠٧ ، وفجر الضمير ، ص ٣٠١-٣٠٨ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

فلم يفعل إخناتون سوى أن نزع الصقر الكبير ذا الريش ووضع مكانه قرص الشمس الأخطبوطي المتعدد الأيدي ثم قام ببسط : «**بفضلك ترى جميع العيون ولا تقوم بشيء بعد أن تنام جلالتك**».

فإذا كان البعض يصر على أن يجعل للمصريين القدماء شرف الوصول إلى التوحيد وتعريف البشرية به فلينسب الفضل والشرف إذًا لصاحبه ، وهو ليس إخناتون ولكن سابقه أمنحتب الثالث .

أما ما افتتن به البعض من إشارة برستد في كتابه : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى التشابه بين أنشودة إخناتون والمزمور الرابع بعد المائة التوراتي المنسوب لداوود ، ثم مقارنته بينهما في كتابه : فجر الضمير فيثير لغزاً : هل يعتقد هؤلاء أن الوحي السماوي الموحى به من الله عز وجل مأخوذ من معتقدات وثنية لقوم يعبدون الشمس؟!

وحل اللغز عند برستد وليس عند من يجتزءون منه لدعم رؤاهم ويغضون الطرف عما وراءه .

فالمؤرخ البريطاني قارن بين أنشودة إخناتون والمزمور الرابع بعد المائة ، وأيضًا بين أمثال الحكيم المصري القديم أمينوبي وسفر الأمثال التوراتي ، وبين أمينوبي وكلام النبي إرميا في السفر المسمى باسمه ، وبينه وبين موسى التوراتي في سفر العدد .

وحل اللغز هو أن برستد يتعامل مع التوراة التي أمامه كتراث أدبي وفكري وتاريخي للجماعات العبرانية وليس كوحي سماوي .

وبالنظر إلى التوراة التي ليس أمامه غيرها كنتاج بشري للقبائل العبرية تحمل تاريخها وتاريخ عقائدها ، فإنه يعقد هذه المقارنات ليصل إلى نتيجة فحواها أسبقية العقائد والثقافة والأخلاق المصرية القديمة على التراث البشري العبري وتسربها إليه وتأثيرها وظهور آثارها في التوراة التي يقارن معها ، ومن ثم إسهام الفكر والعقائد المصرية القديمة في تكوين الغرب أو الحضارة اليهودية المسيحية .

فبرستد في : فجر الضمير يقوم بعملية بحث وحفر وتنقيب خلال الطبقة اليهودية الإسرائيلية عما جعله عنوانًا للفصل الأخير في كتابه : « مصادر أو منابع إرثنا الخلقي» ، مع التنبيه على أن ما قصده برستد ويبحث عنه هو مصادر إرث الغرب الخلقي ، وهو ما لايحتاج قارئ الفصل المذكور إلى تنبيهه إليه .

والنتيجة التي وصل إليها برستد هي إحدى ثمار النظرة والتفسير التطوري للعقائد الذي ينضح من كتابه نضحًا ، بل إن برستد يمد التفسير التطوري إلى العقائد الإسرائيلية نفسها ، فهو يصرح بأن عقائد الإسرائيليين تطورت من عبادة آلهة متعددة إلى عبادة إله واحد في مدى زمني طويل وخلال قرون عديدة .

ولأن برستد يقوم بتعميق جذور الأخلاق والعقائد الغربية عبر تفسير تطوري يعود بها إلى أقدم ما وصل إليه من نصوص مكتوبة ، فالقرآن بالضرورة ليس مطروحًا عنده كمصدر معرفة سماوية أو تاريخية ، فهو منفي عنده وعند أمثاله ابتداءً ، ولا حتى لمجرد المقارنة بينه وبين التوراة التي لا يستطيع أحد استبعادها لأنها حجر الزاوية في الحضارة الغربية ، يستوي في ذلك من آمن بها وحيًا ومن تعامل معها كتراث بشري .

إذًا برستد متسق مع نفسه ، إذ التوراة عنده تراث ونتاج بشري أثر فيه تراث ونتاج بشري سابق عليه ، وهو ما لا ننازعه فيه . فالتوراة نفسها التي أمامنا تنسب بعض المزامير لداوود نصًا ولكنها تسكت عن بعضها الآخر ، ومنها المزمور الرابع بعد المائة بما يعني ، ضمنًا ، أنها مجهولة الأصل .

أما من يدغدغ كلام برستد عواطفهم ويثير مشاعرهم فيجتزءون منه أثر عقائد المصريين القدماء وأخلاقهم في التوراة فإنهم لا يملكون شجاعة برستد وصراحته في الإقرار أولاً بأن هذه التوراة تراث بشري وليس وحيًا سماويًا .

ومتابعة لبرستد ولغيره يتجاهلون هم أيضًا الوحي القرآني كوسيلة معرفة ، أيضًا ولو لمجرد المقارنة بينه وبين التوراة ، إذ في وجوده ، القرآن ، تنهار

النظرية التي نتجت عنها هذه الرؤية وهذا الفهم من أساسها ، ويكون إخناتون وثنيًا مشركًا لا عابدًا موحدًا .

وباستبعاد القرآن ، وبالسياق الذي تقدم فيه التوراة لا كتراث عبري خاص بمن كتبوه ، بل كأول كتاب سماوي مكتوب يصل إلينا يصبح إخناتون والمصريون القدماء هم سابقة الوحي السماوي !!

فأي مجد وعز وفخر !! وأي تضليل واستخفاف بالعقول !!

لماذا نقل إخناتون العبادة من آمون إلى آتون؟

إذا كان آتون كآمون فلماذا نقل إخناتون العبادة من هذا إلى ذاك ؟

« كان الدين في مصر فوق كل شيء ومن أسفل منه ، فنحن نراه فيها في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله ، من الطواطم إلى عالم اللاهوت ، ونرى أثره في الأدب وفي نظام الحكم وفي الفن وفي كل شيء عدا الأخلاق »[1] !!

فالدين في مصر القديمة كان يغلف كل شيء ، وهو مستند الحكم وقوته ، وهو الوسيلة المثلى لاكتساب الشرعية وحيازة الملك .

لذا من أول يوم في توحيد القطرين أعلن مينا أو نعرمر قانونًا عامًّا أوحى به إليه الإله تحوت .

وحين كانت حتشبسوت ، وهي من الأسرة الثامنة عشرة التي ينتمي إليها إخناتون ، في حاجة إلى الشرعية وتعضيد وضعها كحاكم أنثى في المجتمع المصري القديم الذي لا يقبل أن تحكمه أنثى ، أعلن جهاز دعايتها وحاشيتها أن الملكة عُينت بأمر إلهي قديم ، وبذلوا جهودا جبارة لإقناع الناس بذلك ، ورسموا على جدران معبد الدير البحري ما أشاعوه بين الناس من أن الإله آمون جاء أم حتشبسوت وخاطبها قائلاً : ستحملين مني بابنة تدعى حتشبسوت

---

(١) قصة الحضارة ، ١٥٥/٢ .

تعتلي عرش مصر وتحكم البلاد كلها بمهارة ، فصارت بذلك ملكة بشرعية إلهية مقدسة لا يستطيع منازعتها أحد .

وأمثال هذه الحيل والخدع للاستيلاء على السلطة وتثبيت دعائم الحكم كثيرة في مصر القديمة .

فمسألة الألوهية والمعبود في مصر القديمة كانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسلطة الحاكم وشكل الدولة ، فعندما تكون الدولة مجزأة تتعدد الآلهة ولكل إله نسله من الحكام ولهم السلطان على الإقليم الذي يعبده أهله .

وعندما تتوحد الدولة تتضاءل الآلهة إلى جوار إله واحد عظيم يمثل الدولة الواحدة ويمثله الحاكم الواحد ، إذ هو ينحدر من نسله ويكتسب منه شرعية الحكم والسلطان ، وبه يطيعه أهلها : «**فالملك هو الذي يتسلم المملكة من الإله ليسلمها له ، وهو أيضًا الذي يطلب الإكثار من المستعمرات لتتسع بذلك أملاك الإله**»[1] .

إذًا ما المشكلة والحاكم مطلق السلطة والسلطان بأمر الإله في أذهان الناس؟

المشكلة هي أن الوصلة بين الحاكم وبين الإله في الأعراف الراسخة عند المصريين القدماء كانت هي الكهنة الذين تضخمت ثرواتهم مما يوقف للإله ويمنح له من الغنائم وإقطاعات الأراضي وتضخم سلطانهم ونفوذهم في الدولة باعتبارهم الطريق إلى الإله الذي لن يحكم الحاكم إلا برضاه ، ومن ثم برضاهم . «**وأصبح الكهنة مع الوقت هم دعامة العرش والشرطة السرية القوامة على النظام الاجتماعي**»[2] .

واتسع نفوذ الكهنة وامتد إلى شؤون الحكم وإدارة البلاد : «**وكان هذا التدخل الكهنوتي العظيم في شؤون الإمبراطورية السياسية هو الذي شدد عزيمة إخناتون على انتزاعه من هذه الطائفة**»[3] .

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ١٩٤ .

(٢) قصة الحضارة ، ١٦١/٢ .

(٣) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ٢٩٦ .

فإخناتون لم يستبدل آتون بآمون إلا ليضرب سلطة كهنة آمون التي كانت تنازعه وتنازع من قبله السيادة وتقيد سلطته في حكم البلاد ، ولم يكن يوقف سلطة الكهنة قبله سوى تحتمس الثالث بشخصه المهيب وقدراته السياسية وانتصاراته العسكرية الفذة التي منحته شرعية حكم البلاد منفردًا وفي استقلال عن الكهنة .

أما من خلفوا تحتمس الثالث فلم تكن لهم هذه العظمة ولا المهابة فاتسع نفوذ الكهنة وتضخم على حسابهم ، ولذلك كانت بذرة الثورة على الكهنة وإلههم آمون سابقة على إخناتون ، في عهد سلفه وأبيه أمنحتب الثالث .

واستكمل إخناتون ما بدأه أبوه .

فعندما يمحو إخناتون آمون فهو بذلك يقوم في الحقيقة بتصفية طبقة الكهنوت الآموني كلها ، وعندما ينقل مقر الإله من طيبة إلى آخت آتون فإنه بذلك ينقل السلطة في البلاد من مقر نفوذ الكهنة إلى مقر جديد لا سلطان لهم عليه ، وعندما يصبح الإله آتون وليس آمون تتحول الأموال والإقطاعات والغنائم من الكهنة إليه هو .

ولأن المقصود الحقيقي بضربة إخناتون هو الكهنة وليس العبادة التي لا فرق فيها بين شمس وشمس : «**أمر الحكومة بوضع يدها على أملاك الكهنة جميعًا بما فيها أملاك كهنة آمون**»[1].

ولاحق إخناتون آمون الذي يمنح الكهنة السلطة في كل مكان : «**ولكن اضطهاد الآلهة الأخرى لا تظهر له نتائج قوية كاضطهاد آمون**»[2].

وهكذا أزال إخناتون سلطة الكهنة وقطع عنهم الأموال والثروات ، وضمانًا لعدم قيام طبقة كهنوت أخرى تكون وصلة مع آتون فتسلبه السلطان أو تنازعه

---

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ٢٩٧ .

(٢) ديانة مصر القديمة ، ص١٣٣ .

فيه كما كان كهنة آمون ، أعلن إخناتون في أنشودته التي تردد في كل المعابد أن : «**هذا الإله لا يعرفه أحد سوى ابنه إخناتون فقط**»[1]!!

وبذلك سد المنافذ على الكهنة من جميع الجهات ، وصار هو صاحب السلطان الأوحد ملكًا وكاهنًا في الوقت نفسه .

لذلك عندما يناجي إخناتون في أنشودته الشمس الإله : «**ما أبدع مشروعاتك**» ، فإنه لا يعني بذلك إلا نفسه ، لأنه لا أحد يعرف آتون ومشروعاته إلا هو وحده .

وعندما يقول : «**أنت الذي أحللت كل إنسان في سوريا والنوبة ومصر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته**»، فإنه يمجد نفسه ويعلن سلطانه وسلطته على رعيته وإنعامه عليهم في البلاد التي تضمها مملكته .

أما الجملة في الأنشودة التي افتتن بها الدجالون وجعلوها شعاراً للتوحيد الإخناتوني : «**أنت الإله الواحد الذى لا شريك له في الملك**»

فنقول : أولاً : هذه الترجمة في كتاب : تاريخ مصر من أقدم العصور ترجمة مضللة ، ذلك أن مترجم العبارة عن برستد ترجمها ترجمة قرآنية إسلامية لفظًا ومعنى ، مما يحدث لبسًا في ذهن قارئها يجعله يخلط بين الله الواحد الأحد الذي لا شريك له كما عرّف القرآن البشر به وبصفاته الحسنى وبين إله إخناتون المزعوم أنه واحد ، آتون .

والعبارة حين تترجم من غير ضخ المعاني القرآنية والألفاظ الإسلامية فيها تصير : «**أنت الإله الذي لا يوجد له منافس ، أو أنت الإله الذي لا يوجد إله آخر بجانبه**»

وهي الترجمة التي اختارها العلامة الدكتور سليم حسن في ترجمته للأنشودة في كتاب : فجر الضمير ، وهو لبرستد أيضًا ، وذلك في يقظة ووعي

(١) تاريخ مصر من أقدم العصور ، ص ١٢٩ ، ديانة مصر القديمة ، ص ٣٠٦ .

فائق من الدكتور سليم حسن لمنع الالتباس الذي قد تحدثه ترجمة المعاني الإخناتونية إلى ألفاظ وعبارات تحمل معاني إسلامية قرآنية .

ثانيًا : بعد هذا التصويب للترجمة لا يمكن فهم العبارة فهمًا صحيحًا إلا بإدراك ومعرفة أن المقصود بالإله حقيقة هو ابنه وممثله الحاكم ، أي : إخناتون نفسه الذي لا يعرف الإله أحد سواه .

فهو بتلاوة الأنشودة في المعابد يغرس في أذهان رعيته انفراده بالحكم والقوة وعدم وجود سلطة إلى جواره ، إذ هو ممثل الإله الوحيد كسلطة حكم وهو الوسيلة الوحيدة لعبادته ومعرفة ما يريده .

ثالثًا : المعنى الذي تحمله هذه العبارة ليس من ابتداع إخناتون ولا هو انفرد به ، وعلى سبيل المثال فقد ورد هذا المعنى كما هو في الأنشودة في نقوش طيبة التي يناجي فيها تحتمس الثالث ، وهو كاهن آموني أصبح حاكمًا على مصر بحيلة اتفق عليها مع كهنة آمون تظهره وكأن آمون نفسه هو الذي اختاره حاكمًا ، هو الآخر!!

هذا المعنى في أنشودة إخناتون جاء كما هو في مناجاة تحتمس الثالث لآمون وهو يمجده لما أنعم عليه به من نصر في حملاته الحربية على أعدائه في الأقاليم الآسيوية .

إذًا ثورة إخناتون لم تكن توحيدًا ولا علاقة لها بالألوهية إلا من باب أن الآلهة في مصر القديمة هي جواز المرور إلى السلطة .

كانت ثورة حاكم منقوص السيادة لاستكمال مظاهر سيادته ، ولأن شرعية الحاكم في مصر القديمة هي الآلهة كان لابد لاستكمال هذه السيادة من اختراع إله جديد لا وسيلة لمعرفته ولا الوصول إليه إلا إخناتون نفسه ليكون بذلك صاحب السلطة الوحيد والسلطان الأوحد .

وبعد إخناتون عادت الأمور إلى ما كانت عليه ، واستعاد آمون منزلته ، وعاد إلى كهنته سلطانهم وقد تنبهوا وتعلموا مما فعله بهم إخناتون فأصبحوا

القوة الأولى في البلاد ، ولم يزل سلطانهم يزداد حتى وصل في عهد رمسيس الثاني ، فرعون المجد والانتصار ، إلى أن : «**لم يكن في البلاد كلها سلطة بشرية تعلو فوق سلطته إلا سلطة الكهنة**»[1].

بقي من المسألة الإخناتونية أن نعرف أن أول من نادى بالتوحيد على الأرض لم ينجب وريثًا ملكيًا فتزوج من إحدى بناته : عنخس آن با آتون لينجب منها وريثًا تجرى في عروقه الدماء الملكية ويحفظ به العرش في نسله . ولما فشل ترك ابنته وزوّجها من توت عنخ آتون الذي عاد إلى اسمه الأصلي : توت عنخ آمون بعد موت مخترع آتون .

فهل هذا هو التوحيد أم هو الدجل والنصب والاحتيال ؟ !

* * *

(١) قصة الحضارة ، ١٨٢/٢ .

التوحيد الخالص

التوحيد في المنهج القرآني هو الصورة الوحيدة للتوحيد التي تفسر الوجود كله تفسيراً منطقيًا مقبولاً في العقل والنفس ، فلا العقل يضطرب ولا النفس تتقلقل .

وهو الفهم الوحيد للتوحيد الإلهي الذي يجعله قوة فاعلة في الإنسان وطاقة دافعة له ومنهجًا يسير الحياة ويكون المجتمعات .

وهو التصور الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يفهم من خلاله كيف كان وجوده ، ولماذا كان وجوده ، وإلى أين ينتهي وجوده .

وهو المنهج الوحيد الذي يستطيع به الإنسان فهم العلاقة بينه وبين الكون ودوره فيه والعلاقة بينه وبين الخلق وما يربطه بهم .

والتوحيد القرآني هو المفهوم الوحيد للتوحيد الذي يكون به الإله في المكانة التي لا يقبل العقل ولا تطمئن النفس إلا بوجوده فيها .

وهو التوحيد الذي جاء من الله عز وجل نفسه ، فصار بذلك هو الحقيقة التي تخبر عن الحقيقة ، وللحقيقة قوتها ومطابقتها في النفس ، تعرفها النفس بوجودها فيها وبقدرتها على تفسير الأشياء وربطها في إطار واحد محكم لا خلل فيه ولا اضطراب ولا تناقض .

الإله عز وجل في المنهج القرآني واحد لا متعدد ، أحد لا منقسم ، لا شريك له في ملكه وكونه وخلقه ، وكل إله من دونه هو باطل لا وجود له في الحقيقة ، وإنما هو من مفتريات الضلال البشري ، ولا ند له عز وجل ولا نظير ولا والد له ولا ولد .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (الإخلاص: ١-٤)

فالله عز وجل واحد أحد ، كل خلقه محتاج إليه ، لم يلد فهو أبدي ، ولم يولد فهو أزلي ، ولأنه لم يلد ولم يولد فلا يجوز عليه الفناء .

وهو عز وجل بلا نظير ولا شبيه ، وهو الذي يُعبد وحده فلا معبود سواه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ﴾ (الزخرف:٨٤)

والله عز وجل قادر على كل شيء :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف:٤٥)

وإذا أراد عز وجل شيئًا كان :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (النحل:٤٠)

وهو عز وجل عالم بكل شيء حدث ويحدث وسيحدث بكل تفاصيله وجزئياته :

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٥٩)

ولا يخفى عليه عز وجل شيء ، جل أو دق ، شيئًا كان أو فكرة ، غيبًا كان أو شهادة ، أظهره صاحبه أو أخفاه ، فكل ما يحدث في خلقه وكونه هو بعلمه وتقديره .

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ (الرعد:٩)

﴿ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الأحزاب:٥٤)

وهو عز وجل الذي خلق الوجود كله وقدره بقدرته .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)

وهو سبحانه يملك الخلق ملك قوة وقدرة وهيمنة وسيطرة .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (المائدة:١٨)

والخلق كله والكون كله مفتقر إليه عز وجل ، وانتظامه ووجوده متعلق به سبحانه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر:٤١)

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٥)

والقانون الذي أوجده الله عز وجل في كونه وخلقه ، والدقة والنظام الذي فيهما هو لحكمة منه سبحانه ليمكن الإنسان من ممارسة مهامه في الكون ، وهذا النظام وهذه الدقة هي إشارات لبديع صنعه عز وجل وتنبيه لوجود الخالق .

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠)

وهذا الناموس الذي يسيِّر به كونه ويجريه فيه لا يحده عز وجل ولا يقيد طلاقة قدرته ، فهو عز وجل :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج:١٦)

وهو سبحانه كما خلق الخلق قادر على إعادتهم بعد الموت وإرجاعهم إليه لحسابهم على ما اعتقدوا وما فعلوا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ (الروم:٢٧)

والله عز وجل في المنهج القرآني هو الذي خلق الخلق ، فهو قريب منهم مطلع عليهم ويعلم ما توسوس به نفوسهم ، وما تخفيه صدورهم .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦)

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ (غافر:١٩)

وهم ليسوا بحاجة إلى وسيط ليصلوا إليه أو يسمعهم ويراهم أو ليستجيب لهم .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة:١٨٦)

وهو عز وجل الذي يرزقهم ، ولا رازق له ولا لأحد من خلقه سواه .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ (هود:٦)

وهو عز وجل فوق الزمان وفوق المكان .

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ (الحديد:٣)

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان:٥٨)

هو سبحانه له وحده الكمال المطلق والصفات الحسنى بإطلاق .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠)

بإيجاز: الله عز وجل في التوحيد القرآني هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، القادر المقتدر ، الفعال لما يريد ، الخالق الرازق ، المنشئ الموجد ، المصرف المدبر ، العليم المحيط ، السميع البصير ، القريب المجيب ، الحي القيوم الذي :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (الشورى:١١)

فالله عز وجل فى التوحيد الإسلامي هو الموجود الذي يخالف كل موجود سواه ، وكل موجود غيره هو من خلقه ، يعتمد عليه ويفتقر إليه ، فهو عز وجل القوة والفاعل والمهيمن ، وكل ما عداه سبحانه منفعل له مسير بأمره .

وقد يقع البعض في وهم السذاجة فيظن أنه يمكن للعقل البشري أن يصل إلى حقيقة الوجود الإلهي وصفاته وتوحيده وكماله ، إذ يكفي أن ينظر العقل البشري في كل صفة توجد في الخلق ثم يصل بها إلى منتهى كمالها فتكون هذه هي صفة الإله الحق ، ثم تجمع هذه الصفات معًا فيكون مجموعها هو الإله الحق والتوحيد الحقيقي الذى يفسر الوجود : كيف كان ، وكيف وُجد ، وكيف يسير ، وإلى أين ينتهي ، ثم يكون هذا التفسير هو ما يرضي عقل الإنسانية وتستقر به نفسها .

والمسألة ليست بهذه السذاجة ولا بهذه البساطة ، فالتوحيد القرآني الذي هو الكمال المطلق لله عز وجل والانفراد بالقوة والقدرة والفعل والسلطان ، والذي يبدو من قبول العقل له واتساقه معه ومن راحة النفس به واطمئنانها إليه ، يبدو سهلاً قريب المنال هو أعسر الأشياء على العقل البشري أن يصل إليه كما هو .

وليس بعجيب أن تكون أبسط الأشياء هي أبعدها عن قدرة العقل على الوصول إليها لأن الأمر ليس آلية وتراكمًا ، بل هو كلٌّ حقيقي متكامل ، وافتراض وصول العقل إليه كما هو على حقيقته يدخل في باب الاستحالة ، لأنه يتطلب إحاطته بالخلق وما قبل الخلق والعلو على الزمان والمكان ، أي أن يكون خالقًا أو في مقام الخالق .

العقل قد يصل إلى ضرورة وجود إله ، وقد يصل وحده إلى ضرورة أن يتصف هذا الإله بالكمال ، لكنه سيصاب بالعي والحيرة والتخبط والتيه إذا حاول أن يتخطى هذه المنطقة إلى ما بعدها .

فلا يمكن لعقل ولا لعقول البشرية كلها أن تعرف الكمال في صفة واحدة كيف يكون ، وأين تنتهي حدود الكمال في الصفة فيصبح السير بعدها سيرًا إلى النقيض ، إلى النقص والقصور وليس إلى الكمال .

وإذا وصل العقل البشري إلى الحدود الحقيقية للكمال في صفة إلهية ، فأنى له أن يعرف أن ما وصل إليه هو الصواب الذي يطابق الحقيقة كما هي؟ لا مناص له من مرشد خارج عنه يعرفه أن ما وصل إليه صحيح .

وإذا افترضنا وصول العقل إلى الصواب في صفة من صفات الألوهية ، فكيف يمكنه أن ينسق بين الصفات كلها لتعطي في النهاية كلاًّ متكاملاً لا تطغى فيه صفة على أخرى ، ولا يكون الكمال في إحداها خصمًا من رصيد الكمال في الأخرى ، ولا تكون فيه الصفات مجموعة من المتناقضات التي يستحيل الجمع بينها بما يفسرها ويجعلها متسقة مقبولة .

ولا مفر من الأمثلة حتى يمكن أن ندرك عسر وصول العقل البشري إلى التوحيد الحقيقي الذى يبحث عنه ويتوق إليه واستحالته عليه ، ولنقدر منّة الإسلام والمنهج القرآني المحفوظ على الإنسانية حق قدرها .

فلاسفة اليونان ، جبابرة العقول وأصحاب النظر العقلي الخالص وأبناء الحضارة المعجزة كما يقول بعض المجاذيب ، فشلوا في الوصول إلى حقيقة الألوهية وإلى كيف يكون الكمال الإلهي .

أرسطو ، وغيره من الفلاسفة الإلهيين كما يسمونهم ، وصل بعقله إلى أنه لابد للكون المتحرك المنظم من إله ، ووصل إلى أن هذا الإله لابد أن يكون متصفًا بالكمال ، وحين حاول أن يحدد ويفصل ما هو هذا الكمال الذي ينبغي أن يكون عليه الإله حتى يستحق أن يكون إلهًا ، سار مع خط الكمال في الصفة الواحدة وظل يسير بعقله ويسير حتى انتهى الكمال وخرج منه إلى العجز والنقص وهو لا يدري ، لأن عقله لم يستطع أن يدرك أن الكمال في الصفة هو حقيقة وليس افتراضًا ، وأن له حدًا إذا تعدته الصفة انقلب ليصير قصوراً ونقصًا .

فمحرك الكون الأكبر لابد أن يكون كاملاً كمالاً مطلقًا ، ولذلك : « **ليس في مقدوره أن يرغب بأي شيء ، فهو لذلك لا يفعل شيئًا . . وعمله الوحيد هو التفكير في جوهر الأشياء ، وبما أنه هو نفسه جوهر جميع الأشياء وصورة جميع الصور فإن وظيفته الوحيدة هي التفكير في ذاته ، فالإله لا يفعل شيئًا وليست له رغبات ولا إرادة ولا هدف** »[1].

ولأنه كامل فكل أثره وفعله في خلقه وكونه أنه : « **يحرك العالم كما يحرك المحبوب المحب** »[2]

---

(١) ول ديورانت : قصة الفلسفة ، ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

أي أن العالم يتحرك به شوقًا إليه وليس بإرادته الفاعلة فيه ، لأنه ليس له إرادة ، إذ هو منزه عنها .

فأراد هذا العقل الجبار أن يصف الإله بكمال العلم الكلي الشامل ، فأدى به افتقاد الوحي المرشد وقصور العقل المقيد عن معرفة صفات الإله المطلق وما يجب له وما يستحيل في حقه إلى أن يصم الإله بعلم هو للجهل أقرب ، فهو لا يعرف به كونه ولا مخلوقاته وما يحدث فيها لأنه كامل وكماله يجعله أعلى من أن يفكر فيها ويجعلها أدنى من أن يعرفها ، فبدأ أرسطو بالعلم وسار به تفكيره في كمال العلم إلى الوصول بالإله إلى الجهل التام ، وأراد تنزيه الإله ومفارقته لخلقه فانتهى إلى أن جعله شيئًا وهميًا ، لا يريد ولا يفعل ولا يقدر ولا يحرك ولا يوجد معدومًا ولا يعدم موجودًا ، لأن ذلك كله حركة والإله يجب أن يتنزه عن الحركة .

وهذا مثال آخر يبين كيف يؤدي الجهل بالتوحيد على ما هو عليه في حقيقته كما جاء به القرآن إلى اضطراب الوجود والكون أمام الإنسان وحيرته فيه وانقطاعه أمامه وعدم قدرته على التعامل معه ، مما لا سبيل إلى الخروج منه لكي يقر العقل وتطمئن النفس إلا بإلغاء الوجود الإلهي كله كما فعل الغرب حتى يستطيع أن يتعامل مع الكون وقد أحله محل الإله ، والكون يمكّنه من ذلك بما أودع الله عز وجل فيه من وحدة ، هي أثر من آثار وحدانيته .

الإله خلق الكون لأنه قادر ، ولكن كيف خلقه ، ومتى خلقه ، ولماذا خلقه؟

لا يستطيع عالم ولا إنسان أن يتعامل مع الكون ويسير فيه أو يسخره إلا بعد أن يعرف إجابة هذه الأسئلة إجابة ترضيه ، إما بمطابقتها للحقيقة وإما بإلغاء ما لا يقدر على فهمه وتجاوزه والتعامل مع الموجود المحسوس وعدم البحث عما وراءه .

فالكون عند الفلاسفة قديم لأن الإله قديم ، والإله قادر ولأنه قادر يجب أن يكون الكون صادرًا عنه ، وإذا كان صادرًا عنه فلابد أن يكون قديمًا كما أن الإله

قديم ، وإذا كان الكون حادثًا ، أي كان الإله موجودًا ولم يكن الكون موجودًا ثم وجد ، فإذا كان الإله قادرًا فلماذا لم يوجد الكون مع الإله طالما أنه قادر؟

إن إيجاد الكون وخلقه وحدوثه تغير ، والإله لا يتغير ، ولأن الإله لا يتغير فقدرته لا تتغير ، فلم يكن غير قادر على خلق الكون ثم أصبح قادرًا فخلقه ، بل هو قادر في كل زمان ، إذًا لابد أن يكون الكون موجودًا منذ كان الإله موجودًا .

في ميزان العقل المحض هو من جهة تفكير منطقي سليم يربط المقدمات بالنتائج ، ولكنه من جهة أخرى أمر مقلق للنفس محير لها جالب للاضطراب والتيه ، لأنه إذا كان الكون قديمًا فهو مساو لخالقه مكافئ له ، وهذا محال .

اضطراب ولبس وخلط وشلل للعقل لا حد له ولا مخرج منه ، ولا قدرة للعقل الإنساني معه على التعامل مع الكون أو فهم قوانينه أو معرفة المراد منه فيه ، وألغاز محيرة لا يمكن للإنسان أن ينطلق إلا بعد أن يعرف كيف يحلها أو بعد أن يلقيها خلف ظهره كما فعل الغرب ليستريح ، ثم تتراكم آثار هذا الإلقاء على مسيرة البشر في صورة الثورات النفسية والاجتماعية ، والتمزق الروحي والاغتراب الكوني ، والإفساد في الخلق وتفتيت المجتمعات ، والانحلال الشامل والشذوذ عن طبائع الخلق الفطرية والانتماء إلى البشرية .

فهذه كلها وليدة الموقف الأم وتوابعه : إلقاء كل شيء خلف الظهر والتعامل فقط مع الآني الوقتي المحسوس المشاهد ، وهي كلها سمات أصيلة لعالم الغرب وليست انحرافًا عنه ولا شذوذًا فيه ، ولا مكان فيه إلا لمن اتسم بها أو توافق معها ، يقول ألكسيس كاريل : «**يجب أن يكون الإنسان مقياسًا لكل شيء ، ولكن الواقع هو عكس ذلك ، فهو غريب في العالم الذي ابتدعه . . إن المادية الدورية التي تتسم بها حضارتنا لا تقاوم السمو العقلي فقط ، بل إنها تسحق أيضًا الشخص العاطفي واللطيف والضعيف والوحيد وأولئك الذين يحبون الجمال ويبحثون عن أشياء أخرى غير المال**»[1].

---

(١) ألكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٠ ، ٢٤١ .

هذه الألغاز المحيرة والاضطراب والبلبلة الكابحة للعقل المقيدة له ، الممزقة للنفس المشتتة لها والتي لا قرار إلا بحلها ، حلها المنهج القرآني بحل بسيط سهل ، لكنه يوزن في ميزان البشرية بآلاف السنين .

لم يفطن عقل أرسطو ولا عقول كل الفلاسفة من بعده إلى أنه إلى جوار القدرة هناك صفة إلهية أخرى هي التي تحل هذا اللغز وتريح العقل والنفس ، هي صفة الإرادة ، وإذا كان بعضهم قد فطن إلى هذه الصفة ، فمن المؤكد أن أحدًا منهم لم يستطع التوفيق بينها وبين صفة القدرة ، ولا تفسير دورها في إيجاد العالم بما يرضي العقل والنفس .

« فالله عز وجل له إرادة ، وإرادته قديمة لا تتغير ، واقتضت إرادته القديمة أن يخلق العالم بقدرته القديمة فى الوقت الذى خلقه فيه »[1].

والقرآن لا يحتاج إلى كل هذا الدوران ، فقد حل هذا اللغز الذي تاهت فيه أعظم العقول بكلمتين اثنتين .

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾
(الأحقاف:٣)

فحل هذا اللغز الكوني وتفسير خلق العالم في الوقت الذي خلقه عز وجل فيه هو هذا الأجل المسمى أو : **« الزمان المعين »**[2] الذي شاءت إرادة الله أن يوجده فيه .

مجرد إعادة تفسير للصفات الإلهية ، وتنظيم لها ولوضع الكون والخلق بالنسبة لله عز وجل ، ولكنه تفسير وتنظيم هو فتح في عالم البشرية ينبغي أن يقدر بمقدار المسيرة الطويلة الشاقة المتشعبة للبشرية بحثًا عن الحقيقة التي يقبلها العقل وترضى بها النفس ولمَّا تصل إليها إلا بهذا المنهج القرآني .

* * *

---

(١) الإمام الغزالي : تهافت الفلاسفة ، ص٩٦ .

(٢) الشيخ نديم الجسر : قصة الإيمان ، ص ٢٨٣ .

آثار التوحيد القرآني

التوحيد الخالص في المنهج القرآني بالغ الأثر على الإنسان ، عقله ونفسه ، ودوافعه ، ورؤيته للأشياء وتعامله معها ، وعلى البشرية والإنسانية كلها في مسيرتها وحركتها .

١- فهم الوجود والاستقرار العقلي في التعامل معه :

أول أثر للتوحيد على الإنسان هو تعريفه بحقيقة وضعه في الكون وموضعه من الإله ، وهدايته إلى تفسير مريح لعقله ونفسه .

والبساطة في التوحيد هي إحدى متطلبات العقل والنفس البشرية ، لأن النفس مفطورة على معرفة الحقائق بمطابقتها لما فيها ، والحقائق هي أبسط الأشياء ، والبساطة هي سمة الحقيقة ، والقدر الذي يتعقد به ما يتعامل معه الإنسان هو نفسه القدر الذي تنفر منه نفسه ويأباه عقله ، وهو القدر نفسه الذي يبتعد به الشيء عن وقع الحقيقة في عقله ونفسه .

ولأن الحقيقة هي البساطة ، والتعقيد هو علامة بعده عنها ، فإن علماء الطبيعيات يقولون إنه إذا وجد نموذجان أو نظريتان لتفسير شيء واحد واحتمل كل منهما الصحة ولم يستطع العلم الحكم بترجيح إحداهما على الأخرى ، فالصحيح منهما والأقرب للحقيقة هو الأبسط والأقل تعقيدًا .

فالتوحيد الشامل الخالص المطلق هو سبيل العقل والنفس للراحة والقرار ، لأنه يحقق لهما علامة الحقيقة المطبوعة فيهما ، وهي البساطة والتفسير غير المعقد ولا المتضارب للوجود .

حسنا! قد علم الإنسان التوحيد وأن الكون له إله واحد مطلق القدرة محيط العلم ، وأن الوجود كله مفتقر إليه ويسير بأمره ، فماذا بعد؟

الأمر بالضبط كسائر في طريق لا يعلم من أين ابتدأ وإلى أين ينتهي وأين مكانه منه ومما حوله ، وطريقه يخلو من الأدلة والعلامات الإرشادية ، فعقله مضطرب مشتت ونفسه حائرة قلقة لا يقر لهما قرار في هذا الطريق الذي يسير فيه ولا يعلم إلى أين سيصل به .

والتوحيد هنا بمثابة إنارة للطريق وخريطة له تحدد موقعه وبدايته ونهايته وإلى أي غاية سينتهي ، وهو علامات إرشادية في منعطفات الطريق حتى لا يضل السائر فيه ، فحينئذ يهدأ العقل وتقر النفس ويفرغ الإنسان بعقله ونفسه للمسيرة نفسها ولإزالة عوائق الطريق وتمهيد جنباته وللإنجاز والإثمار .

فالتوحيد يخلق حالة من الاستقرار العقلي والنفسي تشبه استقرار الذي كان تائهًا في طريق ثم وجد خريطة ترشده إلى موقع الطريق وموضعه منه وتدله على اتجاه السير .

٢- التوحيد والعلم :

قد يقال : الغرب لم يعرف التوحيد ولم يصل إليه ، ومع ذلك سخر الكون وعمر الأرض ولم يكن افتقاده للتوحيد عائقًا أمامه ولا معطلاً لمسيرته .

ونقول : بل إن الغرب لم يعمر الأرض ولم يسخر ما سخر من الكون إلا بهذا التوحيد!

ويقال : كيف ؟ أتريد أن تجعل الغرب الذي يتراوح بين التثليث والإلحاد الكامل أقام نهضته بالتوحيد؟

ونقول : نعم!

فالغرب قد هدم بالتراكم النموذج القديم المغلق ، وإن ظلت بعض آثاره ملازمة له لأنه منها خرج وبها تكون ، والنموذج القديم المغلق كان التثليث والرؤية الأوغسطينية اللاهوتية هي عنوانه وفصوله وهوامشه .

وأحل الغرب وحدات جديدة محل وحدات النموذج القديم ، وفي هذا النموذج الجديد المفتوح نزع الغرب التثليث وتوابعه من مسيرة العلم وفصلها عنه ، فصارت مسيرة حرة غير مقيدة .

وسار الغرب مع العلم والعقل على الجانب الكوني ، والعلم والعقل لكي يفهم كيف يسير الكون ويصل إلى العلاقة بين أجزائه ويكشف سر قوانينه لابد من أن يفترض فيه التوحيد ، فلم يكن في مقدور الغرب ولا أحد غيره أن يفسر حركة الكواكب دون أن يوحد بينها وبين الشمس في مجموعة واحدة ، وبين الشمس وكل الأفلاك في السماء في منظومة واحدة يبحث العلم والعقل عن القانون الذي يحكمها كلها في آن واحد ويهيمن على حركتها وعلاقاتها .

فالعلم كان يعرف وجود وحدة تجمع هذه المتفرقات وتنسق بينها قبل إثباتها رياضيًا وفلكيًا ، فلم يكن العلم يبحث في وحدات منفصلة فاكتشف أنها وحدة واحدة ، بل فرضت عليه قوانين الكون وتركيبه أن تكون هذه الوحدة موجودة أمامه ، يعرفها قبل أن يستطيع إثباتها ، ولا يستطيع تفسير حركة الأفلاك ونظام الكون إلا بافتراضها ، لأنه بدونها يكون ثمة خلل في تركيب الكون ونظامه ، وهذا الخلل غير موجود ، فـ : «**مجرد التفكير في البحث عن قانون يفترض قبلاً أن الطبيعة مطردة منتظمة تخضع لقانون ما ، هو الذي سنبحث عنه**»[1] .

ما نريد أن نقوله هو أنه إذا كنا قلنا من قبل إن العلم سيؤدي إلى توحيد الكون شاء العلماء أم أبوا ، فإن التوحيد نفسه هو الذي يفرض على العلم السير في اتجاهه كحقيقة في تركيب الكون ونظامه لا يستطيع العلم تجاهلها وإلا وقفت مسيرته .

والتوحيد يفرض على العالم البحث عنه وافتراضه قبل أن يصل إليه ، فالتوحيد جزء من ماهية العلم والعالم الطبيعي ، وهو الطاقة التي تشده إلى استكمال مسيرة العلم حتى يصل إلى التوحيد الكامل .

ولذلك كان الغرب بين خيارين ، إما افتراض التوحيد والسير معه ولو على المستوى المادي أو توقف مسيرة العلم التي بدأها ، لأنه بدونه يصير الكون

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص ٦٣ .

الفيزيائي بعثرة وشتاتًا وأشياء لا علاقة بينها ولا يمكن فهمها ، وهو ما يعني استحالة أن يكون هناك علم أصلاً ، لأن العلم في جوهره بحث عن الروابط بين الأشياء .

إذًا العلم الغربى تقدم لتسليمه بالأمر الواقع والاعتراف بالتوحيد أو وجود قوة واحدة كحقيقة ماثلة في الكون يعتمد تركيبه عليها ويقوم نظامه بها ولا يمكن تجاهلها ، وإن رفض ردها إلى الإله الواحد لأن في هذا الرد إلغاء للغرب كله .

وهنا ملاحظة ينبغي أن تذكر ، وهي أن كل نظرية علمية في الغرب تبدأ علمية خالصة ، ثم يتم تصعيدها فلسفيًا واجتماعيًا وتنظيرها لتكون جزءًا من تكوينه ومن رؤيته للكون وفهمه للوجود ، ما عدا هذه الوحدة الظاهرة في تركيب الكون والتي يصر ويجاهد من أجل حصرها في الإطار المادي ويأبى ، عن وعي أو بغير وعي ، وضعها كغيرها من حقائق العلم كجزء مكون للتصور والرؤية ، إذ لو فعل وصعّد هذا التوحيد الكوني المادي إلى مستواه المعنوي والفلسفي لكان حكمًا بنقل الغرب كله إلى الإسلام .

ونعود فنقول : التوحيد هو القوة الدافعة للعلم لأنه الإطار الذي يتحرك العلم فيه والغاية التي لا يمكن أن يتقدم العلم خطوة إلا إذا افترض وجوده ، وهو المرقاة التي يرتقي فيها العلم من درجة توحيدية يفترضها إلى درجة تليها ، وتسلمه كل خطوة توحيد فيه إلى لاحقة لها يعرف وجودها مسبقًا ، حتى يصل إلى التوحيد الشامل الكامل الذي يعلم حق العلم أنه موجود ويبحث عنه في القوة الواحدة التي يخضع لها الكون كله وينتظم بها .

والأمر نفسه في التوحيد القرآني الخالص الشامل ، فالتوحيد القرآني يعلم الإنسان أن الله عز وجل واحد لا شريك له وأنه الخالق للكون بكل ما فيه وهو صاحب القدرة المطلقة فيه ، ولأن الله عز وجل واحد ، والكون كله خلقه ، فالقانون والنظام الذي يسير به الإله الواحد الكون كله واحد ، وأحد مهام

الإنسان هي النظر في الكون والبحث فيه وتعقب القوانين المبثوثة فيه لتوحيدها في قوة واحدة وردها إلى الإله الواحد .

فالقرآن يضع التوحيد أمام البشرية ويعلمها بوجوده ووجود آثاره في الكون ونظامه وحركته وعلاقاته ، ثم يأمر البشر بالسير والنظر في الكون للوصول إليه .

إذًا التوحيد في القرآن حقيقة شاملة ماثلة في الكون ، يؤمن بها المسلم عقائديًا ويوقن بوجودها ماديًا ، وهو مطالب بالسير والنظر في الكون تحقيقًا لمهمته في الأرض ، وفي أثناء سيره ونظره هو مطالب باستلهام التوحيد العقائدي في الوصول إلى التوحيد المادي للكون ، ليطمئن بهذا إلى ذاك ويجمعهما معًا .

فالمنظومة القرآنية تعلم الإنسان أن في الكون قانونًا هو السنن .

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ (فاطر:٤٣) .

وهو مطالب بالوصول إلى هذا القانون .

والقرآن يعلمه أن في الكون توحيدًا ، وأنه مطالب بمعرفة هذا التوحيد الذي لا يمكن معرفته إلا من خلال العلم الكوني الذي ينتقل فيه من وحدة إلى وحدة ، إلى أن ينتهي إلى التوحيد الشامل .

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (يونس:١٠١)

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

ونقف عند الآية الأخيرة وقفة : ﴿ سَنُرِيهِمۡ ﴾ وليس «سيرون» ، بما يعني أن الإنسان ، مسلمًا كان أو غير مسلم ، مؤمنًا بالتوحيد أو منكرًا له ، سيُرى ، بضم الياء ، التوحيد ووحدانية الله في الكون وفي نفسه شاء أم أبى ، وهو ما يعني بدوره أنه ما من عالم ينظر في الآفاق أو في الإنسان إلا ويرى التوحيد وسينتهي إليه ، وهو ما يؤكده العلم نفسه ، وأنه ما من علم يمكنه أن يتقدم

ويسير إلا إذا عرف أو افترض أن هناك توحيداً في الآفاق يوجد كحقيقة ماثلة فيها مكونة لبنيتها .

فالتوحيد موجود أمام المسلم يوقن أنه الحقيقة ويعرف من الوحي المعصوم أن هذه الحقيقة ماثلة بآثارها في الكون مبثوثة في تركيبه ونظامه ، والوحي يدفعه لاكتشافها ورؤية وحدانية الله عز وجل فيها ، فيطمئن قلبه بوحدانية الكون إلى وحدانية خالقه ، وتكون له دليلاً يدعو به إليه .

وهذا هو ما فهمه العلماء المسلمون ورسخته المنظومة في أذهانهم ، فكانت هذه هي الطاقة الدافعة لهم لاستكشاف الكون ، وفي الوقت نفسه الحافز الذي يدفعهم ويعضدهم برؤيتهم له ماثلاً في الكون أمامهم ويتعاملون معه .

يقول الخوارزمي الرياضي : « **وجدت الوحدة في كل عدد ، لأن الوحدة هي الجذر لكل عدد وخارج العدد ، وهكذا الله موجود في كل شيء ، فأنى ولى المسلم وجهه فثم وجه الله** »[1].

ويقول أبو عبد الله البتانى الفلكى في مقدمة : الزيج الصابئ[2]: « **إن أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأعلقها بالقلب وألمعها بالنفس وأسدها تحديدًا للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل ، بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسنته ، علم صناعة النجوم ، لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان ، وزيادة النهار والليل ونقصانها ، ومواضع الشمس والقمر وكسوفهما ، وسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتغير أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها ، إلى ما يدرك من أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته**

---

(١) زيغريد هونكه : العقيدة والمعرفة ، ص ١٨٨ .

(٢) زين العابدين متولى : علم الفلك عند العرب والمسلمين ، ١/١٢٤ .

وجليل قدرته ولطيف صنعه ، قال عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

الفرق بين التوحيد الذي هو طاقة في المنظومة القرآنية والتوحيد الذي هو جاذب وإطار لا يمكن الخروج منه في التعامل مع الكون في مسيرة العلم الغربي ، أن التوحيد الإسلامي واضح معروف محدد السمات والقسمات يشمل كل شيء ولا يتعارض فيه عقل الإنسان وما يصل إليه على مستوى الكون والطبيعة مع ما هو مؤمن به ومستقر في نفسه على المستوى العقائدي ، فهو متجانس موحد غير ممزق ولا مشتت ، فالتوحيد عنده حقيقة واقعة في الكون تؤكد عقيدته الراسخة في النفس .

أما التوحيد الذي هو جاذب للعلم وإطار له على الجانب الغربي ، فهو غائم غامض أو ناقص ، يُجبر العالم الغربي على افتراضه كحقيقة كونية ويحسه في نفسه ، يشده إليه على مستوى الماهية والتكوين الداخلي حتى يكون متناسقًا ويوحد بين عقله ونفسه ولكنه لا يستطيع الاعتراف به على المستوى العقائدي والتصوري .

والفرق بين الطاقة هنا والطاقة هناك هو الفرق بين الوضوح والغموض ، بين القوة الدافعة المحركة وبين الشد الجاذب في خفوت للماهية المطموسة ، بين الطاقة المركزة الموحدة والطاقة المبعثرة المشتتة ، بين التعامل مع الكون والسير والبحث فيه والنظر إليه من منطلق عقيدة علوية وبين اضطرار العالم الغربي للتعامل مع التوحيد كحقيقة كونية تجبره على التسليم بها يومًا بعد يوم .

٣- سلامة التكوين الداخلي للإنسان :

هذا هو الهدف الذي لم تستطع عقيدة ولا فلسفة ولا حضارة قبل التوحيد القرآني ولا بعده أن تصل إليه ، سلامة التكوين الداخلي للإنسان بكل ما فيه من الإنسان .

سلامة تكوين النفس بإيقانها بإله واحد قادر لا ينازعه أحد السلطان ، وأن كل شيء غيره مخلوق له ، فأصبح الإنسان بذلك عبداً لإله واحد غير مشتت ولا منقسم ولا حائر بين الآلهة ، تتصارع فيما بينها ، وتتصارع عليه ، ويصاب هو بالتمزق والحيرة بين مطالبها المخترعة ، فيتملق هذا حينا ويسترضي ذاك آخر .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ (الزمر:٢٩).

فالإنسان بالتوحيد يؤمن بإله واحد لا شريك له ، ولا ند ولا نظير ، ولا والد له ولا ولد ، وحده له الملك ، وله وحده السلطان والحمد .

فإذا أيقن الإنسان بالإله الواحد ، الذي له القدرة ولا حول و لا طول لأحد غيره ، قرت نفسه وانتقلت من الحيرة والتشتت إلى السكينة والطمأنينة .

فالنفس المؤمنة بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ولد ، المنفرد بالسلطان هي النفس المطمئنة التي تغشاها السكينة ، النفس التي يبحث عنها العالم ولا يستطيع الوصول إليها ، يؤلف النظريات والمجلدات ثم تنتهي هباءً منثوراً ونفس الإنسان كما هي ، حائرة قلقة ممزقة دائرة بين العبث واللا معقول والعدم والبحث عن هدف لا تعرفه ولا تعرف كيف تصل إليه ، فهي تنتظره انتظار جودو الذي لا يأتي أبدًا .

ومن بديع القرآن أنه لم يصف النفس التي بلغت الغاية ونالت الرضا وسعدت في الدنيا وتأكدت هناءتها في الآخرة بأي وصف إلا أنها النفس المطمئنة فقط .

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرۡضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).

وسلامة التكوين الروحي للإنسان حين يؤمن بإله واحد مفارق لخلقه ليس كمثله شيء ، فهو الخالق وحده ، المدبر وحده ، المتصرف وحده ، الذي خلق الإنسان وعلمه في الملأ الأعلى .

فهذه هي عقيدة الروح الأسمى التي تصل الإنسان بالملأ الأعلى وتجعله يدرك ويعي أنه يرتفع بها إلى مرتبة الإنسان الذي هو نفخة من روح الله عز وجل .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

فالله عز وجل هو الذي خلقه بيديه وجعل فيه روحًا ، هي من الملأ الأعلى ، تصله به وتجعله يسمو إلى العلا ، إلى حيث تستشرف الروح داخل الإنسان وتطلب وتبحث وتنزع كما ينزع كل فرع إلى أصله .

فهذه الروح التي هي نفخة من روح الله عز وجل إذا آمنت بالله الذي أوجدها وعرفته واهتدت به آبت إلى الملأ الأعلى ، إلى الجنات في حضرة خالقها وعنايته وبالقرب من أصلها ومنبتها الذي منه نبتت وفيه وجدت .

وفي التوحيد سلامة التكوين الأخلاقي والسلوكي للإنسان والمجتمع بعبادته إلهًا واحدًا سميعًا بصيرًا ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو عليم بذات الصدور ويعلم ما توسوس به نفس الإنسان وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

فإذا آمن الإنسان بالتوحيد استوى ظاهره وباطنه ، واتفقت سريرته وعلانيته ، وسمت أخلاقه عن الدنايا أمام الناس ومن خلفهم ، لأن هناك عليمًا قديرًا لا تحجب علمه الأستار ولا يخفى عليه ما استكن في النفس أو ما يفعله الإنسان من وراء الجدران .

فبالتوحيد لا نفاق ولا ازدواج في النفس ولا في التعامل مع الخلق .

فالتوحيد الذي هو الإيمان بالله الواحد المطلق الكمال السميع البصير يربي في المؤمن الرقابة الذاتية على نفسه ، يؤنبها ويهذبها ويحاسبها قبل أن تُحاسب ، لأن حسابه لها تقويم يتقي به الحساب العسير يوم القيامة .

وهذه الرقابة الذاتية تشمل المؤمن في أخلاقه وفي سلوكه وفي علمه ، وفي شؤونه مع الخالق ومع الخلق ومع الكون ومع كل ما يحيط به أويصدر عنه .

لذلك لم يكن غريبًا أن أصبحت : «**الدقة والضبط أساسًا من أسس العلم كله عند المسلمين سواء في علوم الدين أو في علوم الدنيا ، وسواء في الناحية النظرية أو التطبيقية ، فإننا نجد أن الدقة والضبط هما الأساس في كل العلم الإسلامي والجهد الحضاري الإسلامي كله**»[1].

هذا الضبط وهذه الدقة هي عنوان الرقابة الذاتية للإنسان على نفسه وعلى فكره وجوارحه وكل ما يصدر عنه ، وهذه الرقابة الذاتية هي نتاج العبودية لله الحق ، الذي الدقة والرقابة على النفس منه أمر وإليه قربى وبه إيمان وله حب .

٤- تحرير الإرادة الإنسانية :

من الآثار العميقة للتوحيد الشامل تحرير الإنسانية ، تحريرها من العبودية لغير الله عز وجل ، لأنه لا إله غيره ولا يملك القدرة والسلطان سواه .

﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ (ص:٦٥).

فالعبودية لله عز وجل وحده ، والطاعة له وحده ، وكل طاعة لسواه باطلة ما لم تكن أثرًا من آثار طاعته هو عز وجل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾

(النساء:٥٩).

وهذه العبودية له عز وجل وحده تحرير للإنسان من العبودية لكل أحد سواه ، لأنه لا أحد يملك القوة العلو والهيمنة سواه .

---

(١) دكتور حسين مؤنس : دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، ١/٥ .

وشهادة الدخول في الإسلام إنما تنطوي في أحد جزءيها على الإيمان بالله والإقرار له بالوحدانية والسلطان ، وتنطوي في جزئها الأول على نفي الألوهية ، أي نفي العلو والقوة والسلطان ، عن كل ما عدا الله عز وجل .

لا إله إلا الله

وبذلك يربي التوحيد في نفس المؤمن به العزة والشرف وينزع منه الإحساس بالضعة أو النقص والقصور ، لأن كل ما سوى الله عز وجل مخلوق له ، فهم جميعًا سواء .

والتوحيد تحرير للإنسان أن يكون عبدًا يؤمر ويُنهى ممن هو سوى الله عز وجل ، فلا أمر ولا نهي ولا تشريع إلا لله عز وجل ، ولا يقاد الإنسان إلا بأمر الله جل وعلا وحده .

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾
(المائدة:٥٠)

﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (يوسف:٤٠)

والتوحيد تحرير للإرادة الإنسانية من قهر الخوف وسلطانه على العقل والنفس ، لأن كل قوي فالله أقوى منه ، وكل جبار فالله فوقه وإن شاء قصمه .

فإذا آمن المؤمن بالتوحيد الشامل العميق واستقر في نفسه وعقله ، تضاءل فيهما سلطان كل ما سوى الله عز وجل وخلع سطوته منهما وحرر من خوفه إرادته ، لذلك كان الإيمان بالله عز وجل هو طاقة الكفر بالطاغوت ، لا طاقة للكفر به سواه .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ (البقرة:٢٥٦)

فمن آمن بالله عز وجل سمت إرادته وتحررت فلم يداهن الطاغوت ، بل ولا تجنبه ، بل يكفر به غير خائف ولا هياب ، لأن معه إلهًا يحفظه ويرعاه ويدافع عنه بقدر إيمانه به .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ (الحج:٣٨)

وتعلم المنظومة المسلم أن لا يخشى بطش جبار ، لأن الله عز وجل معه يسمع ويرى ، وهو فوق كل جبار ، به محيط ، وعليه قادر ، وله قاهر .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ (طه:٤٥،٤٦)

وبهذا الفهم الذي تربيه المنظومة القرآنية في الإنسان يتحرر تحررًا شاملاً عميقًا من كل خوف وقهر ، ومن كل ما عدا الله عز وجل ، فلو اجتمعت عليه الدنيا كلها كان موقنًا أنه لن تصيبه بسوء لأن الله هو مولاه وناصره ، وإن إصابته بسوء فلن تصيبه إلا بما كتبه الله عز وجل عليه .

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ (آل عمران:١٧٣)

والتوحيد تحرير للإرادة الإنسانية من الهواجس والوساوس التي تنتاب الإنسان في حركة حياته وتكبله خوف الفاقة أو حرصًا على الحياة .

فالله عز وجل هو الخالق وحده ، ولا قدرة لمخلوق على ما خلقه إلا بمشيئته وتقديره ، وهو عز وجل الرازق ، وماكتب لعباده من رزق فلا قدرة لأحد على منعه ، وما منعه فلا سبيل لأحد إلى جلبه .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الروم:٤٠)

فالتوحيد تحرير لإرادة الإنسان من الهواجس والوساوس التي تنتابه خوفًا على رزقه أو على حياته لأنهما بيد الله عز وجل وحده ، والله قد أحاط بكل شيء علمًا ولن يحدث في كونه شيء إلا بأمره وعلمه وتقديره ، والإنسان لن يصيبه إلا ما كتب الله له ، ولن يخرج أمر الناس عما قدره عز وجل وسجله ، فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف .

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ ﴾ (الحديد:٢٢)

فالتوحيد يعيد تكوين الإنسان ليخلقه من جديد ، الإنسان الأسمى والإرادة الحرة والنفس الواثقة المطمئنة كما ينبغي له أن يكون ، وكما تطمح إلى صورته هذه العقول ، وتبحث عن كيفية إيجاده في هذه الصورة العلوية الفلسفات والنظريات .

وقبل ذلك كله التوحيد تحرير لإرادة الإنسان من نفسه وأهوائه ، والإنسان قد يستطيع أن يقاوم كل قوة خارجة ويقهرها ، ولكنه ينهزم دائمًا أمام نفسه وأهوائه وشهواته ، هذه القوة الداخلية العارمة الثائرة التي فشلت جميع العقائد والقوانين والسلطات في كبحها وتمكين الإنسان من الانتصار عليها ، فأقرت بفشلها وقصورها وعلو ذلك عن طاقتها ، فالتوحيد يربي الإنسان على الرقابة الذاتية لنفسه ، لأن الله عز وجل مطلع عليه وهناك تسجيل دقيق لكل ما يصدر عنه .

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق:١٨)

والتوحيد يربي الإنسان على أنه سوف يحاسب على ما سُجل ودُون حسابًا عسيرا يوم المرجع والمعاد ، يوم توفى كل نفس ما عملت .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٨١)

هذا التوحيد وهذه الرقابة وهذا الإيقان العميق بالحساب ، وما يترتب عليه من صورة واضحة مفصلة في الذهن للجنة والنار التي ينفرد بها الإسلام ، هو تحرير لإرادة الإنسان من نفسه وأهوائه وجموحه وشهواته ، وهو تربية له مستديمة لا تنقطع على حساب نفسه وضبطها .

وهذا ما لم تستطع الوصول إليه قوانين الدنيا كلها وتشريعات البشر ونظرياتهم وبرامجهم ، وفشلوا في تحقيقه فشلاً ذريعًا ، ولا أثر لعلومهم فيه سوى زيادته وطغيانه .

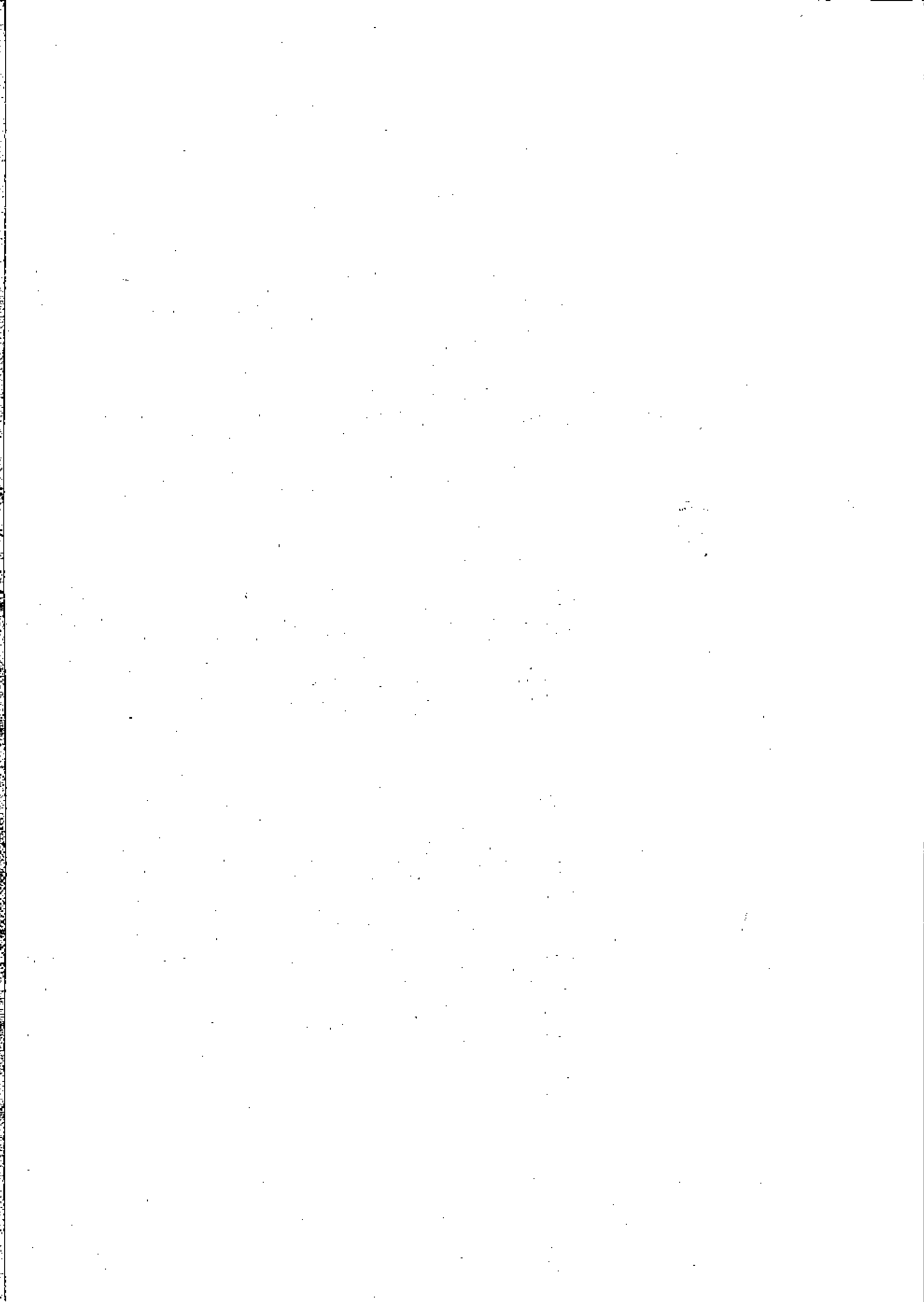
لذلك كان تحرير إرادة الإنسان من نفسه هو خصيصة التوحيد وحده وأثره وحده ، لأنه المنهج الوحيد الذي استطاع أن يجعل كبح جماح الإنسان وتهذيبه مهمته هو نفسه ومن داخله وبرضاه ، يطلبه ويجاهد نفسه في سبيله وليس مجرد أثر لقوة خارجة عنه ، إن قيدت ظاهره عجزت عن باطنه ، وإن حكمت علانيته قصرت عن سريرته .

والمنظومة القرآنية تحرص على غرس هذا التحرير للإنسان من نفسه وتثبيته وإروائه في كل جزئية منها ، آية أو سورة ، قصة أو عظة ، أمرًا أو نهيًا ، وبطريقة شاملة تتناوله من جميع الجوانب ، أما الآية المنهج المتكامل في تحرير الإرادة الإنسانية فهي قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٠،٤١)

ونقف مرة أخرى لنتساءل : هذا الإنسان الذي يكونه التوحيد ويربيه ، مستقر العقل ، مطمئن النفس ، حر الإرادة ، عزيزًا شريفًا ، طامحًا إلى الملأ الأعلى متصلا به ، سليم التكوين ، مستقيم الأخلاق ، مدفوعًا بطاقة المعرفة المفطورة في عقله وبطاقة التوحيد المركوزة في نفسه الماثلة في الكون أمامه لاستكشافه وعمارته هو الحضارة والنقلة في مسيرة البشرية الهائلة أم وسائط اللهو وتقنيات الحروب؟

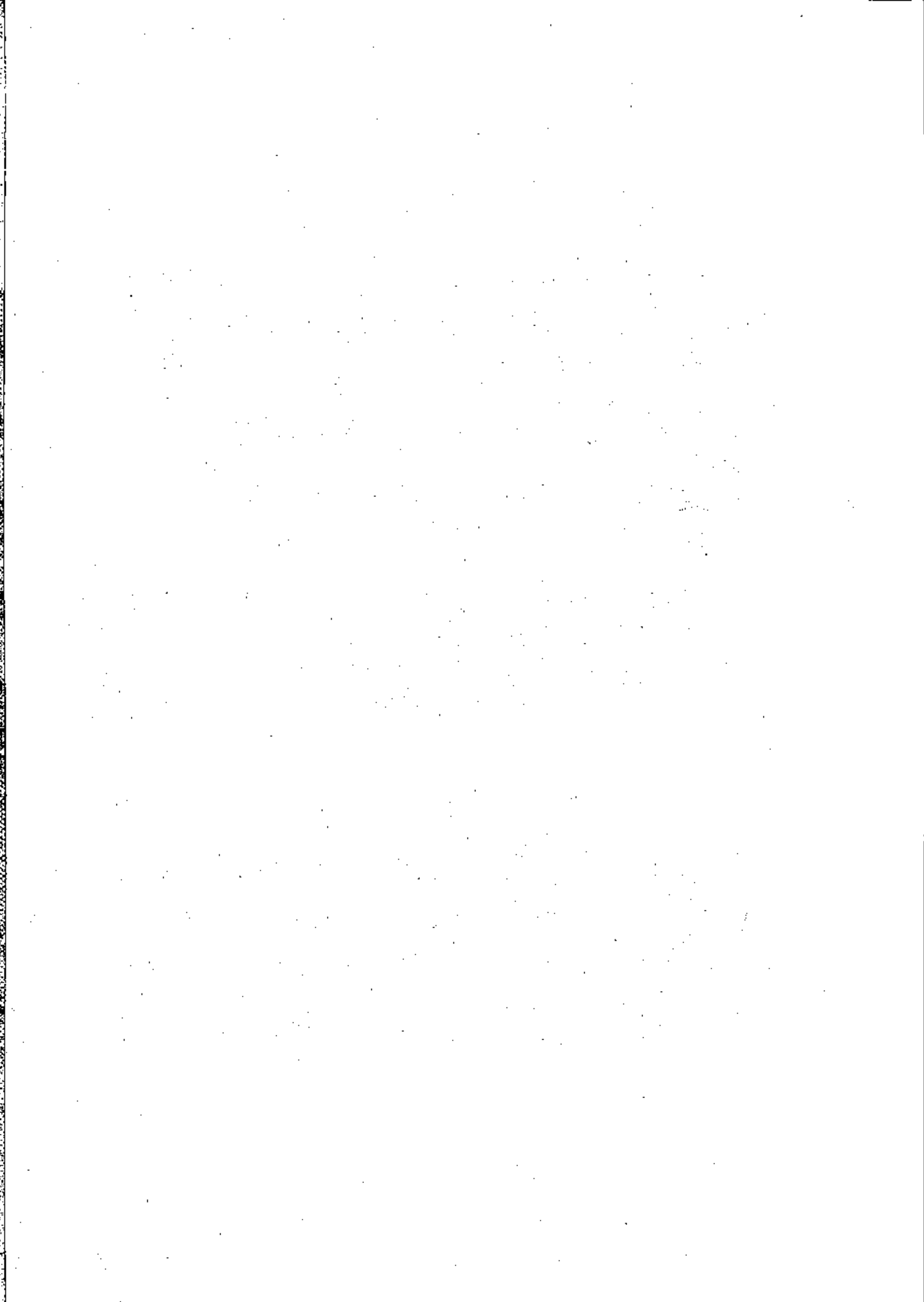
* * *



الفصل السادس

الإنسـان

- الإنسان في القرآن
- في الملأ الأعلى
- من الملأ الأعلى إلى مقر الخلافة
- في مقر الخلافة
- آثار الخلافة
- مهام الخلافة ومعناها
- آثار التصحيح القرآني لحقيقة الإنسان



الإنسان في القرآن

المنهج القرآني ثورة كبرى في فهم ماهية الإنسان ، وتفسير حقيقة خلقه ووجوده ووضعه في الوجود ، وإعادة صياغة شاملة له ، حتى ليمكننا القول : إن الإنسان بوصفه وصفاته في المنظومة القرآنية هو إنسان لم تعرفه البشرية من قبل ، وهو إنسان غير الإنسان الذي توهمته أذهان البشر قبل القرآن ، وتتوهمه أذهان غير أهله بعده ، الإنسان في المنهج القرآني كائن لم يكن موجودًا من قبل .

قد يقال : الإنسان هو الإنسان ، فهل وضع تفسير جديد للإنسان يجعله كائنًا غير الذي كان وغير الذي يكون؟

ونقول : نعم بكل يقين ، فإن الإنسان ، معناه وقيمته ليس إلا فهمنا لحقيقته وتقديرنا لها .

وقد يقال : كيف يقال إن المنهج القرآني أتى بفهم أعاد به بيان وضع الإنسان في الوجود وفسره تفسيراً غير مسبوق ، والإسلام رسالة خاتمة لسلسلة متصلة الحلقات من الرسالات ، وهل الإنسان الذي جاء به المنهج القرآني هو غير ذلك الذي أتى في رسالات الأنبياء قبله؟

ونقول : نعم ، ومرتين .

مرة لأن ما جاءت به الرسالات قبل القرآن عن الإنسان لم يستقر في عقل البشرية ووعيها ولم تحفظه ، وإنما سقط تحت سنابك التحريف وضلالات البشر .

ومرة أخرى لأن الإنسان لم يأت تفسيره الشامل ولا معناه الكامل ، ولا مكانه من الله عز وجل ومن الكون والخلائق ومن الوجود كله إلا في القرآن ، لأن مناهج الرسالات قبله كانت مناهج جزئية ما جاءت لتنظيم الإنسان

كل الإنسان ، ولا لتحتوي البشرية كل البشرية ، وإنما جاءت رسالات محدودة لأقوام مخصوصة وتقويمًا لأوضاع جزئية ، فالرسالات كلها اتفقت في شيء واحد ، هو توحيد الله عز وجل والدعوة لعبادته وحده لا شريك له .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٥)

وبعد هذا الاتفاق العام فكل رسالة تعالج جانبًا من جوانب القصور والفساد البشري ، فرسالة لعلاج فساد اقتصادي .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥).

ورسالة لعلاج فساد أخلاقي واجتماعي .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (الأعراف: ٨٠، ٨١).

ورسالة لعلاج فساد سياسي .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ (الشعراء: ١٠، ١١)

أما التفسير الشامل التام للوجود والمنظومة المتكاملة ، التي تضع أمام البشرية منهاج الرؤية المصحح لكل أفكارها المرشِّد لمسيرتها فلم يأت إلا في المنهج القرآني ، وكل الرسالات قبله إنما كانت إرهاصًا بهذا المنهج المتكامل المستوعب للبشرية ، ومبشرة به .

وهو ما نص عليه المسيح عليه السلام صريحًا في وداعه لحوارييه :

«[١٢]إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ ، وَلَكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ . [١٣]وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ ، رُوحُ الْحَقِّ ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ . [١٤]ذَاكَ يُمَجِّدُنِي ، أَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ»[١]

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:٦).

فمن هو هذا الكائن الجديد الذي جاء به القرآن فأصبح الإنسان به هو الإنسان ؟

* * *

(١) يوحنا : (١٦ : ١٢-١٤) .

في الملأ الأعلى

الإنسان في التفسير القرآني كائن علوي ومخلوق مشرف ، خلقه الله عز وجل بيديه .

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ (ص:٧٥).

وخلقه عز وجل خلقًا مباشرًا مستقلاً بغير مخلوق أدنى منه سبقه فخرج منه ، وإنما خلقه عز وجل على صورته وأنشأه إنشاءً كاملاً تامًا في أبهى صورة وأحسن تقويم .

﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ﴾ (التين:٤)

وجعل عز وجل في خلقه نفخة قدسية من روحه .

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص:٧١،٧٢).

والله عز وجل خلق هذا الكائن فرفع قدره وشرفه وأسجد له أشرف مخلوقاته وأقربها إليه ، وهم ملائكته الذين :

﴿ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ (التحريم:٦).

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ ﴾ (البقرة:٣٤)

هذه آيات يعرفها ويقرأها كل مسلم أو يسمعها ويمر عليها مرورًا عابرًا ، فلا تستوقفه فيها غرابة ولا يرى فيها شيئًا غير مألوف ، لكن هذه الآيات البسيطة على ظاهرها هي تفسير وتعريف شامل بالإنسان قبل أن يبدأ رحلته على الأرض ، يفسر له كيف كان خلقه ، ويعرفه من أين أتى ، ويبين له وضعه ومكانه الصحيح من الخالق ومن الخلق الذي يطمئن معه وتنفك أمامه به كل ألغاز الوجود الإنساني ومعمياته .

وهي الألغاز والمتاهات التي يتوه فيها الإنسان ويضل عقله ولا يستطيع الوصول إلى حل أو تفسير لها ، لأنه لا سبيل له إليها ، وما من وسيلة يملكها تمكنه من فهمها ومعرفتها على الوجه الحق ، وهو في الوقت نفسه لا يستطيع القرار من غير فهمها ومعرفتها ، بل يظل متسائلاً سائلاً نفسه وكل شيء حوله عنها .

هذه الألغاز والمتاهات التي وقف أمامها الفكر الغربي وغير الغربي ، والفلاسفة من قديم إلى الآن ، يبحثون عن إجابة يطمئنون إليها وتفسر لهم من أين جاء الإنسان ، وكيف كان قبل أن يوجد ، وكيف جاء ووجد على الأرض ولماذا : هل جاء من الأرض ، من حيوانات أدنى ، أم هبط من السماء؟

لا يستطيع أحد الإجابة ، ومن أجاب لم يزد الأمر إلا إبهامًا وغموضًا ، ولم يزد البشرية إلا قلقًا وحيرة واضطرابًا .

كانت إجابة العقائد هي : « ٧وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ . فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً . » [1].

ولكنها إجابة لا تقنع عقلاً ولا ترضي نفسًا ، لأنها غير كاملة وغير مفهومة وتفتقد الأجزاء التي تجعلها داخل نسق محكم متناسق يمنحها المعنى الكامل والتفسير المنطقي الشامل ، فهي إجابة لا تخرج عن الجملة العتيدة : « إنها مشيئة الرب» .

إذًا تقول التوراة إن الله خلق آدم ، فلماذا خلقه الله عز وجل وكيف خلقه ، ولماذا أوجده على الأرض ، وإذا كان الله قد خلق الخلق كله فلماذا يكون الإنسان وحده منفردًا متميزًا عن باقي الخلائق؟

فهذه إجابة مهتزة قلقة ، لأنها خيط بلا نسيج يوثقه وتترابط خيوطه معه لتكوّن بناءً منطقيًا مفهومًا ومقبولاً .

---

(١) تكوين : (٢ : ٧) .

وما فشلت فيه العقائد والنصوص القلقة فشلت فيه أيضًا النظريات العلمية ، وما هى بعلمية ، فلم يزدد الإنسان بها إلا شقاءً وتشتتًا على حيرة ، إذ جعلت الإنسان ، أصله ومنشأه ووجوده ، شيئًا مروعًا إن هو صدقه .

يقول دكتور جوليان هكسلي ، أحد علماء التطور البيولوجي ، مقرًا :

«لم يعد الإنسان بعد نظرية داروين يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيوانًا»[1]!

الإنسان الكامل القائم في أحسن صورة ، العاقل المفكر ، الباحث عن الحقائق المتطلع للمعرفة ، المستشرف للعلا لم يعد إلا كائنًا دنيئًا قدم من كائنات أدنى فأدنى تنتهي به إلى الدواب والهوام .

نظرية التطور حين تفسر الإنسان ، وجوده وأصله ، بهذه الطريقة ليست نظرية علمية ، وإن عاد بعض التطوريين الجدد كجوليان هكسلى نفسه وأقروا واعترفوا أن الإنسان : **«منفرد في تطوره وأن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر لهي التفكير المعنوي»**[2].

ليس يعنينا هذا الإقرار والاعتراف ولا هو عندنا بدليل ، لأن هذه النظرية وكل نظرية سواها تناقش هذه المسألة وتبحثها في استقلال عن الوحيَ المعصوم ليست أهلاً لأن يناقش محتواها أصلاً ، ولا هي من العلم في شيء من قبل أن ننظر فيما تقوله أو تأتي به ، إذ إنها كلها تتفق في أن من أنشأوها لم يشهدوا الخلق والنشأة الأولى ولم يعاينوها ، وليس لمن لم يعاين أن يجزم بيقين فيما لم يعاينه ، ومن جزم فيما لم يشهد ولم يعاين ليس سوى ضال مضل ، كما نبه القرآن ونص ، فكأنه يرد على هؤلاء الضالين ردًا .

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف: ٥١).

---

(١) جوليان هكسلي : الإنسان في العالم الحديث ، ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨ .

فكيف إذًا أقام هؤلاء المضلون النظريات فيما لم يشهدوا ولم يعاينوا وليس عندهم ما يمكنهم من معرفته .

يقول جوليان هكسلي : « **إن الداروينية الصحيحة نظرية بحت تتخذ الانتخاب الطبيعي وسيلة لتفسير أي شيء وكل شيء من غير حاجة إلى أدلة ، ومن غير أن تقوم بتفسير الطريقة التي أتت بالنتائج** »[1]!!

ويقول دكتور أحمد أبو زيد : « **فالمدرسة التطورية تعتمد اعتمادًا كبيرًا على التاريخ الظني أو التاريخ التخميني في إقامة نظرياتها حين كان يعوزها الدليل القاطع والشواهد اليقينية على صدق ما تذهب إليه** »[2].

خلق الإنسان وأهم مرحلة في وجوده ، مرحلة تكوينه الأولى ، وتحديد مهمته ووضع خطة مسيرته ، وبدء رحلة البشرية ونقطة انطلاق الإنسانية ، والمنهج الذي يحكم سيرها ، كل ذلك يبنى على التخمين والظن!!

فهذا من العلم أم من الدجل؟!

العلم قائم على الدليل ، ومن تمام العلم أن يقف إذا فقد الدليل ، فإذا وجده فسر وإذا لم يجده وقف ولم يتزحزح ، وليس للعلم أن يفرض أو يخمن في مسألة لا قدرة له على اختبار فرضيته وتخمينه فيها ، وليس عنده من وسائل الإدراك والمعرفة ما يمكنه من معرفة صحة فرضيته أو خطئها .

وإذا كان للغربيين عذر ، وهو عذر واه بمقياس العلم نفسه وميزان العقل نفسه ، لافتقادهم الوحي المرشد المعصوم وأزمة النصوص المكونة لليهودية والمسيحية ، فليس لمن يعيشون في ظلال القرآن عذر لا صغير ولا كبير ، وبمنطق العلم قبل منطق الإيمان، فالقرآن حضر وكان شاهدًا وهم غابوا ولم يوجدوا ، والبشرية لم تع سيرتها الأولى ولا حفظت ذاكرتها الأحداث التي

---

(١) الإنسان فى العالم الحديث ، ص ٢٧٣ .

(٢) دكتور أحمد أبوزيد : مقدمة كتاب الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين لسير جيمس فريزر ، ص ٢٥ .

سبقت وجودها ، ولا وسيلة على الأرض يستطيع بها بشر أن يعرف ما حدث قبل خلق البشر وبدء مسيرتهم ، وعند خلقهم وبدء رحلتهم .

والقرآن يؤكد في حسم أن النبي عليه الصلاة والسلام الذي جاء بالوحي المعصوم لم يشهد ولا علم له في هذه المسألة من عند نفسه ، بل هو يبلغ عمن شهد وحضر .

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (ص:٦٩).

فأي السبيلين أقرب إلى العلم ، أن نأخذ ممن شهد وحضر أم ممن غاب ولم يشهد فهو يضرب أخماسًا في أسداس ومن وقاحته يسمي أخماسه وأسداسه علمًا؟

بل وأي التفسيرين أقرب لعقل الإنسان ولنفسه ، وأيهما أكثر قدرة على تفسير الرقي والاستشراف الدائم الذي يلازم الإنسان ، التفسير القرآني لأصل الخلق أم التفسير التخميني الظني الذي أتى عليه حين من الدهر جعل شبلي شميل وسلامة موسى من لا يؤمن ، نعم من لا يؤمن!! ، جعلوا من لا يؤمن به ناقص المدنية؟!!

أرأيت إلى أين يصل بالإنسان ضلاله واغتراره؟

صار الإيمان بالتخمين من علائم المدنية ، والإيمان بالحق ممن شهد وحضر من علائم التخلف والرجعية!!

ليس لمن أراد تنحية الوحي المعصوم من هذه المسألة وأمثالها إلا أن يثبت أولا خطأه أو مناقضته لأي بديهة في العقل أو حقيقة يقينية في العلم .

ومن أراد فليرنا همته ، ولن يكون إلا :

كناطح صخرة يومًا ليوهنها . . . . فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

جاءت العقائد وأجابت ، وجاءت النظريات التخمينية وأجابت ، وفشلت هذه وتلك ، وكانت علامة فشلها الدامغة لها بقاء حيرة الإنسان واضطرابه وقلقه العميق يتساءل دومًا :

جئتُ ، لا أعلم من أينَ ، ولكنّي أتيتُ
ولقد أبصرت قُدّامي طريقًا فمشيتُ
وسأبقى ماشيًا إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!

أجديدٌ أم قديمٌ أنا في هذا الوجودْ
هل أنا حرٌّ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ
هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقودْ
أتمنّى أنّني أدري ولكن . . .
لست أدري!

وطريقي ، ما طريقي؟ أطويلٌ أم قصيرْ؟
هل أنا أصعدُ أم أهبِط فيه وأغورْ
أأنا السّائر في الدّربِ أم الدّربُ يسيرْ
أم كلانا واقفٌ والدّهر يجري؟
لست أدري !

ليت شعري وأنا عالم الغيب الأمينْ
أتُراني كنت أدري أنّني فيه دفينْ
وبأنّي سوف أبدو وبأنّي سأكونْ
أم تُراني كنت لا أدرك شيئًا؟
لست أدري !

أتراني قبلما أصبحت إنسانًا سويًّا
أتراني كنت محوًا أم تراني كنت شيًّا
ألهذا اللّغز حلٌّ أم سيبقى أبديًّا
لست أدري . . . ولماذا لست أدري؟
لست أدري !

قيل لي في الدّير قومٌ أدركوا سرّ الحياةْ
غير أنّي لم أجد غيرَ عقولٍ آسناتْ
وقلوب بليت فيها المنى فهي رفاتْ
ما أنا أعمى فهل غيريَ أعمى؟
لست أدري !

قد دخلت الدّير عند الفجرِ كالفجرِ
وتركت الدّير عند اللّيل كاللّيل الغضوبْ
كان في نفسي كربٌ ، صار في نفسي كروبْ
أمن الدّير أم اللّيلِ اكتئابي؟
لست أدري !

قد دخلت الدّيرَ استنطقُ فيه الناسكينا
فإذا القوم من الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأسُ عليهم ، فهم مستسلمونا
وإذا بالباب مكتوب عليه . . .
لست أدري !

ولقد قلتُ لنفسي ، وأنا بين المقابرْ
هل رأيتِ الأمنَ والرّاحةَ إلاّ في الحفائرْ؟
فأشارتْ : فإذا للدّود عَيثٌ في المحاجرْ
ثم قالت : أيّها السّائل إنّي . . .
لست أدري !

أيّها القبرُ تكلّمْ ، واخبرني يا رِمامْ
هل طوى أحلامَك الموتُ وهل مات الغرامْ
من هو المائتُ من عامٍ ومن مليونِ عامْ
أيصيرُ الوقتُ في الأرماسِ محوًا؟
لست أدري !

أوراء القبر بعد الموت بعثٌ ونشورْ
فحياةٌ فخلودٌ أم فناءٌ ودثورْ
أكلام النّاس صدق أم كلام النّاس زورْ
أصحيح انّ بعض النّاس يدري؟ . . .
لست أدري !

إنّي أشهد في نفسي صراعًا وعراكا
وأرى ذاتيَ شيطانًا وأحيانًا ملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا
أم تُراني واهمًا فيما أراهُ؟
لست أدري !

كلّما أيقنت أني قد أمطت السّتر عني

وبلغت السّر سرّي ضحكت نفسي مني

قد وجدت اليأس والحيرة لكن لم أجدني

فهل الجهل نعيم أم جحيم؟

لست أدري !

أنا لا أذكر شيئًا من حياتي الماضية

أنا لا أعرف شيئًا من حياتي الآتية

ليَ ذات غير أني لست أدري ماهيه

فمتى تعرف ذاتي كنهَ ذاتي؟

لست أدري ! [1]

أما لماذا ليس يدري فلأنه سأل البحر فلم يجبه،وسأل الدير فأصبح الكرب، كما يقول هو ، كروبًا ، وسأل المقابر فلم تزده إلا حيرة ، وسأل القصر والكوخ والفكر ، لكنه لم يسأل القرآن الذي نلمح إجاباته في تساؤلاته ، يبديها ويخفيها ، يعلنها ويطويها ، لأنه الوحيد الذي يمكنه أن يجيب على تساؤلاته : من أين أتى ، وأين كان ، وكيف قدم ، ولماذا قدم ، وكيف بدأ وكيف سار ، وما هو ، وذاته ماهيه .

ونعود مرة أخرى ، بعد فشل العقائد المحرفة وفشل التخمين الذي يسمى علمًا ، إلى العلم الحقيقي الذي شهد وحضر ورأى وسمع ، لنعرف إجابة هذه الأسئلة التي بها تهدأ النفس ولها يطمئن العقل والفكر وبها تقر الروح المتطلعة القلقة حين يهديها المنهج القرآني إلى أصلها ويعرفها مكانها في الملأ الأعلى الذي تركته لمهمة محددة ، إذا أنجزتها عاذ الإنسان بها إليه .

---

(١) ديوان إيليا أبي ماضي، ص١٩١ .

الإنسان مخلوق شريف مكرم ، خلق خلقًا مستقلاً من الله عز وجـل مباشـرة وفيه نفخة من روحه ، وهو من أول تصويره في أحسن تقـويم ، وهـو مـن ربـه في المنزلة التي أسجد له بها ملائكته .

فكيف إذًا ترك الإنسان الملأ الأعلى ، ولماذا ؟

* * *

من الملأ الأعلى إلى مقر الخلافة

كان الإنسان في الملكوت والملأ الأعلى ، فلماذا تركه وأهبط منه إلى الأرض؟

هذه الفترة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين بداية مسيرته على الأرض هي فجوة في كل التصورات العقائدية والفلسفية غير القرآن .

ما الذي حدث للإنسان في الملأ الأعلى فأهبط إلى الأرض ، هل كان هبوطه نزولاً منه ، هل كان عقابًا له ، هل كان قدرًا محتومًا عليه من غير غاية؟

هذه الفجوة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى ووجوده على الأرض هي تاريخ الغرب كله ، وهي كل مشاكله ، وكل عقائده وفلسفاته ، وكل إيمانه ، وكل إلحاده .

وكما يخرج المولود من بطن أمه ، فإن كل تحريفات اليهودية ، وضلالات المسيحية ، والأساطير الإغريقية ، وما يسمى بالنهضة الغربية قد خرجت من رحم هذه الفجوة التي لا يعرف أحد ما حدث فيها .

لم تستطع النصوص اليهودية والمسيحية الإجابة على هذا التساؤل الذي لابد من الإجابة عليه لسد الفراغ في المنظومة والتصور ، فلفقت الإجابة تلفيقًا خلطته بما بقي من آثار الحق ، ورفدته بالتصورات الإغريقية المفتقرة إلى الوحي افتقارًا تامًا .

والتلفيق يستدعي التلفيق ، فكان أن قام بناء متكامل من الوهم يرتكز كله على قاعدة ملفقة ، إذا عُرفت حقيقتها انهار البناء كله ، وهي ما الذي حدث لهذه الفجوة الانتقالية بين وجود الإنسان في الجنة أو في الملأ الأعلى ووجوده على الأرض .

قام البناء الملفق والمسيحية مطمئنة واثقة ، فلا أحد يعرف ما حدث حقيقة ، ولا أحد يملك من الوسائل ما يمكِّنه من معرفة الحقيقة يومًا .

وأفاق الغرب يومًا فاكتشف أن البناء من رمال لا تصمد أمام رياح المعرفة ، وكشف العلم أن الإجابة التي ملأت الفراغ في هذه الفجوة إجابة ملفقة مزيفة لم تصمد على مر القرون سوى بحجاب كثيف من الجهل والتكتم ، كان هو الإجابة التي ملأت الفجوة وكان هو نفسه الحاجز الحارس حولها .

فتمرد الغرب على هذه الإجابة ورفضها ، وتجاوز الفجوة أو افترض أن ما قبل وجود الإنسان على الأرض غير موجود لأنه لا سبيل لمعرفته وليس بين يديه وسيلة يمكن أن يستشرف بها يومًا لمعرفته ، لأن ما حدث قد حدث قبل أن توجد البشرية على الأرض وتبدأ مسيرتها فيها ، ولا يوجد فى البشرية من شاهد أو عاين ، ولا حفظت ذاكرة البشرية أحداثها الأولى .

وسار الغرب في هذا الطريق متجاهلاً ما قبل الوجود الذي لا يتم ولا يكون تفسير الوجود إلا به ، فكانت العاقبة هي العدم على الجانب الغربي والطلاسم على الجانب الشرقي .

نعود فنقول : الغرب وتاريخه كله : جهله وعلمه ، إيمانه وإلحاده ، عقائده وفلسفاته ، علومه وآدابه وفنونه ، خرج من هذه الفجوة بين وجود الإنسان في الملأ الأعلى وبين وجوده على الأرض ، الغرب اليهودي المسيحي قبل اكتشاف التلفيق تكون منها ، وبعد اكتشاف التلفيق تكون بالثورة عليه والإطاحة به ، فظل التلفيق يحكمه بعد نهضته كنموذج يجب الإطاحة به وبكل ما يقاربه دائمًا ، بالضبط كما كان يحكمه قبل نهضته كنموذج ينبغي طاعته دائمًا ودون فهم .

جبل الرب الإله آدم من تراب الأرض كما تقول التوراة ونفخ فيه نسمة حياة ، ثم وضع آدم في جنة عدن ، ووضع شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر فى وسط الجنة : « [16] وَأَوْصَى الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ قَائِلاً : «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ

الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلاً ، [١٧] وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلاَ تَأْكُلْ مِنْهَا ، لأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ»[١].

كان آدم وزوجه في الجنة ثم ظهر على الأرض ليعرف امرأته وتحبل منه ، فما الذي حدث بين وجوده في الجنة وبين خروجه منها إلى الأرض؟

هذه هي الثغرة التي لم يعرف الغرب ، ولا اليهودية والمسيحية ، الإجابة عليها .

وكان لابد من الإجابة ، وإلا وصم الأحبار ومن بعدهم الكنيسة والبابوات بالجهل ، ولأنهم لا يعرفون ما حدث ولم يشهدوه كان لابد من التلفيق .

ولابد أن نعترف أنه كان تلفيقا عبقريًا ، إذ إنه يملأ الفجوة ، وليس مهمًا ما يملأه بها لأنه ليس لأحد قدرة على معرفة الحقيقة .

أما وجه العبقرية الفذ فأنه تلفيق بإجابة تغلق باب التساؤل أو البحث عن الإجابة الحقيقية ، فيكون التلفيق إجابة وفي الوقت نفسه حارسًا حول الإجابة وسوراً كثيفا يحيط بها ويمنع مجرد الاقتراب منها أو البحث فيها .

ما هو هذا التلفيق؟

« [٦] فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ ، وَأَنَّهَا بَهِجَةٌ لِلْعُيُونِ ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَهِيَّةٌ لِلنَّظَرِ . فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ . [٧] فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ»[٢].

فأصبح الاقتراب من المعرفة بذلك النص خطيئة !

وهكذا حمى الملفقون أنفسهم وسوروا التلفيق الذي وضعوه بمادته ، فلم يعد أحد يقدر على التساؤل أو البحث عن الإجابة أو مناقشتها ، فالبحث

---

(١) تكوين : (٢ : ١٦-١٧) .

(٢) تكوين : (٣ : ٦-٧)

والتساؤل معرفة ، والمعرفة خطيئة أهبطت الإنسان من الجنة إلى الأرض وهي كفيلة بالإطاحة به من الأرض إلى الهاوية ، جهنم .

أكل آدم من شجرة المعرفة فعرف الخير والشر ، فخاف الإله على سلطانه وأبديته وبقائه وخلوده أن ينازعه فيها المخلوق الذي خلقه : « [٢٢] وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ : «هُوَذَا الإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ . وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». [٢٣] فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الإِلهُ مِنْ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا . [٢٤] فَطَرَدَ الإِنْسَانَ ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكَرُوبِيمَ ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»[١] .

وعلى هذا التلفيق القاعدة أقيم البناء كله .

الإنسان أكل من شجرة المعرفة فخرج من الجنة ، فالمعرفة خطيئة ولا حق لأحد فيها إلا الرب أو من ينوب عنه .

والإنسان الأول الذي خرجت منه البشرية كلها ارتكب خطيئة ورثتها الإنسانية كلها دون ذنب جنته ، والمسيح جاء ليُصلب تكفيراً عن هذه الخطيئة وفداءً للبشرية التي لعنت بسببها وهي لا تدري عنها شيئًا ولا يد لها فيها .

ولأن المسيح الفادي جاء إلى الأرض فهي مركز الكون ، والعمل في الأرض وبذل الجهد فيها عقوبة على الخطيئة ، فالعقوبة على المعرفة كانت الخروج والعمل في الأرض ، فصارت المعرفة بذلك خطيئة والعمل عقوبة عليها .

وبذلك صارت الكنيسة وباباواتها هي صاحبة الحق الوحيد في المعرفة ولا حق لأحد أن يسألها أو يسائلها ، ولو فعل فإنه يعيد ارتكاب الخطيئة ، وأصبح شعار الإيمان : اعتقد ولا تفهم ، ومن يفهم يخرج على العقيدة ، وبهذا تكرس سلطان الملفقين المطلق .

---

(١) تكوين : (٣ : ٢٢-٢٤) .

ولننظر !

مجرد حشو لفراغ في تصور أو نموذج يصير رحمًا لعقيدة وسلوك وأخلاق وطريقة حياة ، ودعامة لنظريات علمية ، ودافعًا لتصور كوني .

مجرد جملة لسد فراغ فى تصور تتسبب فى تخلف عالم بأكملة وملايين ملايين البشر لمئات السنين وآلافها .

وهذا هو ما قصدناه ونقصده من أن الحضارة هي تصحيح التصور والرؤية ، والتفسير المنطقي المتناسق والمقبول في العقل والنفس ، والذي يتكون به ويخرج من رحمه السلوك والعقائد والأفكار والنظر للكون والعلم والمعرفة .

قد يقال : هذا التلفيق العبقري نسبته للزمان الذي وجد فيه كثير عليه ! فهل كانت هذه العقول في ذلك الزمان تستطيع إنشاء كل هذا البناء الوهمي الملفق وتجعله متناسقًا في أذهان الناس وتخضعهم لها به؟

ونقول : عبقرية التلفيق لم تكن في اختراع ما تم به التلفيق وسد الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض ، وإنما العبقرية كانت في اختيار المادة التي أقيم بها التلفيق ومناسبتها الفجوة التي ملأت بها ، بل وفي مشابهتها للحقيقة من بعض الوجوه ، ثم إحكامها لتكون نسقًا متكاملاً ، تمكن من تحجيم البشر وصمد أمام حقائق الكون مئات السنين حتى انهار بعد التساؤل عن الإجابة الحقيقية بدافع المكتشفات العلمية .

أيضا جزء من نجاح هذا التلفيق هو موافقته لأهواء من قُدم إليهم ليسد الفراغ والفجوة في التصور ومجانسته لما فى نفوسهم .

إذًا فمن أين جاء الملفقون بمادة التلفيق الذي يسد هذا الفراغ ويملأ هذه الفجوة ويكون موافقًا لأهواء من قدموه لهم ولما في نفوسهم؟

المسيحية نشأت في أحضان الوثنيات الإغريقية والرومانية ، ونشأت بالتراكم الطويل عبر المجامع المسكونية ، وبالاحتكاك المستمر مع هذه الوثنيات .

وانتصرت المسيحية في النهاية على الوثنية إلا أنه : «**كان انتصاراً ظاهريًا ، حيث إن الدين الجديد لم يطوع العالم اليوناني الروماني لعقيدته وروحه ، بل على العكس من ذلك نرى هذا العالم قد تشربه وطوعه لتطلعاته الأصيلة ولتقاليده في جميع المجالات الفكرية والمادية ، والكنيسة هي المسؤولة عن تلك النتيجة ، وهي التي انتصرت لا المسيحية**»[1].

الكنيسة إذًا هي إحدى جهات التلفيق التي كان يهمها أن تنتصر هي لا المسيحية ، كما تقول شهادة جينبيير أستاذ الأديان في جامعة باريس ، لذلك :

«**دأبت على امتصاص لباب العقائد الوثنية وإفراغها منها طالما كانت في مصلحتها**»[2].

وهو ما تؤكده دائرة المعارف البريطانية ، إذ تنص في مادتها عن المسيحية Christianity على أن : «**المكونات الأولى للعقيدة المسيحية وما أفرزته من أفكار وتعاليم كانت امتداداً للأفكار الإغريقية عامة ، والفلسفة الأفلوطينية خاصة**»[3].

The early Christian definitions of dogma drew on Greek thought in general,and in some cases on Neoplatonic philosophy in particular .

وما قاله أستاذ الأديان ، وتؤكده الموسوعة البريطانية ، هو ما أقر به رأس الكنيسة الغربية ، ففي محاضرته الشهيرة عن : الدين والعقل والجامعة ، التي ألقاها في جامعة ريجنسبرج في ألمانيا يوم ١٢سبتمبر سنة ٢٠٠٦م ، والتي اتهم فيها النبي عليه الصلاة والسلام أنه لم يأت في دينه إلا بكل ما هو سيئ وغير إنساني ، قال البابا بندكت السادس عشر : «**أتصور أنه ينبغي الإشارة إلى التوافق العميق بين النظرة الإغريقية والعقيدة المسيحية في الله**»[4].

---

(١) شارل جينبير : المسيحية نشأتها وتطورها ، ص٢٤٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢١٩ .

(3) The New Encpclopaedia Britannica , Vol .16, p . 272 .

(٤) النص الألماني لمحاضرة البابا وما يقابله من الترجمة العربية في : هذا هو الإسلام ، ص١١، هدية مجلة الأزهر ، ذو القعدة ١٤٢٧هـ .

ومن العجيب أنه أقر مفتخراً أن : «**لقد تكلم مانويل الثاني بحق من قلب العقيدة المسيحية المنصهر فيها جوهر الفكر الهلنيستي**»[1]!

ووجه العجب هو أن البابا حين أراد أن يفتخر بدينه افتخر بأن قلبه أرضي وضعي ، والأصل في أتباع كل دين ، فضلاً عن رأسه وحبره الأعظم ، أن ينسبوا دينهم للسماء خالصة ، وأن يجدوا ويجتهدوا في نفي ما قد يتهمه به مخالفوه من أصل أرضي له ، فضلاً عن أن يكون هذا الأصل الأرضي من ضالة عباد أوثان كالإغريق!!

وأما الجذر الأصلي للتلفيق ومصدره الأصلي الذي كانت الكنيسة مجرد فرع منه ، فهو الملفق الحقيقي لا هي ، الملفق الأصلي وعن عمد هو اليهود[*].

فكما يقول كرين برينتون ، مؤرخ تاريخ الفكر الغربي :

«**إن بذرة المسيحية جاءت من خارج العالم الإغريقي الروماني . . . إن أساس المسيحية يهودي بدرجة قصوى وينطبع بطابع الخبرة اليهودية الفذة**»[2].

ونعود مرة أخرى إلى الفجوة في التصور التي ملأها اليهود والكنيسة من بعدهم بهذا التلفيق العبقري الفذ الذي منحها السلطان وأخضع لها ملايين البشر وعشرات الملوك والعروش لمئات السنين مستغلة عدم قدرة أحد على معرفة حقيقة ما حدث .

---

(١) هذا هو الإسلام ، ص١٣ .

(*) لكي تعرف الملفق الحقيقي الذي كان تلفيقه عمداً وقصداً، وهو يعرف الأصل ويحوز الحق ، ولكي تعرف غايته من حجب الأصل وإخراج هذا التلفيق، يجب أن ترجع إلى كتابنا : شفرة سورة الإسراء، الذي يعالج أصول مسألة التحريف والجذر العميق لها ويتعقب آثارها في البشرية ، فإذا رجعت إليه ستعرف أن الإغريق وفلسفاتهم وأساطيرهم وحضارتهم كلها ، هي نفسها في هذا المستوى العميق ، ليست سوى أثر من آثار سريان التحريف في الأمم والشعوب ، وكتابنا هذا : الحضارة القرآنية سابق في الكتابة على كتاب : شفرة سورة الإسراء .

(٢) أفكار ورجال ، قصة الفكر الغربي ، ص١٢٧ .

القاعدة الملفقة وكل البناء الذي أقيم عليها لسد تلك الفجوة هو صورة طبق الأصل من أسطورة بروميثيوس الإغريقية .

ولنعرض الأسطورة أولاً لنرى كيف كان التلفيق عبقريًا حين وظف كل جزئية فيها أبرع توظيف في إقامة النموذج والمنظومة كلها .

«لاحظ برومثيوس أنه لا يوجد بين المخلوقات كلها مخلوق واحد قادر على اكتشاف قوى الطبيعة ودراستها واستخدامها ، والهيمنة على الكائنات الأخرى ، والاتصال بالآلهة عن طريق الفكر ، والإحاطة بذكائه لا بالعالم المرئي فحسب ، وإنما أيضًا بمبادئ الأشياء كلها وجوهرها ، ومن ثم خلق الإنسان من طينة الأرض ، وأعجبت منيرفا ربة الحكمة ببديع صنعه ، فمنحته كل ما من شأنه أن يسهم في تحسين هذا الإنسان ، وقبل بروميثيوس شاكرًا ، ولكنه أردف قائلاً : إنه لكي يختار ما يلائم المخلوق الذي أبدعه لابد له أن يرى بنفسه المناطق السماوية ، فحملته منيرفا إلى السماء التي لم يرجع منها إلا بعد أن اختلس النار وخبأها في عصا مجوفة ليعطيها للإنسان ، واهتاج جوبيتر كبير الأرباب ، فأمر فولكان رب النار والمعادن أن يصنع امرأة كاملة الأوصاف ، وألبستها منيرفا ثوبًا ناصع البياض وغطت رأسها بنقاب وأكاليل من الزهر ولقنتها منيرفا الفنون التي تناسب جنسها وسلمها جوبيتر صندوقًا مقفلاً بإحكام وأمرها أن تحمله إلى برومثيوس ، وخشي برومثيوس أن يكون في الأمر شركًا ورفض استلام الصندوق ، لكن أخاه إيميثيا ما إن رأى الفتاة باندورا حتى نسي ما أوصاه به أخوه فتزوجها ، وانفتح الصندوق المشؤوم وخرجت منه كل الشرور والآثام التي انتشرت من وقتها في الكون»[1].

---

(١) ب . كوملان : الأساطير الإغريقية والرومانية ، ص ٨٧ ، ٨٨ ، بتصرف .

هذه هي مادة التلفيق ، رغبة بروميثيوس أن يصنع كائنًا بارعًا مفكرًا مثله صارت هي إرادة الإله الذى رغب في أن يصنع مخلوقًا يكون : « **كشبهنا وصورتنا** » كما تقول التوراة .

والتجول في المناطق السماوية هو التجول في الجنة ، وجوبيتر الروماني أو زيوس الإغريقي هو الإله ، وباندورا هي حواء ، رمز الإغواء والخطيئة ، والنار هي المعرفة ، وسرقة النار هي الأكل من الشجرة ومعرفة الخير والشر ، والعصا التي خبأ بروميثيوس النار فيها انقلبت فى التوراة إلى حية ، والحية هي نفسها عصا موسى ، وصندوق الشرور الذي انفتح على العالم هو الهبوط إلى الأرض والعيش في الدنيا والعمل فيها ، والدنيا والكون طوال قرون سيطرة الكنيسة على الغرب كانت مرادفًا للشر .

ومادة التلفيق هذه كانت شائعة إلى درجة أن : « **الناس كانوا يتسلون بأن يقصوا حتى على الأطفال الخبائث البارعة التي كان يصنعها بروميثيوس بالإله** »[1].

وليست هذه هي المادة الخام الوحيدة التي تم سد الفجوة وإقامة البناء عليها ، بل إن جزئيات هذه الأسطورة شائعة بصورة أو أخرى في كل الأساطير الإغريقية والرومانية .

وعلى سبيل المثال فإن أهم جزئية في البناء الذي قام على التلفيق لسد الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض هو الخطيئة التي ورّثها الإنسان الأول للبشرية كلها ، وهي صورة طبق الأصل من القدر Destin عند الإغريق الذي هو : « **إله أعمى يجعل الكثير من البشر آثمين رغم رغبتهم في أن يكونوا صالحين** »[2].

---

(١) الأساطير الإغريقية والرومانية ، ص ٨٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٥ .

والأساطير الإغريقية كلها، وعقدة مسرحيات عباقرة المسرح الإغريقي، سوفوكليس وإسخيلوس وأوريبيديوس، تدور حول أن: «**الإنسان ألعوبة في يد قوة خارجية لا تقاوم، وبسبب هذه العقيدة كان طوعًا لسلطة خفية، وكان مقدرًا عليه أن يستغفر ويكفر عن ذنوب هو غير قادر على تجنبها**»[1].

والتثليث أيضًا هو اقتباس من الفلسفة الأفلوطينية، كما أوضح ذلك دكتور محمد أبو موسى ترجمة عن ليون جوتييه، وأثبته الشيخ محمد أبو زهرة في محاضراته عن النصرانية[2].

وهو ما تؤكده تفصيلاً الموسوعة البريطانية في مادتها عن المسيحية ومصادرها، فهي تنص على أن: «**التثليث وعقيدة الثلاثة في واحد Logos هي أثر من آثار الفلسفة الأفلوطينية في اللاهوت المسيحي . . . فالتنظير الأفلوطيني لكيفية صدور العالم عن الإله وتكون المادة المتغيرة من ذاته الثابتة كان هو المادة التي اقتبسها اللاهوت المسيحي لتفسير العلاقة بين الأب والابن . . . والتوفيق بين وحدانية الإله وبين أقانيمه الثلاثة في هذا اللاهوت كان مسألة عويصة تم حلها عبر التصور الأفلوطيني للوجود**»[3].

Christian theology took the Neoplatonic metaphysics of substance as well as its doctrine of hypostases as the departure point for interpreting the relationship of the father to the son... this question was answered through the Neoplatonic metaphysics of being .

هذا هو البناء الوهمي الذي قام على التلفيق الذي سدت به الفجوة بين وجود الإنسان في الجنة ووجوده على الأرض، وهو التلفيق الذي خرج منه الغرب كله، قبل النهضة وبعدها وأثناءها.

---

(١) العلم والاغتراب والحرية، ص٩٣.

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة: محاضرات في النصرانية، ص٣٨-٤٠.

(3) The New Encyclopaedia Britannica, Vol . 16, p . 282.

وقبل أن نستطرد نقف عند سؤال يسأل : إن معنى ما قلته هو أن قصة الخلق كلها أسطورة وهمية! فكيف ورواية التوراة تتفق في بعض جوانبها مع رواية القرآن ؟

ونقول : الرد على ذلك جهتين :

الأولى : هي أن الأساطير في حقيقتها بقايا من قصة الخلق الحقيقية تناولتها على مر العصور عقول البشر فحرفتها وزادت فيها ونقصت حتى استقرت على الوضع التي هى عليه .

وعلى سبيل المثال ، وفي غير قصة الخلق الأولى ، فإن طوفان نوح عليه السلام يكاد يكون شائعًا بصورة أو بأخرى في كل الثقافات الدينية والوثنية ، ولا تكاد تخلو أمة من آثار قصة الطوفان في تراثها وحكاياتها وملاحمها ، وأبرزها ملحمة جلجامش البابلية .

وأما الجهة الثانية فهي أن سد الفجوة في رواية التوراة لم يكن بحاجة إلى أكثر من تعديلات بسيطة ليطابق الأسطورة ويكرس سلطان الملفقين وهيمنتهم ، وفي الوقت نفسه يرضي عقل الوثنية التي يلقى إليها التلفيق ، فمجرد تعديل هنا وجملة هناك وإضافة بعض الرتوش هنا وهناك تؤدي المقصود .

إذًا ما نريد أن نصل إليه هو أن قصة الخلق التوراتية هي قصة حقيقية في أصلها ، محرفة ومدعمة بعناصر الأسطورة في الصورة التي استقرت عليها ، سواء كان التحريف والتدعيم تلقائيًا أو كان مقصودًا ، وفي كل الأحوال فقد استغل الملفقون القصة كما استقرت في صورتها الوثنية أبرع استغلال .

ونعود لنكمل المسيرة .

البناء الملفق اهتز بشدة بسبب تصور كوبرنيكوس لكون جديد لم تعد الأرض فيه هي المركز ، ومن ثم لم يعد المسيح الفادي مركز الكون ، ثم تأكد التصور .

واكتشف الغرب أن المعرفة لا تنفتح بها صناديق الشر بل ترقى بها الحياة وتزدهر ، فمعرفة العالم الجديد أدت إلى طفرة اقتصادية لم تعهدها أوروبا قبلها ، فأدى اكتشاف العالم الجديد إلى الخروج من قبضة الكنيسة جغرافيًّا ، وإلى الخروج من قبضة رؤيتها للمعرفة فكريًّا .

وتقلقل البناء الوهمي أكثر ولم يزل يهتز حتى انهار ، ولكن من جهة أخرى ما إن اكتشف الغرب الحشو الملفق حتى أصابته ثورة على الوهم الذي كان يسجنه فقرر أن يُعرض تمامًا عن هذا الجزء الفارغ ويتغاضى عنه ، وأن يقيم نموذجه بالتراكم معتمدًا على الشيء الذي كشف له تلفيق البناء القديم ، ألا وهو العلم .

فالنص المقدس قد صار بالنسبة له غير قادر على مسايرة العصر ولا تفسير الكون ، ولا هو أصبح يقدم تفسيرًا مقنعًا لوجود الإنسان والسبب الذي جاء من أجله إلى الأرض ، فأصبح النص سجنًا لابد من الفكاك منه .

إذًا علة الغرب والعقدة التي حكمت تاريخه كله هي هذه الفجوة بين الوجود في الجنة والوجود على الأرض التي ملأتها التوراة والبابوات بالحشو الملفق الذي يكرس سلطانهم وأقاموا الغرب عليها ، وعندما نهض نهض بالثورة عليها والإطاحة بها ، وظل مقيدًا للشيء الذي كشفها له وخلصه منها ، وهو العلم .

الغرب ، تاريخه كله ، قبل النهضة وبعدها ، تحكمه معادلة بروميثيوس التوراتية التي تُصفى الأسطورة وتنتهي إليها : **الألوهية ضد المعرفة الإنسانية**

قبل النهضة وفي قبضة المسيحية الكنسية اختار الغرب الانحياز إلى طرف المعادلة الأول ، فكانت هكذا : **الإنسان مع الألوهية ضد المعرفة**

وعندما اكتشف الإنسان التلفيق بسبب التراكم العلمي انتقل من طرف المعادلة الأول إلى طرفها الثاني فصارت : **الإنسان مع المعرفة ضد الألوهية**

وكما هو بيّن ، المعادلة هي هي لم تتغير أطرافها ، وهي هي تحكم الغرب في نهضته كما كانت تحكمه في تخلفه .

الآن ماذا عن القرآن ، ماذا غير في فهم الإنسان للوجود ، وما الذي جاء به إلى الأرض ، ولماذا أهبط من الملأ الأعلى ؟

هذه هي الأسئلة التي لا توجد لها إجابة منطقية ولا تفسير مقبول لا يصطدم بالعلم والمعرفة المفطورة في نفس الإنسان .

في القرآن كان الإنسان في الملأ الأعلى ثم أهبط منه إلى الأرض ، فماذا حدث في هذه المسافة بين الوجود في الملأ الأعلى والهبوط إلى الأرض؟

أمر الله عز وجل آدم أن يأكل من ثمار الجنة ونعيمها ، ونهاه ابتلاءً أن يقرب شجرة لم يعين القرآن اسمها ولا نوعها ولا ما تثمره ، هي شجرة فقط : «**وليس في شيء من تعيين الشجرة ما يعضده خبر**»[1].

فهي فقط شجرة لابتلاء آدم واختبار إرادته ، ونوعها غير مؤثر في بنية التفسير القرآني ، بخلاف التلفيق التوراتي الذي ينهار به بناء المسيحية الكنسية وسطوتها والعقدة الحاكمة لتاريخها وينهار تاريخ الغرب كله لو كانت هذه الشجرة أي شيء غير شجرة المعرفة .

ثم وسوس الشيطان إلى آدم .

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (طه: ١٢٠).

وإذًا لم تكن ثمة شجرة للخلد ولا للحياة خاف الإله ، كما تقول التوراة ، أن ينازعه آدم الخلود إذا أكل منها فأخرجه من الجنة ، وإنما كان ذلك من كيد الشيطان وتضليله وإغوائه لآدم ، فجعل كتبة التوراة وسوسة الشيطان حقيقة تسببت في لعن آدم وطرده .

ثم : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (طه:١٢١).

---

(١) تفسير القرطبي ، ٣٤٨/١ .

فآدم وزوجه أكلا معًا ولم تكن امرأته هي المسؤولة وحدها عن هذه الخطيئة ، كما تقول التوراة ، بأكلها أولاً وبإغوائها لآدم ليأكل ، وهو التفسير التلفيق الذي بناءً عليه تم تحديد وضع المرأة في الفكر الغربي قبل النهضة كمخلوق من درجة دنيئة ، هو رمز للخطيئة والغواية ، وأحد الموضوعات التي كانت مدرجة للمناقشة في مجمع ماكون Macon سنة ٥٨٦م هو : هل المرأة إنسان ؟

وهذه هي أيضًا الفكرة التي حكمت وضع المرأة بعد الثورة على التلفيق ، لتكون رمزًا لهذه الثورة ، لذلك أصبحت المرأة في المجتمع الغربي ، وكلما ابتعد عن التلفيق وانفلت منه ، رمز الحرية والتحرر في كل ما يتصل بها ، ولو شئنا الدقة فقد صارت مزيجًا من الخطيئة والتحرر ، رمزًا للغواية والحرية معًا .

إذًا أكل آدم وزوجه من الشجرة معًا ، فماذا حدث ؟

هاهنا الوقفة الحاسمة بين القرآن والغرب اليهودي المسيحي الملفق .

أكل آدم من الشجرة فأخطأ ، لكنه لم ينزل إلى الأرض مباشرة بعد خطئه ، بل هناك حدث بين عصيانه لأمر ربه وخطئه وبين نزوله إلى الأرض ، وهذا الحدث ينسف التلفيق التوراتي والبناء الذي أقيم عليه من أوله لآخره ، وينهار به البنيان الغربي كله ، قبل النهضة وبعدها ، لأن النهضة كانت مسيرة يحكمها هذا التلفيق في الاتجاه المضاد .

ونلاحظ مرة أخرى ، مجرد تعديل طفيف في التصور أو جملة واحدة تؤدي إلى نسف عالم بأكمله وتكوّن عالمًا جديدًا مكانه .

ما الذى حدث ينسف رواية التوراة والعالم الذي تكون بها وعليها؟

تاب آدم!!

فقط تاب آدم قبل خروجه من الملأ الأعلى فخسف بالتلفيق وعالمه الأرض ، فهذه هي الجزئية التي تسد الفجوة بصورة معقولة ومنطقية ، مفهومة وبسيطة ، ولأنها بسيطة فهي أبعد الأشياء عن الذهن الذي يريد أن يلفق لأن التلفيق تعقيد .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(البقرة:٣٧)

تاب آدم وزوجه وأنابا إلى الله واعترفا بخطئهما وذنبهما وطلبا منه عز وجل الرحمة والمغفرة ، ففي المنهج والتفسير القرآني للإنسان لم يرتكب الإنسان الخطيئة فأهبط إلى الأرض عقابًا له ، بل هو أخطأ ثم تاب ، والله تواب رحيم .

والقرآن صريح في أن الله عز وجل قد قبل توبة آدم واجتباه مهديًا إليه :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

(طه:١٢١،١٢٢)

والأمر بالهبوط إلى الأرض للإنسان الأول كان بعد هذه التوبة وقبولها ، وبعد أن أصبح الإنسان الأول في هداية الله عز وجل ونوره ، بل إنه من المثير للذهن أن القرآن لا يذكر الأمر لآدم عليه السلام بالهبوط إلى الأرض إلا بعد ذكر توبته وقبولها .

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ (البقرة:٣٧،٣٨).

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(طه:١٢٢،١٢٣)

إذًا بين وجود آدم في الملأ الأعلى وهبوطه إلى الأرض توبته واستغفاره ، وقبول الله عز وجل إياه ، وهدايته له ، واجتباؤه إليه .

فالقرآن الذي شهد وحضر يقرر أن آدم تاب ، وهو التفسير الوحيد المعقول والمقبول ، فهو المخلوق بيد الله عز وجل ، وفيه نفخة من روحه سبحانه

وأسجد له ملائكته ، فالأقرب للعقل والمنطق السليم أن يَذكر إذا ذُكِّر ، وأن يتوب إذا أخطأ .

والأقرب للعقل والمنطق أن يقبل ربه توبته وقد تاب إليه ، وهو الذي خلقه خلقًا شريفًا وكرمه بما لم يكرم به أحدًا من خلقه ، وآدم بعدُ لم يجحد ولم يتمرد ولم يعلن العصيان والتحدي كإبليس ، بل أخطأ ضعفًا وغواية ثم تاب وندم .

مرة أخرى ولا نمل من التذكير ، مجرد تعديل طفيف وإعادة تصحيح لجزئية في نموذج تهدر عالمًا بأكمله وتطيح به ، وهذه هي الحضارة التي نقصدها ، التغيير والنقلة التي تؤدى إلى آثار في كل ما يتصل بالإنسان والكون .

ونعود إلى الإنسان الأول .

خلقه الله عز وجل شريفًا عزيزًا ، وابتلاه اختبارًا بالشجرة فنسي وأخطأ ، ثم تاب وأناب وقبل الله عز وجل توبته ، فإذا لم يكن هبوطه إلى الأرض عقابًا له ونفيًا فلماذا إذًا أهبطه عز وجل إلى الأرض؟

هذا هو تمام التفسير القرآني للإنسان ، التفسير الذى تعي البشرية وتحار وتضرب في بطن الأرض بحثًا عنه ولا تستطيع أن تصل إليه ، وما هو في طاقة ما تملكه من وسائل أو تحوزه من تقنيات .

وهو التفسير الذي يضع الإنسان في المكان والمقام اللائق به وهو المخلوق الذي خلقه الله عز وجل بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته .

وهو التفسير العقلي المنطقي الوحيد الذي يفسر وجود الإنسان على الأرض دون أن يكل فيه الذهن وتتبلبل النفس ، ودون أن يتكبل الإنسان بآثام وخطايا لا يعلم عنها شيئًا وهو منها بريء .

* * *

في مقر الخلافة

حكم التصور اليهودي المسيحي الغربي الملفق للفترة بين وجود الإنسان في الجنة وخروجه منها إلى الأرض ، حكم وحتم وضع الإنسان على الأرض ، فهو الكائن المطرود المغضوب عليه ، الحامل للخطيئة ، الوارث ، المورث لها ، الذي جاء إلى الأرض ويعمل فيها عقابًا له عليها .

فماذا عن الإنسان على الأرض في البيان القرآني؟

آدم تاب وأناب ، وغفر الله عز وجل له وهداه واجتباه إليه ، فلماذا إذًا هبط إلى الأرض ولماذا ترك الملأ الأعلى؟

يقول العليم الخبير :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)

من يقرأ هذه الآية أو يسمعها سوف يقفز إلى ذهنه على الفور أن مهمة آدم في الأرض التي أهبط من الملأ الأعلى من أجلها هي جعله خليفة فيها ، وهذا صحيح .

إلا أنه قبل هذا فإن في الآية حقيقة أخرى وتصحيح يتم به نسف النموذج التوراتي وفضح التلفيق وما قام عليه من بناء الغرب كله .

هذه الحقيقة الكامنة في الآية هي أن وجود آدم على الأرض وهبوطه إليها من الملأ الأعلى واستقراره فيها إرادة إلهية وأمر مقرر عليه قبل أن يوجد وقبل أن يخلق .

ففي هذا الحوار بين الله عز وجل وملائكته لم يكن آدم موجودًا ، ولم يكن قد خلق بعد ، ولم يكن قد أدخل الجنة ، ولا نهي عن الأكل من الشجرة المحرمة ولا هو أكل منها .

إذًا مرة أخرى ، هبوط آدم من الملأ الأعلى إلى الأرض لم يكن عقابًا ولا نفيًا ، فهبوط آدم واستقرار الإنسان في الأرض إرادة الله عز وجل التي لم يخلق آدم إلا من أجلها ، بل إن الله عز وجل لم يُعرِّف الملائكة بالمخلوق الذي سوف يخلقه إلا من خلال مهمته التي سوف يخلقه من أجلها ، وهي الوجود في الأرض .

فآدم مكانه الأرض ومستقره الأرض وهبوطه إليها مقرر مراد قبل خلقه ، وهو المقصود من خلقه وليس هبوطه عقابًا ، ولا طردًا أو نفيًا ، ولا لعنة له ولنسله ، وإذًا فهو ليس في حاجة إلى مخلص يخلصه ويفديه لأنه نزل إلى الأرض وبدأ مسيرته عليها طاهرًا بريئًا مهتديًا ، مجتبى من الله عز وجل ، عابدًا موحدًا له مؤمنًا به .

* * *

آثار الخلافة

أهبط الإنسان من الملأ الأعلى إلى الأرض لأداء مهمة محـددة ، لم يخلـق إلا من أجلها وبعد تحديدها ، ألا وهي خلافة الله عز وجل .

فما معنى هذه الخلافة؟

الخلافة معناها ، كما يقول الإمـام القـرطبي ، أن الإنسـان : «**خليفـة الله في إمضاء أحكامه وأوامره**»[1]

إذًا المقصود من الخلافة هو نيابة الإنسان عن الله عز وجل في الكـون ، لأن : «**الخلافة هي النيابة عن الغير**»[2]

هذه هي المهمة التي خلق الإنسان من أجلها ، ومن أجلـها أهـبط مـن المـلأ الأعلى ، أن يكون خليفة الله عز وجل في إمضاء أحكامه وأوامره .

هذه المهمة التي خلق الإنسان من أجلها ، وهي الخلافة عن الله عز وجل في الكون ، تضع للإنسان الإطار الذي ينبغي له أن يتحرك فيه ، والفهم الذي يجب أن يعيه لنفسه ولعلاقته بالكون وبالله عز وجل ، كما توضح له خريطـة مسـيرته في الحياة وتضع له العلامات الإرشادية فيها .

فالخلافة أو النيابة هي عن الله عز وجـل الخـالق الواحـد ، المطلـق القـدرة ، التام العلم ، المحيط بكل شيء ، فإذًا هذا تشريف للإنسان ومرتبة له في الوجود لم ينلها مخلوق آخر غيره حتى الملائكة المقربون .

فالإنسان هو الكائن المشرف الـذي خلقـه خـالق الوجـود واختـاره ، ليكـون خليفة له في الأرض والكون كله .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، ٣٠١/١ .

(٢) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن ، ص ١٥٦ .

وجعل الله عز وجل علامة لباقي مخلوقاته على اختيار هذا المخلوق للخلافة وتكليفه بها وتشريفه على من سواه ، وهي أمره عز وجل الملائكة بالسجود له ، لا سجود العبادة ، ولكن سجود إعلان الخضوع لأمر الله عز وجل في إرادته واختياره ، وإعلان التسليم للمختار بالخلافة والتشريف والطاعة له في إمضاء أحكام الله عز وجل وأوامره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ (البقرة:٣٤)

والملائكة هم أطهر خلق الله عز وجل وأقربها له ، وهم منفذو أمره وحكمه ، فالأمر لهم بالسجود هو أمر لكل من سواهم بالسجود والطاعة ، ومن استكبر على إعلان الخضوع لأمر الله عز وجل في اختياره وتشريفه لمن شاء من خلقه ورفض السجود أصبح مطرودًا من رحمة الله عز وجل ، ملعونًا إلى يوم الدين .

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

(الحجر:٣٣-٣٥)

وهو لعنه الله إذ طُرد من رحمة الله عز وجل وأبلس منها وعلم مصيره ، نذر نفسه لغواية الإنسان وإضلاله ، كي يثبت خطأ الله ، عز وجل وتعالى عن ذلك ، في اختياره .

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء:٦٢)

وجعل مهمته في الوجود إخراج هذا الكائن المشرف المفضل عليه عن مهمته وتضليله عنها حتى يكونا سواءً بسواء .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٦،١٧)

أول آثار الخلافة عن الله عز وجل في الكون ومقتضياتها هي إذًا أن الإنسان مخلوق مشرف مختار على الخلائق .

فإذا كان الإنسان هو خليفة الله عز وجل في الكون المشرف ، فقد ترتب على ذلك أن الله عز وجل الذي اختاره لخلافته منحه سلطانًا على الوجود ، وهيمنة عليه ، وقدرة على تسييره وإدارته ، حتى يتمكن من أداء مهام الخلافة التي خلق وشرف على الخلائق من أجلها .

وتوطيدًا لهذا السلطان من المستخلِف لمن استخلفه ، وتذليلاً لأداء مهمته ، وإعانة له عليها ، أمر عز وجل الكون كله أن يكون مسخرًا لهذا الخليفة المختار .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(إبراهيم: ٣٢، ٣٣)

إذًا فالكون والطبيعة ليست ندًا للإنسان ولا عاصية له ، بل هي مذللة له ، أوجدت ورتبت بأمر الله عز وجل في هذه الصورة ، لتمكنه من أداء مهمته التي خلقه الله عز وجل واختاره لها ، وليس الكون شرًا يفر منه ، ولا الطبيعة في حالة صراع دائم معه ، بل هي موجود مخلوق ليسيره الإنسان في إطار المهمة المحددة التي خلق من أجلها ، والوجود كله يدعوه لذلك بما هو مبثوث فيه ويعينه عليه .

وهذا السلطان والهيمنة التي للإنسان على الأرض والكون وكل ما يحيط به من مخلوقات ذُللت له وسخرت من أجل تحقيق الخلافة فيها ، وهي تعينه عليها ، هذه الهيمنة وهذا السلطان ممنوح من المستخلِف للخليفة لإعانته في مهمته التي خلق من أجلها ، وإذًا سلطان الإنسان على الكون والطبيعة والخلائق ليس أصيلاً فيه ، ولا هو حازه بقدراته الذاتية ، بل هو موهوب له في إطار مهمته المحددة ، ألا وهي الخلافة .

فليس للإنسان أن يستخدم هذا السلطان وهذه الهيمنة إلا في إطار مهمة الخلافة عن الله عز وجل ، وفي حدود أدائها ، وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمته في الكون هو خروج على إرادة المستخلِف عز وجل وعقد الخلافة ، لأن هذا السلطان وهذه الهيمنة لم تمنح له إلا لأداء هذه المهمة .

وكل استخدام لهذا السلطان خارج حدود مهمة الخلافة هو افتئات وتمرد من الإنسان على الذي استخلفه عز وجل ، لأن الخليفة ليس حراً حرية مطلقة في التصرف في الكون والخلق ، فهو حر داخل الحدود التي وضعها له من استخلفه ، وهو حر في استخدام ما مُنح من سلطان بحيث لا يخرج عن إرادة من منحه هذا السلطان .

وكل تعد لهذه الحدود وهذا الإطار هو تعد من الإنسان لمقامه ومكانه ، مقام الخليفة ، إلى مقام ليس له ولا يملك قدراته ولا سلطانه ، مقام الإله ، ذلك أن السلطان الذي منح له سلطان جزئي محدود بحدود المهمة التي وكل بها ، فسلطان الإنسان على الكون هو سلطان الخليفة الممنوح الجزئي ، لا سلطان الإله الكامل المطلق .

ووضع هذا السلطان في غير إطار الخلافة هو إفساد للكون والخلائق ، وإيذان بخروجها عليه ، وعدم قدرته على السيطرة عليها وتسييرها بالتناسق والإحكام التي هي فيه ، لأن سلطانه غير مؤهل لهذا ، ولا هو يملك القدرات التي تمكنه منه .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم:٤١)

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾(العنكبوت:٤٠)

فالكون كله سماءً وأرضًا ، برًا وبحرًا ، المسخر للإنسان المذلل له هو نفسه الذي يخرج عن سلطانه الممنوح له إذا وضعه في غير ما منح له بسببه ، ويصير هو عين هلاكه وتدميره .

وإذا كانت خلافة الإنسان في الأرض والكون تشريفًا وتكريمًا له ، واقتضت أن يُمنح سلطانًا يمكنه من أداء هذه المهمة على الأرض ، فإن هذه الخلافة نفسها هي تكليف للإنسان ومهمة موكولة إليه محاسب عليها ، وليس له أن يتنصل منها ولا أن يأبى حمل تبعاتها ، مثلما أنه ليس له أن يستخدم السلطان الذي منح له بها في غيرها .

فالخلافة تكليف يعني أن على الإنسان مهمة محددة ، هو مسؤول أمام من استخلفه عن أدائها وتنفيذها على الوجه الذي أراده ، وهذا التكليف هو المهمة الأولى والأصلية للإنسان على الأرض ، لأنه ما أوجد ولا أهبط إليها إلا لأدائها .

وهذه المهمة المسؤولية التي كلف بها ، لها أجل مسمى محدد عيّنه المستخلِف ، هو يوم القيامة للإنسانية كلها ، والموت لكل إنسان وحده .

بعدها تنتهي المهمة ويُستدعي الإنسان الخليفة إلى مستخلِفه ، لتنشر صحائف الأعمال وتبسط التقارير ، ويحاسب الخليفة على كيفية أدائه وإنجازه للمهمة ، هل أداها كما أراد منه الله عز وجل الذي استخلفه ، هل قصر فيها ، هل تجاهل المهمة التي خلق من أجلها وخرج عن أوامر المستخلِف؟

هل استخدم الإنسان السلطان الممنوح له فيما منح له من أجله أم أساء استخدامه وخرج به عن حدود المهمة المكلف بها والموكولة إليه ، وإذا كان قد قصر فهل تقصيره مما يغتفر لأنه من طبيعة النقص الطينية المخلوق بها ، وهذا التقصير لم يخل بإطار المهمة والتكليف ، أم أن هذا التقصير كان عبثًا خارج حدود الضعف المركب فيه يستوجب العقاب ، أم أن الأمر كان إطاحة بالمهمة كلها وتمردًا عليها وعلى المستخلِف ومناطحة له عز وجل ، التمرد الذي ليس له جزاء إلا ما يكافئه ، اللعنة والعذاب الأبدي؟

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ (الأحزاب:٧٢)

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره ، بعد أن نقل ما وصله من أقوال الصحابة

والتابعين في معنى الأمانة : «**وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف**»[1]

فالأمانة التي يحملها الإنسان معه هي التكليف بالمهمة التي يجب إنجازها على الأرض ، والتي ما خلق إلا من أجلها وما أهبط من الملأ الأعلى إلا لأدائها ، وهي الأمانة التي ليس له أن يتنصل من أدائها لأن وجوده ما كان إلا من أجلها .

ولا يخلو الأمر من سفسطة ، فرب قائل : أنا لا أريد هذه المهمة ولا أرغب في هذا التكليف .

فنقول له : إن هذا التكليف هو سبب وجود الإنسان في الأرض ، ورفضه يعني رفض الإنسان لسبب وجوده ، فإذا كان يمكن لإنسان أن يرفض وجوده فيمكنه أن يرفض التكليف ، وهذه المهمة التي خلق الإنسان لأدائها هي ماهيته التي عرف الله عز وجل الملائكة به عن طريقها ، فرفض الإنسان المهمة هو إنكار منه لماهيته .

وهذه المهمة وهذا التكليف هو الذي منح الإنسان سلطانه على المخلوقات ، وسخر له الكون لكي يستطيع إنجازها والقيام به ، فإذا أراد رفض المهمة كان عليه أن يتنازل عن سلطانه على الخلائق ويترك التعامل مع ما سخر له من الأرض والكون ، فلا يأكل من الأرض التي سخرت لتنبت له ، ولا يشرب الماء الذى سخرت السماء والسحاب والشمس والبحار لإسقاطه له ، ولا يتنفس الهواء ، ولا . . ولا . . ولا . . ولا يكون .

فمن أراد رفض المهمة وترك التكليف عليه في الوقت نفسه ، لارتباط المهمة بمقتضياتها وما منح له لإنجازها ، عليه أن يتنازل عن سلطانه وعلمه وعقله ، وعن وجوده وماهيته ، وعليه ألا يكون .

* * *

(١) الحافظ ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ٦/٦٨٩ .

مهام الخلافة ومعناها

الإنسان الآن خليفة الله عز وجل على أرضه وفي كونه،وهو في مقر خلافته، وقد شرف بهذه الخلافة ومُنح من أجلها سلطانًا على الكون والخلائق ، وهذه الخلافة مهمة وتكليف يجب أداؤه والقيام به ، فما هي مهام الإنسان ، وما هو المطلوب منه ليكون خليفة ويحقق إرادة المستخلِف منه ولا يخرج عن إطار مهمة الخلافة الموكولة إليه؟

يقول عز وجل لملائكته : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠)

ويقول عز وجل مخاطبًا خلقه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣٩)

فمهمة الإنسان التي خلق من أجلها وأهبط إلى الأرض للقيام بها أن يكون خليفة الله عز وجل .

ويقول عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)

فالإنسان لم يخلق إلا لعبادة الله عز وجل .

إذًا كيف يمكن حل هذا الإشكال ، هل خلق الإنسان للعبادة أم للخلافة؟

لا يمكن حل هذا الإشكال إلا بأن تكون عبادة الله عز وجل هي الخلافة في الأرض ، وخلافة الله عز وجل في الأرض هي العبادة ، والعبادة والخلافة ، معًا ، هي مهمة الإنسان التي من أجلها خلق وأهبط إلى الأرض .

إذًا فلكي نفهم معنى خلافة الإنسان لله عز وجل وطبيعة المهمة الموكولة إليه ، فلابد أن نفهمها في إطار أنها العبادة ، ولكي نفهم معنى العبادة لله عز وجل حق فهمها لابد أن نفهمها في ضوء الخلافة ، لأن القرآن يقرر أنهما شيء واحد .

ولننظر للأمر من جهتيه .

أولاً : ما معنى عبادة الله عـز وجـل في ضـوء أنهـا هـي خلافـة الإنسـان في الأرض ؟

هل المعنى أن تكون مهمة الإنسان الأولى والوحيدة على الأرض أن يصلي ويصوم ويحج ويؤدي الزكاة ويسبح ويستغفر؟

هذا ما لا يمكن فهمه ، لأنه لو كان هو المقصود لما كان لوجود الإنسان على الأرض معنى ، ولما استطاع أن يعيش على الأرض أو يتم مسيرته عليها ، لأن سعيه في هذه الحالة وعلمه وعمله وبحثه عن الرزق والضرب في الأرض ، كلها تكون خارجة عن مفهوم العبادة ، ومن ثم عن المراد من الخلافة ، فيكون الإنسان بذلك قد خرج عن إطار المهمة التي خلق للقيام بها .

إذًا فلا يمكن أن يكون معنى العبادة لله عز وجل ، في إطار أنها الخلافة في الأرض والكون ، هو الفروض والشعائر فقط .

فماذا يكون معنى العبادة في ضوء أنها الخلافة ومهمة الإنسان والغاية التي خلق من أجلها ، كما يقرر القرآن؟

لا يمكن الإجابة ، بل تصبح مستحيلة في ضوء ما قرره القرآن ، إلا بتوسيع معنى العبادة ، ليشمل كل ما يمكن أن يقوم به الإنسان على الأرض ، وإلا كانت كل نشاطاته وحركته خروجًا على المهمة وتجاوزًا للتكليف .

يقول الراغب الأصفهاني : **«العبودية هي إظهار التذلل والعبادة غاية التذلل»**[1]

فالعبادة ليست هي الفروض والشعائر فقط ، وإنما هي التذلل والخضوع لله عز وجل .

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣١٩ .

فمعنى العبادة أن يخضع الإنسان لله عز وجل : « **فيحقق في الكون مظهراً من الخضوع والتسليم له صادر عن إرادة حرة بعد أن تحقق الخضوع والتسليم من كافة المخلوقات بصفة قسرية**»[1]

أو بتعبير الراغب الأصفهاني : «**أن تتحقق عبادة الله بالاختيار كما تحققت بالتسخير**»[2]

فالعبادة هي فهم الوجود والحياة بخريطة الوجود الإلهية ، وصنع الحياة بها ، وتكوين القيم والأخلاق والعلاقات بهديها ، وضبط كل ما يصدر عن الإنسان بمنهج الله عز وجل وأوامره : أفكاره وسلوكه ، علمه وعمله ، نشاطه وأخلاقه .

العبادة إذاً هي الحياة الإنسانية كلها حين تسير بأمر الله عز وجل وفي نور منهجه ، لذلك في القرآن : « **في السياق الواحد يرد ذكر التوحيد وآثار الفاعلية والسلطان في الكون وفي الحياة الدنيا والآخرة ويكرر معها الأمر باتباع شريعة الله باعتباره منتهى توحيد الألوهية والسلطان**»[3].

وقد يقال : في هذه الحالة التي تكون فيها العبادة هي ضبط كل ما يصدر عن الإنسان من قول أو فعل أو حركة بما أراد الله عز وجل منه فيها ، ماذا تكون الفروض والشعائر؟

هي الخط الساخن بين الخليفة وبين الله عز وجل الذي استخلفه ، وبينه وبين الملأ الأعلى الذي قدم منه ، يصله به ويذكره بنفسه ، ما هو ، وما هي ماهيته ، وما هو سبب وجوده ، وينبهه إلى المهمة التي قدم من أجلها إلى الأرض ليكون دائم الوعي بها والإدراك لها ، إذا غفل عنها تذكر ، وإذا أخطأ عاد ورجع ، وإذا تكاسل تنبه .

---

(١) دكتور عبد المجيد النجار : خلافة الإنسان بين النقل والعقل ، ص٥٤ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣١٩ .

(٣) الأستاذ سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٢٥

وهذا هو فهم النموذج التطبيقي ، وهو العهد النبوي ، لهذا الجزء من المنهج ، فالنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه هم رهبان الليل فرسان النهار ، لهم دوي بالليل كدوي النحل بالعبادة ولهم هدير بالنهار من العمل ، يصلون وهم يقاتلون ، ويصومون وهم يزحفون ، ويضربون في الأرض وهو قائمون قانتون .

فهم كما يقول عز وجل : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة: ١١٢).

إذًا فالعبادة في ضوء أنها الخلافة والمهمة التي وجد الإنسان من أجلها هي تطبيق المنظومة على الإنسان والخلق والكون وتسييرهم بمنهج الله وبمدد من الخط الساخن .

وثانيًا : ننظر للأمر من الجهة الأخرى .

ما معنى خلافة الإنسان في الأرض في ضوء أن الخلافة هي عبادة الله عز وجل؟

إذا كانت عبادة الله عز وجل هي ضبط الإنسان لحياته بكل ما فيها بأوامر الله ومنهجه وإرشاده ، فإن معنى أن يكون الإنسان خليفة في الأرض والكون هو أن مهمته هي التعامل مع الأرض والكون والخلق ونفسه معهم بما يوجههم نحو غاية واحدة ، هي تسيير الوجود كله وتنظيمه بمنهج الله عز وجل وعلى ما أراده منه حين استخلفه ، لأن الله عز وجل ما جعله خليفته في الأرض والكون إلا ليسيّر الوجود ويتعامل معه بما يريده عز وجل منه .

أي أن خلافة الإنسان في الأرض هي أن يكون قائد الوجود بمنهج خالق الوجود كما يريد خالق الوجود .

هذه هي مهمة الإنسان التي بها وجد ولها خلق ، ومن أجلها ترك الملأ الأعلى إلى الأرض ، وخروجه عليها أو إخلاله بها إخلال بوجوده وخروج على حدود مهمته وخروج على إرادة المستخلِف التي هو مكلف بإنفاذها .

والخلافة ، إذ هي تسيير الكون والخلق بمنهج الله ، تقتضي منه أن يعرف الكون تمام المعرفة حتى يتمكن من فهم ما أودعه الله عز وجل فيه ليكون مسخرًا له ويعينه على أداء مهام الخلافة .

والخلافة تتطلب منه أن يعرف الأرض ، مقر خلافته ، وأن يعمرها وينميها وأن يسير فيها وينظم العلاقة بينه وبينها وبين جميع المخلوقات حسب ما أراد الله عز وجل منه حين استخلفه .

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود:٦١).

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت:٢٠).

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١).

والخلافة تتطلب منه أن يعرف نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من وسائل وإمكانات وطاقات ، منحه إياها حين استخلفه لاستكشاف الكون والأرض والمخلوقات التي سوف يتعامل معها ويسيرها ويقودها وينظم العلاقة بينها تحقيقًا للخلافة .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت:٥٣).

نوجز فنقول : الإنسان ترك الملأ الأعلى وأهبط إلى الأرض لأداء مهمة خُلق من أجلها ، هي خلافة الله عز وجل في الأرض ، والخلافة هي العبادة ، والعبادة هي الخلافة ، وهما معًا إنفاذ مراد الله عز وجل وأمره وحكمه في كونه وخلقه .

ومن أجل القيام بهذه المهمة سخر الله عز وجل كل شيء في الكون ، سماءً وأرضًا ومخلوقات ، بما يعينه على أداء مهمته ، ومنح عز وجل الإنسان نفسه من السلطان والطاقات والقدرات ما يمكنه من أداء هذه المهمة والقيام بتبعاتها .

* * *

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الإنسان على الإنسانية

التصحيح الذي أتى به المنهج القرآني لحقيقة الإنسان وماهيته، وكيفية خلقه وسبب خلقه ووجوده، وما لابس خلقه وهبوطه إلى الأرض من أحداث ليس في طاقة بشر معرفتها، لأنه لم يعاينها ولا وسيلة أمامه تكشفها له ولا يمكنه أن يطمح إلى معرفتها يومًا، لأنها حدثت بعيدًا عن مجال معرفته وخارج قدراته على المعرفة، هذا التصحيح هو نقلة في تاريخ البشرية لا يوجد ميزان يمكن أن توزن به إلا ميزان الخالق عز وجل.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

فهذه نقلة في تاريخ البشرية وارتقاء بها لو اجتمع البشر كلهم عليه ما استطاعوا إليه سبيلاً وما قدموا ولا أخروا.

يكفي أن نعرف أن الغرب لكي يكتشف زيف جملة واحدة لُفقت لملء فراغ في التصور لا يعرف حقيقة ما حدث فيه أحد استغرق مئات السنين وآلافها.

مئات السنين وآلافها لكشف التلفيق فقط، وليس للتصحيح والوصول إلى الحقيقة، وأنى له أن يصححها أو يهتدي إلى الحقيقة، فما زال يخبط في عمياء لا يهدى السبيل.

هذا التصحيح هو إذًا إنشاء لإنسان جديد وعالم جديد نسف فيه التصحيح التلفيق والعالم الوهمي الذي أقيم عليه، وأيضًا كشف تهافت النموذج والمنظومة التي قامت وأنشأت بالثورة على هذا التلفيق والعلم الذي أقيم على هذه الثورة فتكون مشوهًا يتخبط، لأنه بعد أن اكتشف الإنسان التلفيق أصيب برهاب أو فوبيا تجعله يفزع ويرى في كل معرفة غير العلم الطبيعي الذي كشف به الزيف والتلفيق شبح السجن الذي هدمه والقمقم الذي خرج منه.

الغرب كان مسجونًا قبل خروجه من القمقم ، وخرج منه ، لكنه خرج مريضًا مزمنًا ، مشوه العقل والنفس من طول سجنه .

نتائج هذه الحضارة ، النقلة التصحيحية ، لحقيقة الإنسان وآثارها بالغة المدى ، متعددة الأبعاد ، فهي نسف لعالم وإنشاء لعالم جديد ، وميلاد جديد لمعنى الإنسان ، وصياغة غير مسبوقة للكون ، وتنظيم دقيق متناسق متجانس للإنسان والكون والخلق ، وللعلاقة التي تربطه بهم ، وتربطه وهم معه بالله عز وجل .

هذه النتائج واضحة بنفسها فيما أسلفناه ومبثوثة في ثناياه ، ألمعنا إليها في مواضعها ، إلا أننا نجملها موجزة لنعرف ما هو المعنى الحقيقي للحضارة .

١- الاستقرار العقلي والنفسي للإنسان بمعرفته لأهم سؤال في تاريخه ، المعرفة والتفسير المنطقي المتناسق الذي لا توجد فيه فجوات ولا حشو ، بل هو تفسير نسيج مترابط ، خيوطه آخذ بعضها ببعض في إحكام : من هو ، وكيف خلق ، وأين كان قبل أن يوجد على الأرض ، وما هي مهمته فيها؟ ، وهي الأسئلة التي من غير الإجابة عليها تنتاب الإنسان الحيرة والتمزق والخوف والفزع ، لأنه بدون هذه الإجابة لا بديل أمامه سوى الطلاسم أو العدم .

٢- الإنسان كائن مشرف مكرم خلق خلقًا مستقلاً فريدًا عن باقي المخلوقات ، فهو الكائن الذي خلقه الله عز وجل مباشرة في أحسن تقويم ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وبسجودهم وخضوعهم له سجد وخضع كل من سواهم ، ومن أبى لعنه الله عز وجل وأبلس من رحمته .

وإذًا الإنسان ليس مادة صماء قدمت من العدم وستنتهي بالعدم ، وإذًا الإنسان لم يأت من هوام الأرض ودوابها ، ونفسه تخبره ، حيرة وقلقًا وتوترًا وإن لم يعلم أو يمتلك الدليل ، أنه لا يمكن أن يكون وهو المفكر المدبر العاقل الطُلَعة منتهيًا في أجداده وأصوله إليها .

٣- الإنسان لم يخرج من الجنة إلى الأرض بسبب الخطأ الذي ارتكبه ، لأنه تاب منه ، والله عز وجل قبل توبته وغفر له وهداه إليه ، وإذًا الإنسان ليس مكبلاً منذ مجيئه إلى الدنيا بخطيئة وذنب يثقله وينوء به وهو لم يرتكبه ولا يذكر عنه شيئًا ، وإنما بدأ الإنسان لا يحمل وزرًا ليس له يد فيه ، والله عز وجل لن يحاسبه إلا على ما فعل هو وما جنت يداه هو .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (المدثر:٣٨)

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ (النجم:٣٩)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (لقمان:٣٣)

٤- وإذًا لم تكن هناك خطيئة ورثتها البشرية وتورثها ، بل كل امرئ مسؤول عما يفعل وعما تجترح يداه فقط فلا حاجة لفاد يفدي البشرية أو يحمل عنها وزر الخطيئة المزعومة .

٥- المرأة ليست هي سبب خروج الإنسان من الجنة إلى الأرض ، فالرجل والمرأة أكلا من الشجرة معًا ، فلا هي أكلت وحدها ولا هي التي أغوته ليأكل منها ، وفي كل الأحوال فقد تابا معًا أيضًا وأنابا إلى الله .

وإذًا لم تكن المرأة هي سبب الخطيئة الأولى ولا اقترفت ما لُفق وحمل عليها ، فهي ليست كائنًا دنيئًا ولا محتقرًا ، وليست إذا اعتُرف بها كإنسان في مرتبة أدنى من الرجل كما قرر مجمع ماكون سنة ٥٨٦م حين ناقش مسألة : هل المرأة إنسان؟

وإذا لم تكن المرأة دنيئة ولا كائنًا محتقرًا ، فليست هي أيضًا المرأة التي صنعتها الثورة والتمرد على التلفيق ، المرأة التي كانت خطيئتها تلفيقًا ، ثم ثورة وتمردًا على التلفيق جعلوا خطيئتها حقيقة واقعة .

فالمرأة إنسان خلق كالرجل بأمر الله عز وجل ، وخلقا معًا لأداء مهمة وبدء مسيرة على الأرض ، ولكل منهما دور ووظيفة داخل المهمة والمسيرة غير

الآخر ، واختلاف طبيعة الوظيفة والدور اقتضى اختلاف طبيعة كل منهما واختلاف القدرات الممنوحة لكل منهما لكي يناسب المهمة التي خلق ليقوم بها .

وتمرد طرف على طبيعته هو تمرد على المهمة الأصلية نفسها ، ألا وهي الخلافة ، يستوجب كل ما يستوجبه نقض عقد الخلافة .

٦- الإنسان كما هو كائن مشرف مكرم هو أيضًا مكلف بمهمة ، ما جاء الأرض ولا خلق إلا من أجل القيام بها ، فالإنسان على الأرض في مهمة ، وهذه المهمة هي خلافة الله عز وجل في الكون والخلق ، والخلافة تعني التزام الخليفة بإرادة المستخلف ، فليس له أن يخرج عنها .

والخلافة هي العبادة ، والخلافة والعبادة هي تسيير الحياة على منهاج الخالق عز وجل ، وتنظيم علاقاتها وتحديد قواعدها كما يريد عز وجل .

٧- العمل ليس عقوبة ، بل هو الشرف الذي شرف به الإنسان على سائر المخلوقات ، وسعيه في الحياة ومجالدته لشؤونها هو من مهام خلافته وعبادته في الأرض ، وإذا تمكن الإنسان من أن يجعل لعمله في نفسه هذا المعنى فهو رفعة في الدرجة وقربى من خالقه الذي يحب العمل من خليفته ويحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه .

٨- التكليف والمهمة لا يعني الحرج والعنت ، ولا أن حياة الإنسان على الأرض أغلال دائمة تكبله ، وإنما يعني أن هذا التكليف وهذه المهمة هي التي تحقق ماهية الإنسان ووجوده ، فلابد أن يكون دائمًا مدركًا لها واعيًا بها محاولاً تلمس إرادة المستخلِف في حياته كلها ، وبعد ذلك فسعة من الله ورحمة منه عز وجل بعباده فإنه :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة:٢٨٦).

فلكل إنسان طاقة وسعة ، وما يقدر عليه واحد قد يقصر عنه آخر ، والله عز وجل لا يطلب من عباده نصبًا دائمًا ، بل إخلاصًا دائمًا وعملاً بالمهمة كما أراد عز وجل قدر الوسع ، ودون تجاهل متعمد ولا تكاسل معيب .

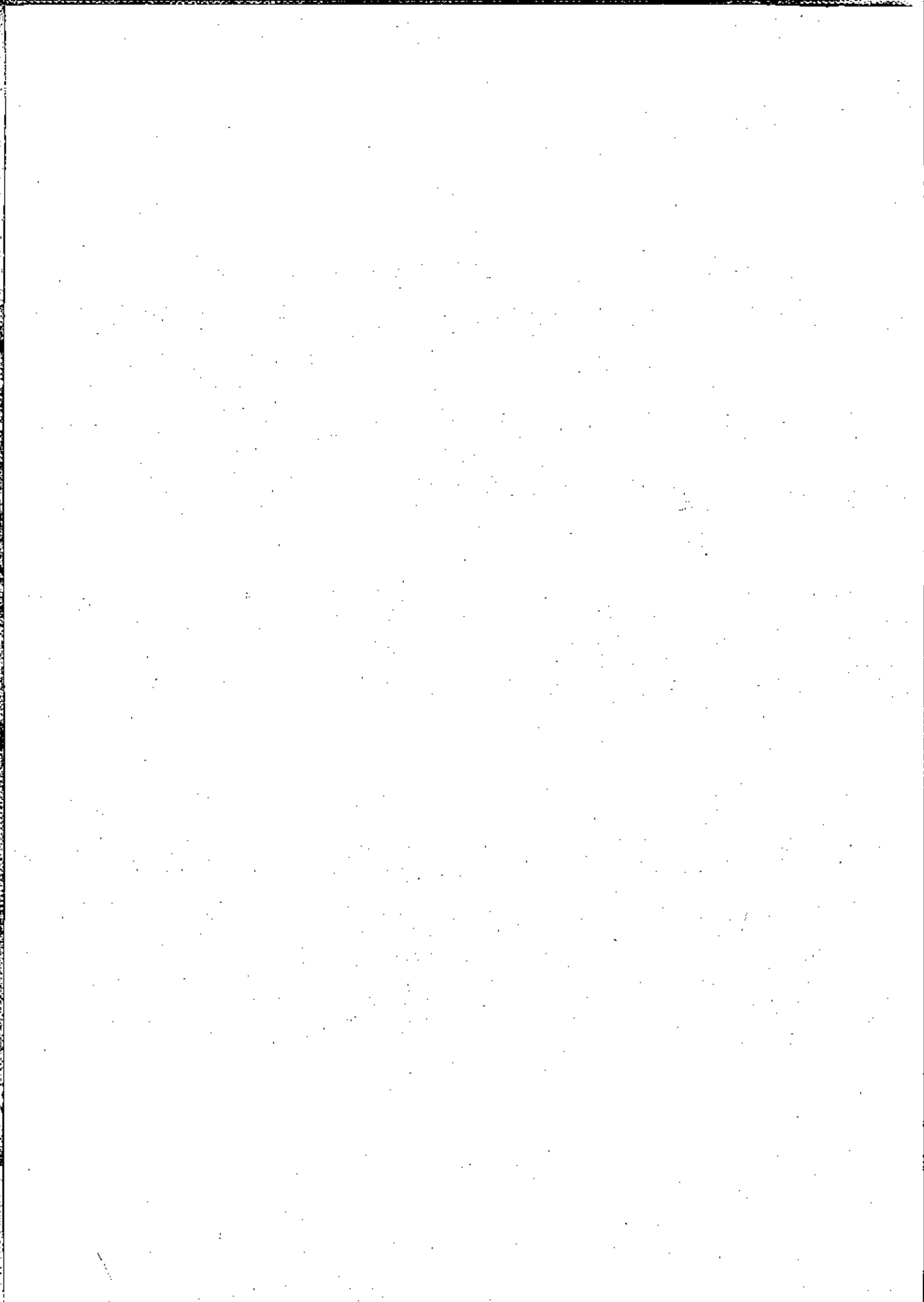
٩- الإنسان هو الكائن الذي منح بسبب المهمة والتكليف الذي كُلف به سلطانًا على الأرض والكون والخلائق ، لذلك هو محاسب على هذا السلطان ، وهو مسؤول عن صلاحية الكون والأرض ، وعن سلامة مخلوقات الله وحفظها واستخدامها في حدود ما أباح عز وجل له .

وفي إساءة استخدام سلطانه في الطبيعة والبيئة والكون إفساد لها وانتهاك ، هو مسؤول عنه ، وكذلك في حسن استخدامه لهذا السلطان ورعايته لحق المستخلف في كونه وخلقه صلاح هو مجزي عليه ومثاب به .

١٠- البشر جميعًا من أصل واحد ، متساوون في الكرامة ، ولا فضل لأحمر على أسود ولا لأبيض على أصفر ، ولا لقوم على قوم ولا لشعب على شعب إلا بالتقوى وتحقيق إرادة الخالق عز وجل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾ (الحجرات:١٣).

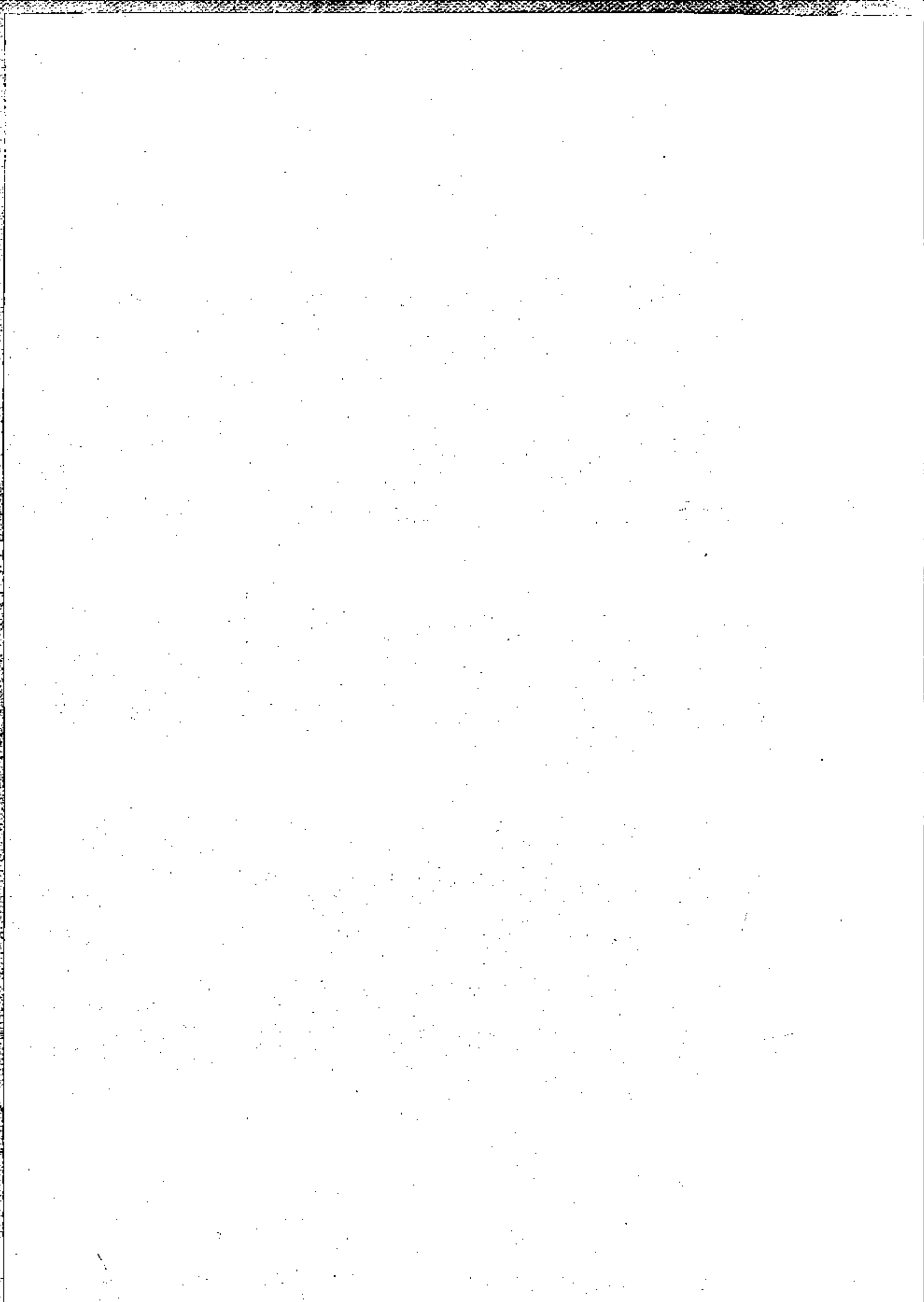
* * *



الفصل السابع

الكون ـ الدنيا

- معنى الكون
- حقيقة الكون
- الإله والكون
- الإنسان والكون
- آثار التصحيح القرآنى لحقيقة الكون



معنى الكون

الكون والطبيعة هي الركيزة الثالثة في التفسير القرآني الجديد الذي أعـاد بـه الإسلام صياغة الوجود وتحديد أوضاعه وتنظيم علاقاته وتصحيح أخطاء البشر وأوهامهم في تصوره ، مما أفضى إلى آثار بالغة الوسـع بعيـدة المـدى في فهـم الإنسان للكون وعلاقته به وموقفه منه وموضعهما معًا مـن الخـالق عـز وجـل ، وإلى آثار عميقة متراكمة في حياة الإنسان وحركته وعلمه وعمرانه .

الكون الذي جاء به القرآن في تفسيره الجديد له هو كـون لم يسـبق للبشـرية معرفته ولا رؤيته ، وهو نقلـة جبـارة في مسـيرة الإنسـانية ، لا يقـدرها إلا مـن يعرف كدها الطويل ورحلتها المضنية إلى تصـور صـحيح للكـون ، لم تسـتطع الوصول إليه إلا بالمنهج القرآني وتفسيره الجديد الذي أعـاد بـه تصـحيح رؤيـة الإنسان للكون وما يترتب عليه من تصحيح وضعه بالنسبة للإنسان ومن الله عـز وجل ، وتصحيح علاقة الإنسان به وموقفه منه ، ومن ثَم تصحيح طريقة تعاملـه معه ونشاطه فيه .

هذا التفسير القرآنـي يقـع في ثلاثـة محـاور تـتداخل وتـتلاحم معًـا لتكـون نسيجًا متكاملاً متناسقًا ، وعزل أي محور منها عن الآخر أو الانحراف به يؤدى إلى تفكك النسيج الذي يجمعها ، والذي لا يكتمل التفسـير المقبـول والمفهـوم إلا بوجوده متكاملاً متناسقًا تجتمع فيه الخيوط الثلاثة وتلتقي معًا .

ونكرر ما قلناه ، وهو أن هذه الرؤية الشاملة الكاملة المتناسقة للكـون لـيس لبشر قدرة أن يصل إليها كاملة متكاملة ونسيجًا مترابطًا كما هي ، ولأنه لا أحد يملك القدرة على الوصول إلى هذه الرؤية الكاملة والنسيج الشامل ، كان تصور الكون في نفسه ، وتصوره في علاقته بالإله وعلاقته بالإنسان هـو أحـد العقبـات التي وقف عنـدها البشـر في كـل زمـان وافترضـوا وخمنـوا ، وذهبـوا وجـاءوا ،

واتفقوا واختلفوا ، ثم انتهت كل محاولاتهم إلى فشل ذريع في التصور الكامل لحقيقة الكون وتفسيره تفسيرًا مقبولاً في العقل والنفس ويوضح دور الإنسان فيه وعلاقته به بصورة متناسقة مع ما هو مفطور عليه .

فهناك من استطاع استكشاف الكون ومعرفة قوانينه ونظامه الظاهر ولكنه فشل في تفسير معناه ، وهناك من استطاع تفسير معناه في نفسه وقصر عن إدراك علاقته بالإنسان وعلاقته بالإله عز وجل .

ويقينًا أنه ما من رؤية في تاريخ الإنسانية ولا في مسيرة البشرية الطويلة استطاعت أن تفهم الكون فهمًا شاملاً ، معناه في نفسه ، وعلاقته بالله عز وجل وعلاقته بالإنسان ، ووضع كل منهما بالنسبة للآخر في صورة منطقية مفهومة يقبلها العقل ولا تتقلقل معها النفس ، حتى جاء القرآن فحل لغز الكون وفسر معناه وحدد علاقته بالإله وبالإنسان بما يرضي الإنسان الذي تستقر في نفسه حقيقة الألوهية ، وهي أيضًا مفطورة على المعرفة والتطلع إلى الكون الذي تعيش فيه .

وبهذا التفسير القرآني الجديد استقر لأول مرة معنى الكون ، وأصبح يمكن للإنسان أن يتعامل معه غير موزع الأجزاء ولا مشتت الكينونة كما كان قبل التفسير القرآني ، وكما هو كائن بعده في غير أهله ، إذا اختار الإنسان الألوهية رفض الكون ، وإذا انحاز إلى الكون جحد الإله .

* * *

حقيقة الكون

أول تصحيح في المنهج القرآني للكون هو تفسيره في نفسه كوحدة طبيعية ونظام .

قد يقال : ستدخل بنا في الإعجاز العلمى للقرآن ، ما شأن المعلومات العلمية البحت المتغيرة من زمان إلى زمان بتفسير خاطئ أو صحيح ، وهل ذكر القرآن لحقيقة علمية يعد منهجًا ورؤية ، وهب أن القرآن قدم حقيقة علمية لم تكن معلومة من قبل ، ما فائدتها إذا كانت البشرية لا تستطيع التعامل معها ولا الانتفاع بها إلا حين تصل إليها بنفسها ، فتكون تصديقًا للقرآن لكنها لا يمكن أن تكون تفسيرًا منه قبل أوان اكتشافها في الكون ، لأن من لم يصل إليها فعلاً لا يستطيع فهم المراد منها .

ونقول :

أما عن السؤال الأول : فليس الإعجاز العلمي مقصودنا الآن ومرادنا وأما عن الأسئلة الأخرى مجتمعة فنقول : لا ، ليست كل معلومة علمية هي معلومة بحت وفقط ، بل ثمة معلومات علمية هي في حقيقتها قواعد ومرتكزات كبرى تحكم تصور الإنسان للكون وعلاقته به والمطلوب منه فيه وموقفه إزاءه وعلاقتهما معًا بالإله ، والخطأ في هذه المعلومات المرتكزات والقواعد فادح الآثار في رؤية الإنسان للكون وفي فهمه لنفسه وللإله .

وهذه المعلومات المرتكزات والقواعد هي التي صححها القرآن في المقام الأول ، ليعيد تفسير الكون في عقل الإنسان ، وليوجهه إلى طريقة جديدة في النظر للكون وفهمه والتعامل معه ، ولينشأ علاقة فريدة بين الإنسان والكون لم توجد قبله .

هناك معلومات علمية بحت عن الكون والطبيعة ذكرها القرآن لتكون إشارات إلى صدقه وعلوه على الزمان وإحاطته به ، تنتظر وصول الإنسان إليها لتكون شاهدًا على عصمة الوحي ، وهناك معلومات أخرى هي معلومات وفي الوقت نفسه تفسير وصياغة رؤية جديدة للكون .

فهذه المعلومات هي هدم لنظام وبناء تاريخي عقائدي كامل ، وكشف لزيفه وتلفيقه ، وإعادة تأسيس بناء آخر مكانه ، وهذه المعلومات المرتكزات لا يذكرها القرآن كمعلومات جزئية منفصلة في آية أو أخرى ، بل يجعلها الإطار الجامع لفهم الكون في كل آية يشير فيها إليه .

تكونت نظرة الغرب للكون قبل النهضة والثورة على التلفيق واتخاذ العلم وسيلة لتفسير كل شيء ، تكونت من خلال التراث الفلسفي الإغريقي ، الذي صار مدعومًا بعد المسيحية بسلطة الكنيسة وسلطان باباواتها وقديسيها الذين رأوا في هذه النظرية للكون سندًا ضخمًا لسلطان الكنيسة ، فقاموا بإعطائه صفة قدسية صار بها حقيقة لا يجوز مجرد التفكير فيها ، لأن التفكير معرفة والمعرفة هي نفسها الخطيئة .

هذه النظرة والرؤية للكون بدأت بأفلاطون صاحب الفلسفة المثالية : **« الذي يفرق بين الوجود الصادق وهو الدائم الذي له ما بعده ، وبين ما هو صائر ولكن لا وجود له أبدًا »**[1] .

وبذلك شطر أفلاطون الوجود إلى قسمين : القسم العقلي المطلق الكامل المثالي الطاهر الكائن حقيقة رغم أنه غير موجود ، بل لأنه غير موجود! ، وقسم المادة الزائلة الباطلة التي هي غير كائنة وليس لها وجود في الحقيقة مع أنها موجودة!!

إذًا أفلاطون قسم الوجود إلى عالم الأفكار والمُثل الموجودة ، وعالم المادة المضطربة غير الموجودة ، فالنتيجة النهائية هي الثنائية في الوجود .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ٢٩ .

وجاء أرسطو فكرس الثنائية وجذّرها ، ذلك أنه : « **فرّق بين عالم ما فوق فلك القمر وعالم ما تحت فلك القمر** »[1].

فالعالم الأول هو القسم العلوي من الطبيعة الذي تستقر فيه الألوهية ، وهو السماء غير الفانية غير الناشئة من غيرها ، والتي تتحرك بفضل قربها من المحرِّك الذي لا يتحرك .

وأما العالم الثاني ما تحت فلك القمر السفلي فهو عالم الكون والفساد ، ولأن هذا العالم يقع بعيدًا عن المحرك ، ولأن المحرك يحرك ، أو بعبارة أدق يجذب العالم بشيء : « **أشبه بالقوة المغناطيسية** »[2]، أو كما يجذب الحبيب محبه إليه ، فإن قوة المحرك على تحريك الأشياء تتناسب عكسيًّا مع مقدار بعدها عنه[*].

ولذلك فعالم ما تحت القمر الذي تستقر فيه الأرض : « **نظرًا لبعده الساحق عن مشيئة الإله لا يحظى بنصيب من الحركة** »[3]

فهو ساكن ثابت لا يتحرك .

انتهت الفلسفة الإغريقية إذًا في تصورها للكون إلى تجزئته وتقسيمه إلى كونين أو عالمين متضاربين متنافرين ، يقف أحدهما في مقابل الآخر ، الكون الأول هو الكون المثالي النظري ، السموات والنجوم الأبدية الكاملة الخالدة التي تتحرك بطريقة دائرية سرمدية لا تنتهي هي رمز الكمال ، وهذا الكون هو محل وجود الإله وتأثيره أو هو مجال عمل حقله المغناطيسي!!

والكون الثاني هو الأرض ، أو ما تحت فلك القمر ، الساكن الخامل الثابت الذي لا يتحرك ، لأنه بعيد عن المجال المغناطيسي للإله .

---

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص١١٥ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص١١٣ .

(*) هذه الصياغة من عندنا ، ولاحظ التشابه الشديد بين هذه الفكرة وبين منطوق قانون نيوتن في الجذب العام .

(٣) العقيدة والمعرفة ، ص٤٦ .

بإيجاز : في التصور الإغريقي ثمة مرتكزان أو قاعدتان تحكمان تصور الكون وفهمه وفهم علاقة الإله به وعلاقة الإنسان به وبالإله ، المرتكز الأول هو الثنائية ، الأرض مقابل السموات والنجوم ، وفرع عن هذه الثنائية هو ثبات الأرض وسكونها .

فماذا كان أثر هذا التصور على الإنسان وعلاقته بالكون؟

تفتت الكون وصار الإنسان يعيش كونين أو عالمين مختلفين منفصلين ، عالم أو كون هو فيه ، وكون آخر بعيد عنه ، ولأن الكون صار كونين ، ما يحكم أحدهما ويسري عليه غير ما يحكم الآخر ويسري عليه ، فقد أدى هذا التفتيت للكون ووضعه في صورة مفككة إلى فشل الإنسان في النظر إليه كوحدة واحدة ، ومن ثم إلى فشل في التعامل مع هذا الكون المبعثر ، سواءً بالعلم أو العمل أو التطبيق .

وحين قسم أفلاطون الوجود إلى قسمين أصبح عالم المادة منهما : «غير محدد ومحل تناقضات كثيرة ، فضلاً عن أن الطبيعيات بأسرها لم تعد موضع علم بل ظن»[1] .

فلأن فلسفة أفلاطون المثالية تعتبر أن الأشياء الحقيقية هي المثالية المجردة ، وأن كل تمثل لها في عالم المادة لا يمكن أن يفي بحقيقتها كما هي عليه ، صار الكون والعالم الذي يعيش فيه الإنسان ويراه كونًا وعالمًا غير حقيقي ، هو ظل ، وظل غير مطابق ومضطرب للعالم الحقيقي العلوي المثالي المنظم الذي ليس إلا فكرة غير قابلة للتحقق .

ومرة أخرى أصبح التعامل مع الكون بالعلم أو تطبيقاته أو العمل أو مجرد التفكير مستحيلاً ، بل : «عبث لا يستسيغه العقل» كما قال أفلاطون ، إذ كيف يتعامل الإنسان مع عالم وهمي زائف ومظاهر مادية باطلة وخداعة ،

(١) العلم والاغتراب والحرية ، ص١١١ .

وحتى لو أراد التعامل معه فأنَّى له ذلك وهو كون مضطرب مبعثر لا يسير على نظام واضح أو قواعد ثابتة .

وعضد أرسطو الثنائية حين قسم الكون إلى ما فوق فلك القمر وما تحته ، فصار الكون مبعثرًا مشتتًا إلى وحدات منفصلة لا رابط بينها ، يحكم ما فوق القمر منها الحركة الدائرية السرمدية ، ويحكم ما تحت فلكه السكون والثبات والسلبية ، فتأصل بذلك فشل الإنسان في الربط بين وحدات الكون وإمكانية التعامل معه بالعلم أو العمل أو مجرد التطلع لفهمه ، لأن ما يسري على الكون الذي يعيش فيه الإنسان غير ما يحكم الكون الآخر الذي لا سبيل لمعرفته ولا الوصول إليه .

وحتى الأرض لم يعد ممكنًا أن يتعامل الإنسان معها لا علمًا ولا عملاً ، أولاً : لأنها مادة والتعامل معها هبوط من مستوى الأفكار المجردة والصور إلى حضيض المادة التي هي أخس الموجودات .

ذلك أن أرسطو يرى ، ومن قبله أفلاطون ، أنه : « **كلما ارتقت الموجودات في سلم الوجود زاد نصيبها من الصورة وقل نصيبها من الهيولي . . . والموجودات الخسيسة هي التي تكون هيولي محضًا خالية من كل صورة** »[1] .

وثانيًا : لأن التعامل مع المادة حركة ، والحركة قصور ونقص ، والكمال في السكون ، والاستقرار صفة الكمال في إله أرسطو الذي يحبه الإنجليز لأنه ، كما يقول ديورانت ، يشبه ملكهم ، يملك ولا يحكم!!

نوجز فنقول : الكون قبل المسيحية كان ثنائيًا مفككًا ، يقف في أوضاع متقابلة ، ولا يوجد رابط بين أجزائه ولا قانون واحد يحكمه ، فالنظر فيه عبث ، والعلم به مستحيل ، والتعامل معه قصور لا يليق بالإنسان الذي يريد أن يكون كاملاً .

---

(١) الله ، بحث في نشأة العقيدة الإلهية ، ص١٣٢ .

والنتاج النهائي لهذا هو وقوف الإنسان أمام الكون الموقف السلبي المطلق ، لا يفكر فيه ولا ينظر إليه ولا يتعامل معه ولا يمكن أن يطمح أو يجمح به خياله إلى العلم به ومعرفته ، لأن المثال الأعلى للإنسان هو الساكن الذي لا يفعل شيئًا سوى التفكير المجرد ودون النظر للأشياء ، ولأن الكون مبعثر مفكك بصورة لا تسمح لمن يريد أن ينظر إليه أو يتعرف عليه بذلك .

ثم !

ثم جاءت المسيحية والكون مستقر في العالم الغربي على هذه الصورة ، السموات أبدية خالدة سرمدية الحركة ، والأرض ساكنة في مركز الكون ، والحركة نقص وقصور ، والكمال في التأمل المجرد .

فقام واضعو المسيحية ومؤسسوها باستغلال هذا التصور وهذه الرؤية أبرع استغلال ، بدمجها في الرواية التوراتية لتكوين نظرة إلى الكون والحياة الدنيا تتفق مع ما يريدونه ، ومع التلفيق الذي تم به سد الفجوة وحراستها به .

كانت خطيئة آدم هي أكله من شجرة المعرفة ، فعوقب عليها بخروجه من الجنة ، وانفتح عليه صندوق الشر ، ولم يعد لأحد قدرة على غلقه ، وصندوق الشر هو الكون والدنيا التي فتحت عين الإنسان عليها .

إذًا هي الثنائية مرة أخرى ، أو هي بطريقة معدلة ، عالم الإله في مقابل الكون والطبيعة ، أو عالم الملكوت السماوي في مقابل الكون المادي الأرضي مصدر الشر وباعثه : «**لأننا نعلم أنه إن نقض بيت خيمتنا الأرضي فلنا في السموات بناء من الله ، بيت غير مصنوع بيد ، أبدي ، فإننا نئن مشتاقين إلى أن نلمس فوقها مسكننا الذى في السماء**»[1]

فالأرض خيمة يفصل سقفها بين العالم الأرضي والعالم السماوي ، واكتسبت بذلك النتائج والآثار التي أرساها الإغريق جذورًا عقائدية راسخة ، صار بها

---

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس .

الكون والطبيعة : «**شريرة مادية عفنة ، وهي تعني للبشر شيئًا واحدًا ، وحلاً معوقًا ثقيلاً يشده ويهدده بالابتلاع**»[1].

ولأن العالم شرير وهو وحل عفن فهو ، كما يقول القديس أوغسطين : «**غير جدير بأن يكون موضوعًا لدراسة**»[2]

وما أرساه أفلاطون في فلسفته المثالية من عدم حقيقة هذا الكون المادي وكونه ظلاً للعالم المثالي الحقيقي قعّده وعقّده ، جعله عقيدة ، القديس أوغسطين عندما جعل العالم : «**يحمل معنى خافيًا لأن الله أخفى المعنى الحقيقي للطبيعة**»[3].

ولأن العالم الحقيقي والمعنى الحقيقي للطبيعة خاف وغير ظاهر وهذا الكون مجرد عالم غير حقيقي أصبحت الطبيعة لغزًا غامضًا ولا جدوى من دراستها ، والمعرفة الحقيقية هي الهجرة إلى حياة التأمل .

إذًا هي الأفكار الأفلاطونية الأرسطية كما هي مع تعديلات مظهرية لإضفاء مسحة مسيحية عليها ، أو كما قال شارل جنبيير هو تفريغ التصور والرؤية الإغريقية بحذافيرها في قالب مسيحي .

أما اضطراب الطبيعة ، وعشوائية الكون وعدم انتظامه أو وجود نظام واحد يوحد بين أجزائه ويفسر علاقاته ، الذي كان نتاج الفكر الإغريقي العقلي المحض المستعلي على المادة ، فقد غدا بيئة مثالية وتربة خصبة لإيجاد تفسير مقبول ، وإن كان خاطئًا ، لأثر الإله في الكون سماءً وأرضًا .

فالطبيعة مملوءة بالشوائب كما قال توما الإكويني ، ولأنها مضطربة وغير منتظمة ولا قانون يحكمها ولا نظام واحد تسير به ، فإن : «**كل حادثة في الطبيعة تقرر بواسطة مشيئة تكتشف لإله مقتدر برحمته أو نقمته**»[4].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص٣٥ .

(٢) عندما تغير العالم ، ص٢٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص٣٤ .

(٤) العقيدة والمعرفة ، ص٢٠٣ .

فصارت بذلك الإجابة على أي شيء يحدث في الكون : إنها مشيئة الرب ، وهي إجابة يُعرض عنها الغربي ويسخر منها منذ اكتشف العلم ، أو لو شئنا الدقة منذ استحار العلم ثم اعتضد به ، ولكنها في زمنها كانت مريحة مقبولة ، فكل شيء في الكون والحياة عشوائي ، والإله قادر مقتدر على كل شيء ، فهذه الحوادث العشوائية لا يمكن أن يوجد شيء يفسرها إلا أن تكون مشيئة هذا الإله المطلقة .

وكانت هذه العشوائية التي تم اعتمادها للطبيعة كنظام! فرصة لا تعوض لتكريس السلطان المعنوي والروحي على الأتباع ، إذ بتعديل طفيف ومقبول أيضًا في ظل العشوائية الكونية ، بدلا من أن تكون الإجابة التفسيرية لكل ما يحدث في الكون : إنها مشيئة الرب ، تصير : إنها معجزة البابا أو القديس أو غضبه !!

لذلك ، كما يقول إتين جيلسون : **«كان العصر الوسيط (الغربي) هو عصر المعجزات»**[1].

ونصحح نحن هذه العبارة فنقول : إنه كان عصر تفسير أي شيء بالمعجزات ، وبذلك تكون الفائدة مزدوجة ، فمن جهة تم تفسير ما يحدث بتفسير ليس لأحد أن يتساءل بعده أو يطلب فهمًا وراءه ، ومن جهة أخرى يكتسب البابا والقديس الشرعية والسلطان بقدراته على إحداث معجزات في الكون كمعجزات يسوع .

إذًا استقر الكون في المسيحية الكنسية البابوية على نفس صورته الإغريقية الفلسفية ، مع ترسيخ جذور عقائدية له وإكسابه في ذهن الغرب صفة الحقيقة المطلقة التي لا تقبل المناقشة ولا التساؤل أو المراجعة ، ومن يفعل ذلك فليس إلا خاطئًا مجرمًا يريد أن يفتح صندوق الشر ويكرر خطيئة المجرم الأول التي ورثها الجميع وهم فى عقاب دائم على الأرض بسببها .

---

(١) إتين جيلسون : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ص ٤٢٦ .

ثم !

استعلن الله من جبال فاران ، وأشرقت شمس القرآن على هذه الدياجير ، لتطيح بكل هذا الهراء وتعيد رسم خريطة الكون وتفسير حقيقته أمام الإنسان ، ولكي تنزع منه العشوائية والمصادفة وتسييره بالعفاريت ومعجزات البابوات والقديسين ومشيئة الرب المفترى عليها ، جاء التفسير القرآني للكون ليعيد ترتيب أوضاعه وتفسير علاقة أجزائه ببعضها ، وليربط بينها ، لتعطي الكون معنى مفهومًا مقبولاً يتناسق فيه وجود الإنسان ويستطيع أن يتعامل معه ويستقيم فيه وضع الكون بالنسبة لخالقه .

أول انقلاب جاء به القرآن على كل هذه الخزعبلات ليعيد تصحيح صورة الكون وتفسيره ، هو أن الكون كله وحدة واحدة مترابطة وليس أجزاءً مفرقة مبعثرة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ (الحجر:٨٥)

فهذه الآية اليسيرة القصيرة التي يقرأها كل مسلم ، وربما لا يعي ما فيها تنسف كل ما كان في أذهان البشر عن الكون قبل شروق شمس القرآن .

فالكون حق وحقيقة وليس باطلاً ولا وهمًا ولا خداعًا ، ولا هو ظل لعالم وهمي غير موجود ، بل هو في نفسه حق وحقيقة .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ﴾ (ص:٢٧)

والسموات والأرض وحدة واحدة مترابطة ، خلقهما الله عز وجل كونًا واحدًا لا أشلاء مبعثرة ، وما يذكر القرآن السماء إلا ومعها الأرض ، فكأنه يرد على ما كان سائدًا قبله ، وظل سائدًا بعده في غير أهله إلى أن اقتبسوه منه .

فالسموات والأرض في القرآن وحدة واحدة في الفعل تطيعان لأمر الله معًا .

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١).

والسموات والأرض تغضبان معًا .

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (مريم: ٩٠، ٩١)

وآيات الله عز وجل في السموات والأرض معًا .

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف:١٠٥)

فالكون كله ، سماءً وأرضًا ، هو كون واحد متجانس متناسق موحد لا كونين ولا عالمين ، وإذًا فالتفسير القرآني للكون يهدم التصور والرؤية الإغريقية المسيحية الكنسية للسموات مقابل الأرض ويجعلها هباءً منثورًا .

وهذا الكون الواحد المتجانس في القرآن ، غير المنفصل ولا الممزق ولا المتقابل ، ليس ثابتًا ولا ساكنًا ولا خاملاً ، بل هو في حركة دائبة مستديمة لا تنقطع .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (الأنبياء:٣٣)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم:٣٣)

وهذا الكون الواحد الموحد الذي تتحرك فيه الأفلاك حركة دائبة ، لا يستأثر جزء منه بالله عز وجل دون جزء ، بل هو عز وجل ربه بكل ما فيه ، سماءً وأرضًا .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنعام:٣)

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:١١٥)

والله عز وجل يملك العالم ملك هيمنة وسيطرة وقدرة نافذة ، لا قوة مغناطيسية وهمية يحركه بها دون إرادة فاعلة .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ (المائدة:١٧)

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢)

وهـذا الكـون يعمـل بصـورة منظمـة مستقرة لا خلل فيها ولا اضطراب ولا عشوائية ، بل هو نظام محكم مستقر .

﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ (الملك:٣)

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ (يس:٤٠)

إذًا تفسير القرآن الجديد للكون وإعادة صياغة تصور الإنسان له هو أن الكون حقيقي وليس وهمًا ، واحد وليس متعددًا ، متجانس متكامل وليس متقابلاً ، متصل وليس منفصلاً ، متحرك وليس ساكنًا ولا ثابتًا ، منظم محكم وليس مضطربًا ولا عشوائيًا .

إذًا نؤكد ما قلناه سابقًا ، ما أتى به القرآن ليس مجرد معلومات أو حقائق علمية عن الكون ، ولكنها تصحيح لفهم الإنسان لحقيقة الكون وأوضاعه وعلاقات أجزائه ، وهو تفسير جديد للطبيعة لم يكن معروفًا قبل القرآن ، أخرجها به من صورتها الكئيبة التي وضعتها فيها الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي المعدل عنها إلى صورة جديدة ، لها وضعها ومكانها المفهوم في النسيج القرآني الذي يجعلها جزءًا متناسقًا من الوجود ، له معنى ووظيفة ، وللإنسان علاقة به غير احتقاره والفرار منه .

* * *

الإله والكون

قد يقال : نعم ، القرآن جاء بتفسير جديد للكون وصياغة غير مسبوقة له ، فجعله وحدة واحدة متناسقة الصورة مترابطة الأجزاء منظمة متحركة ، ولكن ماذا فى ذلك ، فقد وصل الغرب إلى النتيجة نفسها حين خلع الرداء الإغريقي الكنسي الذي كان يرتديه واتخذ العلم وحده هاديًا ومرشدًا .

ونقول : هذا التفسير الحقيقة الجديدة الذي جاء به القرآن للكون ونظامه ليس هو كل التفسير القرآني للكون ، بل إننا قلنا : إن التفسير الجديد للكون في القرآن ذو ثلاثة محاور أو خيوط متداخلة متآزرة يتكون منها معًا هذا النسيج التفسيري ، وقلنا : إنه ما من أحد في تاريخ البشرية ، لا قبل القرآن ولا بعده وحتى هذه اللحظة ، استطاع أن يجمع هذه المكونات الثلاثة معًا في تفسير مفهوم للعلاقة بينها ، وفي صورة تكون بها مقبولة في الذهن والنفس .

نعم . استطاع الغرب أن يصل بالعلم إلى معرفة حقيقة الكون كوحدة طبيعية ونظام ، ونسرد القصة بإيجاز .

الوضع الذي استقر عليه الكون والطبيعة كأجزاء مفككة متقابلة متضاربة ، بعضها ساكن لا يتحرك وبعضها متحرك لا يسكن ، وما يحكم هنا غير ما يحكم ذاك ، ولا صلة للإنسان ولا علاقة له بالاثنين معًا لأن أحدهما بعيد عنه والآخر شيء حقير أو شر لابد أن ينفر منه ، هذا الوضع ما كان ليستمر ولا ليصمد مئات السنين إلا بظهير من الجهل المطلق بحقائق الكون ، وبفهم مغلوط ، وبالحجاب الكثيف الذي تكفل التلفيق وما قام عليه من بناء بإيجاده وتغذيته وإحاطته وتسويره وحراسته ، ولكن حدث ما لم يكن منتظرًا ولا في

الحسبان : «**جاءت لحظة تاريخية مذهلة في تاريخ الغـرب حـين سـقطت طليطلة ليكتشف كنوز المعرفة العربية**»[1].

وعندنا أنه أهم من كنـوز المعرفـة العربيـة اكتشـف الغـرب المـنهج القرآنـي الذي تحمله هذه المعرفة كتطبيق له فـي التعامـل مـع الكـون ، النظـر والبحـث والرصد والتجربة لا التأمل الحالم وبناء كون نظري وهمي لا علاقة لـه بـالواقع ولا بالأحداث الكونية المرئية التي كان الإغريقـي ومـن بعـده المسـيحي يراهـا بعـيني رأسـه ثـم يعتبر أنهـا لم تحـدث ، هـذا العلـم الـذي : «**لم ينشـأ لـدى المصريين والبابليين واليهود والروس ، بل ولا في فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وهولندا ، باستثناء واحد ، إنه ذلك العربي ، العرب الذين حرص البعض على نفي كل مساهمة لهم في العلم ، هم ، بفضل خصوصية بنائهم الفكري ووسائلهم المطردة قدموا شرارة الانطلاق الأولى**»[2].

ولم نورد هذا الاقتباس إلا مـن أجـل : «**حـرص الـبعض علـى نفـي كـل مساهمة لهم في العلم**» ، و : «**خصوصية بنائهم الفكري**» ، أي : القرآني .

فالغرب لم يخرج من القمقم إلا بمعرفته للمنهج القرآني ونقلـه في صـورته التطبيقية ، واكتشف الغرب بالمنهج الجديد الذي لم يكن له عهد بـه ولم يعرفـه قبل احتكاكه بالمسلمين ، الملاحظة والرصد ، أن حركة الكواكب لا تستقيم مع التصور الأرسطي للكون ، فاقتراح كوبرنيكوس[*] نموذجًا جديدًا تكون الشـمس

---

(١) عندما تغير العالم ، ص٤٨ .

(٢) العقيدة والمعرفة ، ص٢٣٥ .

(*) ذكر المستشرق ديفيد كنج ، في : قاموس الشخصيات العلمية ، أن الفلكي المسلم ابن الشاطر الدمشقي ، مؤقت الجامع الأموي في دمشق ورئيس مؤذنيه ، هو واضع النموذج الشمسي ومبتكر فكرة دوران الكواكب حول الشمس ، وأن كوبرنيكوس استمد آراءه المنسوبة إليه من بحوث ابن الشاطر ، وفي منتصف السبعينيات اعترف الرئيس البولندي هنريك يابلونسكي ، وهو يفتتح متحف كوبرنيكوس البولندي ، ويزيح الستار عن تمثال له ، أن اثنين من العلماء العرب كان لهما أثر كبير في وصول كوبرنيكوس إلى نظامه الشمسي ، وهما ابن الشاطر الدمشقي وأبو عبد الله البتاني .

فيه هي المركز والكواكب تتحرك من حولها ، وبعده بما يقرب من ستة عقود أكد مرقاب أو تلسكوب جاليليو صحة نظرية كوبرنيكوس .

وتوالت جهود الفلكيين والرصدة ، إلى أن جاء إسحق نيوتن ووضع تصوره ونموذجه للكون في قوانينه الثلاثة المشهورة للعلاقة بين الكتل والأجسام ونظرية الجذب العام(*) التي طور فيها نيوتن واحتوى كل إنجازات السابقين قبله ، وخرج بالتوحيد الكوني المطموح إليه .

فبهذه القوانين وهذه النظرية وحّد نيوتن الكون كله وجعل الأجرام كلها ، والأرض بينها ، كونًا واحدًا يخضع لنظام واحد متناسق متجانس ، فوصل العلم الغربي بالتراكم وعلى مدى مئات السنين إلى التفسير القرآني للكون وحقيقته .

ونقول : بل إن الغرب لم يصل إلى شيء من التفسير القرآني على الإطلاق ، لأن التفسير القرآني ، كما قلنا ، نسيج متجانس متكامل لا بلبلة فيه ولا اضطراب ، وهو ليس تفسيراً لحقيقة الكون فقط ، وإنما هو تفسير شامل لحقيقة الكون ولعلاقة الكون في صورته الحقيقية هذه بالإله وبالإنسان .

جاءت الثورة العلمية على اللاهوت والتفكير الأفلاطوني الأرسطي الأوغسطيني ، فوصل الغرب إلى اكتشاف حقيقة الكون من مظاهره وحركة أجرامه ، لكن بينما كان الغرب يحل عقدة الكون كان يعقد عقدة أخرى ، اكتملت حبكتها مع اكتمال حل العقدة الكونية ، فخرج الغرب بذلك من مشكلة إلى مشكلة أعوص ، وحل عقدة الكون بعقد عقدة أخرى !

(*) ١- نظرية الجذب العام : كل جسمين متجاورين يتجاذبان بقوة تتناسب طرديًا مع حاصل ضرب الكتلتين وعكسيًا مع مربع البعد بينهما ، ٢- القانون الأول : كل جسم يظل على حالته من السكون أو الحركة ما لم تتدخل قوة مؤثرة خارجية تغير من حالته ، ٣- القانون الثاني : إذا أثرت قوة على جسم فإنه يتحرك في نفس اتجاه القوة مسافة تتناسب طرديًا مع مربع القوة الواقعة عليه ، ٤- القانون الثالث : لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه .

كيف؟

في المسيحية الإغريقية كان الكون مبعثرًا مفككًا وأحداثه عشوائية ، لكن وضع الإله فيه كان مريحًا مقبولاً ، فالأحداث العشوائية تفسرها مشيئة الإله المطلقة ومعجزات البابوات والقديسين ، والكون المفكك المجزء هو هكذا لأن الإله يوجد في جزء منه دون جزء ويحركه بقوة جذب وليس بإرادة عند أرسطو ، أو هو في ملكوت سماوي علوي بينما الأرض ثابتة منفصلة عنه في المسيحية ، لأنها لُعنت بسبب آدم وخطيئته ، وما يسري عليها غير ما يسري على الملكوت السماوي .

والآن اكتشف الغرب حقيقة الكون وأنه واحد ، أرضه مثل غيرها من الكواكب ، مثل شمسه مثل غيرها من النجوم ، كلها كتل متحركة يحكمها قانون واحد ونظام واحد ، فأين العقدة الجديدة إذًا التي تكونت بحل العقدة القديمة؟

ما هو دور الإله في هذا الكون؟

المشكلة هي أن وضع الإله قد صار قلقًا في الكون الجديد ، فإذا كان الإله قادرًا قدرة مطلقة فلابد أن يكون قادرًا على أن يفعل أي شيء متى شاء ، ولكن الكون منظم دقيق يحكمه نظام صارم وقانون لا يختل ولا يتخلف .

هذه هي العقدة : كيف يمكن تفسير وجود الإله وطلاقة قدرته في ظل الكون الجديد الواحد الموحد الذي يعمل بنظام واحد صارم وقانون محكم؟!

إذا قيل إن الإله قادر وجب أن يكون الكون مختلاً وحوادثه عشوائية تبعًا لمشيئة الإله ، والكون غير مختل ، وإذا قيل إن الكون تسيره قوانين محكمة ونظم ثابتة ، كيف ، أين إذًا مشيئة الإله ، ناهيك عن أين معجزات البابوات والقديسين التي كانت تقع كل يوم؟

لابد من تفسير يستطيع الإنسان الذي أصبح عاقلاً وله نفس تطلب الفهم أن يفهمه ويقبله ، كيف يكون الإله موجودًا مطلق القدرة نافذ الإرادة ، وفي الوقت

نفسه يكون الكون منظمًا ويعمل بصورة دقيقة صارمة لا تتخلف ويبدو في حركته وقوانينه وكأنه مستغنٍ عن الإله؟

هذه هي العقدة التي حبكها حل العقدة الأولى ، وهي العتبة التي وقف فيها الحمار الغربي ولم يستطع أبدًا اجتيازها .

وأخذ الغرب يخبط خبط عشواء في كل واد بحثًا عن إجابة يحل بها العقدة الجديدة ، فمن قائل مثل ما قال توما الإكويني ، القديس الذي اضطر للانحناء أمام رياح العلم والقانون الصارم للكون : **«هناك قائمة من الأشياء لا يستطيع الرب أن يعملها»**[1]!!

ومن قائل مثل اسبينوزا : **«الإله هو الطبيعة ، والكون يسير بنظام دقيق وقانون صارم لأن الإله قد حل فيه ، فالإله والطبيعة شيء واحد»**[2].

ولم يجد البعض تفسيراً يستطيع أن يفهم به كيف تكون الطبيعة متسقة منظمة ، دقيقة صارمة ، تعمل كالآلة الميكانيكية التي تبدو وكأن لا أحد يتدخل في عملها ولا أوامر تصدر لها من خارجها ، إلا بالاكتفاء بالكون نفسه ، فهو النظام وصانعه ، وهو القانون وواضعه ، وهو الموجود وواجده ، فانتهى الأمر إلى إلغاء الألوهية مطلقًا وإعلان موت الإله في عصر العلم كما قال نيتشه .

ولأن الألوهية حقيقة في وجود الإنسان وكينونته ، استطاع بعضهم إيجاد تفسير أخف وطأة على العقل وأقل طحنًا للنفس الإنسانية ، وهو أن الإله خلق الكون ثم تركه وانفصل عنه ، فالكون يسير كالساعة التي صنعها صانعها ولا حاجة بها إليه بعد ضبطها وبدء سيرها .

ولم يستطع أي من هذه التفسيرات المبتورة المشوهة أن يرضي العقل ولا النفس البشرية ، فكان رد الفعل عليها في الجانب الآخر أزمة العقل ونزعة العداء له ، وإنكار الطبيعة التي سوف يؤدي الإيمان بها إلى إنكار وجود الإله ،

---

(١) عندما تغير العالم ، ص٦٩ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص ٢٠٥ .

والثورة على كل منجزات العلم الغربي الذي لم يزدد البشر به إلا شقاءً ونصبًا كما قال جوته .

وقف الحمار الغربي إذًا في العتبة لا يعرف كيف يحل المشكلة ، كيف يكون الإله قادرًا مطلقًا والطبيعة منظمة محكمة ، كيف يصل إلى تفسير للكون وعمل للطبيعة وعلاقة له ولها بالألوهية لا يكون الإله فيه عاطلاً ساكنًا عندما تعمل قوانين الطبيعة والأسباب الطبيعية مختلة عندما يعمل الإله؟

ولم يصل الغرب إلى الإجابة حتى الآن(•) ، لأنه لا سبيل له إليها إلا من الإله نفسه وبوحي معصوم لا تتطرق إليه أوهام البشر ولا تلتبس به تحريفاتهم وضلالات عقولهم .

هذه المسألة المعضلة والعقدة التي اعتاصت فيها أعاظم العقول في الغرب منذ افتضح أمر التلفيق وتم اكتشاف حقيقة الكون ، وتاه فيها الفلاسفة وحاروا ، وقامت لحلها المذاهب والمذاهب المضادة ، هذه المعضلة التي لا حل لها ، حلها القرآن في يسر وبساطة ، بساطة الحقيقة التي هي أخفى الأشياء عن الذهن الذي لا يعلمها .

الله عز وجل مطلق القدرة لا يحد قدرته شيء .

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف:٤٥)

وهو عز وجل قادر على فعل أي شيء يريده في كونه وخلقه .

﴿ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (مريم:٣٥)

وكل ما يحدث في كونه بإذنه وأمره .

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ (الأعراف:٥٨)

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ (إبراهيم:٢٥)

• انظر على سبيل المثال : فرانكلين باومر : الفكر الأوروبي الحديث ، الاتصال والتغير والأفكار ، جـ ٤ ، فصل احتجاب الإله .

ولكن شاءت إرادته عز وجل أن يخلق كونه ويسيره لحكمة منه بنظام دقيق.

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر:٤٩)

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان:٢)

وجعل الله عز وجل لكونه وفي خلقه قانونًا محكمًا يحكم حركته وعلاقاته واجتماعهم.

﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:٤٣)

إذًا فالله عز وجل موجود مطلق القدرة، والكون محكم في تركيبه، والطبيعة منظمة دقيقة في سيرها، والله عز وجل هو الذي أوجد هذا النظام والإحكام فيها، ووجوده يتوقف عليه عز وجل.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (فاطر:٤١).

﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ (الحج:٦٥).

فأين المعجزات؟

المعجزة موجودة، وتفسيرها مفهوم مقبول في العقل والنفس ولا يتناقض مع نظام الطبيعة وإحكامها، لكنها المعجزة في مفهوم الإسلام وليست تهاويل الكنيسة.

فالله عز وجل مطلق القدرة أمره نافذ في كونه، ولكنه عز وجل جعل فيه سننًا وقوانين ونظامًا، وهو عز وجل يخرق هذا النظام حين يرسل رسولاً بوحيه ورسالته، ليؤيده بآية أمام قومه تكون علامة ودليلاً على القوة المهيمنة والقدرة المطلقة التي أرسلته.

ولأن المعجزة هي: «أمر خارق للعادة»، فوجود المعجزة وتعريفها الإسلامي الدقيق هو تأكيد لوجود القانون والنظام الذي تخرقه وليس إلغاءً له، وهذه المعجزة لأنها أمر خارق للعادة، أي للنظام والقانون والسنن، فهي

لا تقع كل يوم ، وإلا لمَا كان ثمة سنن ولا نظام ولا قانون ، ولمَا كانت المعجزة نفسها خارقًا وبرهانًا على القدرة المطلقة .

ما نريد أن نقوله ، هو أن التفسير القرآني لعلاقة الكون بالله عز وجل احتوى المعجزة ، فأصبحت مقبولة داخله ومفهومة في العقل والنفس كخرق للنظام والقانون تأييدًا لرسول أو نبي وبيانًا لطلاقة القدرة الإلهية ، وليس لتسيير الكون بها .

فليست المعجزة نهبًا مستباحًا لكل من هب ودب ، قديسًا أو بابًا ، وفي كل أسبوع وفي كل يوم ، فتكون النتيجة كونًا عشوائيًا ، كل شيء فيه يحدث بالصدفة أو حسب رغبة البابا .

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام نفسه في المنهج القرآني ليس في قدرته أن يأتي بهذه المعجزة من عند نفسه ولا برغبته وإرادته ولا حين يشاء ، بل هي أمر إلهي محض متعلق بطلاقة القدرة الإلهية ولا دخل لبشر فيه ، ولا حتى النبي الذي تظهر على يديه .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (غافر:٧٨).

وفي الوقت الذي كان يحرص فيه كل دجال في الغرب أن يؤكد قدرته على صنع المعجزة ويأسر أتباعه بنسبة ظواهر الكون وأحداثه إلى قدراته ومعجزاته ، كان محمد رسول الله المؤيد بالوحي والمعجزات الفعلية يعلم أصحابه في حسم أن الكون يسير بنظام وقانون لا يختل بإرادة بشر ولا من أجله .

«الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته»[(١)]

وفي الوقت الذي كانت تدعي فيه الكنيسة والبابوات معرفتهم لكل شيء ويقومون بتفسير ما يفهمون فيه من ظواهر الطبيعة ومالا يفهمون ويكسبونه

---

(١) رواه مسلم .

عصمة زائفة ، كان أبناء المنهج والمنظومة القرآنية يقفون عند آياته فيفسرون وينقلون المعارف التي وصل إليها عصرهم وينسبون كل قول أو تفسير لصاحبه ، ثم بعد ذلك يفوضون العلم الحقيقي إلى الله عز وجل ، ويقرون بقصورهم عن فهم الآيات الكونية في القرآن ويقولون مع الإمام الطبري هذه الجملة التي ينبغي أن تكتب بمداد من نور على صفحة السماء ، لتظل شاهداً دائمًا للبشرية على النقلة الحضارية التي جاء بها القرآن وصنع بها أهله .

«ونقف عند ما لا علم لنا فيه»

إذًا حل القرآن العقدة واللغز الذي مازال الغرب يبحث عن حله ، الله عز وجل قادر مقتدر والطبيعة منظمة دقيقة ، لأن الله عز وجل أراد لها ذلك ، وهذا النظام والإحكام نفسه متعلق به هو عز وجل ، فهو الذي يحفظه ويقوم عليه .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ ﴾ (البقرة:٢٥٥)

والمعجزة خرق لهذا النظام والقانون بأمر الله عز وجل وحده ولمهمة محددة ، يعيد عز وجل بعدها النظام والقانون والدقة ليسير بها الكون والخلق .

تفسير مريح مقبول لا تضارب فيه ولا قلاقل ، ومع ذلك نقول : هذا التفسير يصبح شاملاً نسيجًا فريدًا وحده ، غير مسبوق ولا ملحوق ، ولا شيء في تاريخ البشرية يشبهه أو يقاربه ، بإضافة الخيط الثالث الذي يشد النسيج ويحكمه .

هذا الخيط الثالث هو : لماذا؟!

* * *

الإنسان والكون

قد يقع البعض في وهم السذاجة ، وهو يرى التفسير القرآني البسيط السلس الذي لا تعقيد فيه ويبدو وكأنه بديهة ، فيظن أن المسألة هنية وحلها يسير .

ونقول : لا ، فالتفسير القرآني بسيط سلس لأنه الحقيقة التي لا تعقيد فيها ، أما ما وراء هذه البساطة البادية فبعيد الغور عسير المنال ، فهذا التفسير يحتوي في داخله الإجابة على كل الأسئلة التي خطرت في عقول البشر ، منذ وجدوا وحتى الآن وإلى يوم القيامة ، عن حقيقة الكون وطبيعته ونظامه وموضعه من الإله وأثر الألوهية فيه .

فهذه بساطة مزارها قريب لكن دون ذلك أهوال كما قال أبو العلاء المعري .

ونعود إلى الخيط الثالث الذي يكون به التفسير القرآني نسيجًا محكمًا فوق طاقة البشر أن يصلوا إليه أو أن ينسجوا مثله .

لماذا ؟!

لماذا خلق الله عز وجل الكون منظمًا محكمًا يسير بنظام دقيق وقانون محكم؟

سؤال عجيب!! ، ولكن خيوط التفسير القرآني تستوعب كل سؤال يمكن أن يرد على عقل بشر أو يدور في نفسه .

إذا كان الله عز وجل مطلق القدرة نافذ الإرادة ، إذا أراد فَعَل ، وما أراد كان ، فلماذا لم يخلق عز وجل الكون على الصورة التي رسمها له الإغريق وورثتها المسيحية ، لماذا فعلاً لم يخلق الله عز وجل الكون عشوائيًا يسير بمشيئته المطلقة وتقع حوادثه وظواهره بإرادته وحدها دون نظام أو قانون ، لماذا جعل الله عز وجل للكون نظامًا وقانونًا ، وما الحكمة في ذلك ؟

قد يقال : هذه إرادة الله وتلك إرادة الله ، وما أراده الله كان .

نعم . هذه إجابة مقبولة ، فالله عز وجل مطلق في إرادته وما أراده لتسيير كونه وخلقه كان ، فهو عز وجل : ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٣).

وقد يقال : إن النظام والقانون والإحكام جمال ، والتفكك والبعثرة قبح ، والله عز وجل لا يخلق شيئًا إلا على صورة الجمال .

وهذه أيضًا إجابة صحيحة ، فالكون المنظم الدقيق المتناسق جمال ، والكون المبعثر المشتت قبح ، فإذا كان الله عز وجل قادرًا على خلق الكون هكذا وهكذا ، فخلقه على صورة الجمال أجمل وأولى بالخالق العظيم .

ويبقى التفسير القرآني هو الشمل والأكمل ، يحتوي ذلك كله ويجعله جزءًا من نسيج يشد بعضه بعضًا .

الحكمة في أن الله عز وجل خلق الكون كله على نظام واحد متناسق وبقانون صارم دقيق هو الإنسان وعلاقته بالكون .

فالله عز وجل خلق الكون ليكون مكانًا لاستخلاف الإنسان فيه ، فالإنسان هو خليفة الله عز وجل في أرضه وكونه الظاهر أمامه ، وهذا الإنسان الخليفة لا يملك قدرات الخالق الذي استخلفه ، فقدراته محدودة وعلمه مقيد وسلطانه جزئي ، لذلك اقتضت حكمته عز وجل أن يجعل الكون على الصورة التي تمكِّن الإنسان المستخلَف من التعامل معه والعلم به والسير فيه والاعتبار منه .

فالإنسان الخليفة المستخلَف من الله عز وجل مطالب بالسعي في الكون طلبًا للرزق وحفظًا لحياته ونوعه ، ولأن قدراته محدودة جعل الله عز وجل الأرض له ذلولاً ممهدة منظمة حتى يمكنه أن يتعامل معها ويستخرج رزقه منها .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(الملك:١٥)

وهذا الخليفة له سلطان في الكون كله ، وهو مسؤول عنه ومحاسب عليه ، وهو مطالب بالحفاظ على الكون والمخلوقات واستخدامها في حدود مهمة الخلافة ، وهذا يقتضي منه العلم بالكون وفهمه لتحقيق مهمته فيه ، ولأن علمه محدود بقدراته القاصرة جعل الله عز وجل الكون على الصورة التي تتناسب مع وسائل معرفته وإدراكه ، فجعله منظمًا منسقًا مرتبًا لأنه لو لم يكن على هذه الصورة لتوقف كل سعي للإنسان في الكون وكل علم له به ، ولانبتت العلاقة بينه وبينه ، وإذًا لانتهت مهمته الاستخلافية قبل أن تبدأ .

فالكون منظم موحد يسير على قانون حتى يتمكن الإنسان من فهمه وتفسيره واستغلاله كما أراد عز وجل له .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (لقمان: ٢٠)

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٤)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾

(الجاثية: ١٢، ١٣)

فلو لم تكن السموات والأرض والبر والبحر مسخرة للإنسان مجعولة له على صورتها المنظمة المريحة التي تمكنه من السير والبحث فيها والتعامل معها ، لخرجت كلها عن طوعه وارتفعت عن قدرته ، ولما كان له سلطان عليها ، ولما كان له حياة ولا وجود على الأرض .

وحين يخرج الإنسان على الخالق ويتمرد على مهمته وعلى خالقه بما يخرج على حدود تقويمه ، يخرج الله عز وجل الكون عما اعتاده الإنسان عليه ويرفع منه أمر التسخير والتذليل والانتظام ، فلا يكون في مقدور الإنسان أن يتعامل معه مهما حاول ، لأنه لا يتعامل معه بقدراته وإنما يتعامل معه بتسخيره وتنظيمه المضبوط على قدر علمه وقدراته .

فإذا ارتفع أمر التسخير ارتفع الكون عن طاقة الإنسان وخرج عن حدود قدراته ، فالماء مصدر حياة الإنسان وباعث النماء في الكون على صورته التي هو عليها : عيونًا وأمطاراً مهذبة مطوعة ينهل منها الإنسان ويأكل مما تنبت .

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ (النحل:١٠، ١١)

فإذا تمرد الإنسان أذن الله عز وجل للماء بترك أمر التسخير والانتظام المتناسب مع طاقته ، فيكون فيه هلاكه وفناؤه .

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ (القمر:١١، ١٢).

والبحر الهادئ الساكن المسخر للإنسان ، يحمل عليه الفلك ويستخرج منه طعامه وزينته .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤).

هذا البحر الوديع الهادئ يثور بارتفاع أمر التسخير والقانون الذي يحكمه فيكون إغراقًا وإفناءً .

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ﴾ (البقرة: ٥٠)

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ (الإسراء:٦٩).

والأرض الذلول المسخرة لرزق الإنسان ومنافعه ، إذا عق وجحد ووصل به استكباره إلى الاستعلاء على خالقه ، رُفع أمر التسخير والنظام عن الأرض فتكون خسفًا يجعل المستكبر خبراً لا أثر له .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ (القصص:٨١).

والرياح المسخرة المضبوطة على قدر حاجة الإنسان منها ، تدفع السحاب وتأتي له بالماء .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (فاطر:٩).

وهي التى تقوم بمهمة التلقيح وحفظ النماء والنبات في الأرض .

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر:٢٢).

هذه الرياح السلسة المذللة على قدر ما يستطيع الإنسان الانتفاع بها في مهمته على الأرض ، هي نفسها إذا خرج الإنسان عن مهمته خروجًا لا تقويم له ، يُخرجها الله عز وجل عن النظام والتذليل الذي أوجدها فيه ، فتصير قصفًا ودمارًا لاحد له ، ولا قدرة لمخلوق على الصمود أمامه .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ (الذاريات:٤١-٤٢).

وبعد أن تنتهي مهمة الإنسان الاستخلافية على الأرض وفي الكون ، يُرفع النظام ويطوى الإحكام ويبعثر الكون كله ، لأنه ما جُعل منظمًا دقيقًا محكمًا إلا ليكون في نطاق قدرة الإنسان على التعامل معه علمًا وعملاً .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

(الحاقة:١٣-١٦)

نعود فنقول : الله عز وجل خلق الكون محكمًا ، وسيَّره على نظام دقيق وقانون ثابت ، لأنه ليس في طاقة الإنسان أن يتعامل معه علمًا وعملاً وقيامًا بوظيفته فيه ، في حدود قدراته الجزئية القاصرة ، إلا وهو على هذا النظام وبهذه الدقة ، فعلم الإنسان بحث عن قانون أو نظام ، ولأن هذا العلم محدود وليس محيطًا ولا شاملاً ، فلو كان الكون بلا نظام وقانون وإحكام لما كان

للإنسان علم ولا استطاع فهم أي شيء في الكون ، بدءًا من لماذا وكيف تبيض الدجاجة إلى كيف تتحرك النجوم والكواكب .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥)

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (الإسراء:١٢)

وعمل الإنسان يتطلب قانونًا ونظامًا ثابتًا يكون في مقدوره فهمه وتصميم حياته عليه ، حتى تكون مستقرة غير متقلقلة ولا مضطربة أو هائمة ، من أبسط الأشياء إلى أعظمها ، بداية من البذرة التي يرميها في الأرض ويعرف أن النظام الثابت والقانون المنتظم سوف يجعلها تنبت وتثمر ، إلى إطلاق القمر الصناعي الذي يحسب له مداره ويعلم أنه سيدور فيه لأن النظام دائم لا يتقلقل والقانون لا يتغير .

ولو لم يكن الكون بهذا النظام والثبات والدقة ، لما ألقى فلاح بذرة في أرض قد تنبت وقد لا تنبت ، ولما أطلق الإنسان قمرًا صناعيًا في فلك لا يعلم إن كان في اللحظة التي سيصل إليه فيها على الوضع الذي كان فيه أم لا ، ولما وصل الإنسان إلى صناعة مثل هذا القمر ابتداءً .

هذا النظام وهذا الإحكام وهذه الدقة هي إذًا مفتاح الإنسان الخليفة للتعامل مع الكون الذي هو مستخلف فيه .

هذه واحدة .

وأما الثانية ، فهي أن هذا الخليفة ضعيف تغلبه أهواؤه وشهواته ، وهو دائمًا عرضة للانحراف بوساوس الشيطان ، عدوه الذي يترصد له ، أو باضطرب عقله في الفهم أو بهوى نفسه وما تميل إليه ، لذلك تكفل عز وجل أن يرسل له رسلاً يعرفونه الحق إذا زاغ عنه ، ويعيدونه إلى الصراط المستقيم والأصل الذي بدأت به ومنه البشرية إذا حاد عنه ، ويعيدون تصحيح ما صنعته ضلالات البشر

وأوهامهم ، ويقومون بتفسير ما غمض عليهم أو خفي عنهم أو تلبس في أذهانهم من حقائق عن الله عز وجل وعن الإنسان والكون الذي يعيشون فيه .

فاقتضت حكمته عز وجل أن يكون الكون منظمًا محكمًا دقيقًا بديعًا ، لكي يكون دالاً بنفسه وبنظامه على الذي يقوم على نظامه ويحفظه ، لأنه لو لم يكن الكون على هذا النظام المحكم وهذه الدقة لما كان للإنسان علم ، ولما كان للكون عنده أي دلالة خلف بعثرته ، إذ هو لا يستطيع التعرف عليه أصلاً .

أما والكون منظم محكم ، فالإنسان قادر على التعرف عليه والعلم به والوصول إلى ما يحكمه من نظام ، سواء عرف القانون أو جهله ، فيكون علمه بالنظام البادي ثم وصوله بعد ذلك إلى القانون الساري دليلاً على هذا الإله الخالق الواحد الأحد الذي يسير كل شيء في كونه بنظام واحد وقانون محكم .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

ولو لم يكن الأمر هكذا ، رحمة من الله بعباده ، لحق للإنسان أن يلتبس عليه أمر الكون ويتوهم إدارته وتسييره بآلهة متعددة ، كلٌّ ينفذ إرادته في جزء من الكون أو في نطاق نفوذه عليه وسلطانه فيه .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٤٢).

هذه هي إجابة السؤال : ما هي الحكمة في أن الله عز وجل خلق الكون بهذا النظام والثبات والإحكام والدقة ، الإجابة التي يلتئم بها نسيج التفسير القرآني للكون ، فلا يكون فيه منفذًا ولا ثغرة غير مفهومة ولا مقبولة أو غير متوافقة مع العقل والنفس .

وهذا النسيج هو الذي تنفك به جميع عقد الكون وتنحل ألغازه ، وتستبين أمام الإنسان حقيقته وتفسيره ومعناه وموضعه من الإله ووضع الإنسان فيه .

* * *

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الكون
على فهم الإنسان له وصلته به

آثار التصحيح القرآني لحقيقة الكون في نفسه ، ولعلاقته بالله عز وجل وبالإنسان ، بادية ظاهرة بنفسها حين توضع إلى جوار ما كانت عليه البشرية خارج فيئه وظلاله وما زالت .

ونوجز هذه الآثار والنتائج مجملة :

١- الكون بمادته حق وحقيقة ، وليس باطلاً ولا وهمًا ولا ظلاً خداعًا لحقيقة مطوية مخفية ، وما يراه الإنسان فيه من أجرام وظواهر حقيقة ، وما يراه الإنسان بحواسه منها حقيقة يجب التعامل معها كما هي ، وهذا هو واجب الإنسان تجاه الكون .

٢- استقرار الكون الحقيقي أمام الإنسان كوحدة واحدة غير متعددة ولا منقسمة ولا ممزقة ، بل وحدة واحدة محكمة لا اضطراب فيها ولا عشوائية ولا بعثرة ، وهذا الكون والطبيعة كلها في حركة دائبة ، وهي ديدنه وطبيعته .

٣- الكون والطبيعة ليست شرًا ولا لعنة ، ولا هي تقف موقف النقيض من الإله عز وجل ، بل هو كون مخلوق له عز وجل يسير بأمره ، ونظامه قائم بأمر الله وبحفظه عز وجل له ، فهو طائع لله عز وجل بنظامه وإحكامه وحركته .

٤- المعجزة هي خرق للنظام والقانون بأمر الله عز وجل وحده ، يعيد بعدها عز وجل الكون إلى نظامه وقانونه ، وليست المعجزة قانون الكون ولا هو يسير بها ، وهذه المعجزة ليست في قدرة بشر ولا طاقته ، بل هي أمر إلهي محض .

٥- النظام الكوني الطبيعي ليس معطلاً لإرادة الإله ، لأن هذا النظام هو نفسه من عند الله عز وجل ، وهو سبحانه الذي يحفظه ويقوم عليه ، ولا بقاء له إلا به عز وجل .

٦- الله عز وجل خلق الكون منظمًا محكمًا ، لأن النظام جمال لائق بالخالق العظيم ، ولأن هذا النظام هو الصورة الوحيدة التي يستطيع بها الإنسان الخليفة أن يتعامل مع الكون في إطار علمه القاصر وقدراته المحدودة ، كان من رحمة الله عز وجل بخليفته أن جعل الكون كله منظمًا بهذه بالطريقة ليستطيع العيش فيه والعلم به والتعامل معه .

٧- من وظيفة الإنسان ومهمته الاستخلافية على الأرض أن يقوم على هذا النظام ويحفظه بتحقيق أمر الله عز وجل فيه ومراده منه ، وهو مسؤول عن ما يحدث في هذا النظام من اختلال أو اضطراب ، لأنه ما يحدث إلا بسبب فساده وحين يضع السلطان الذي منح له في غير موضعه ، والكون ما هو إلا مأمور من الله عز وجل بطاعته .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ (الروم:٤١) .

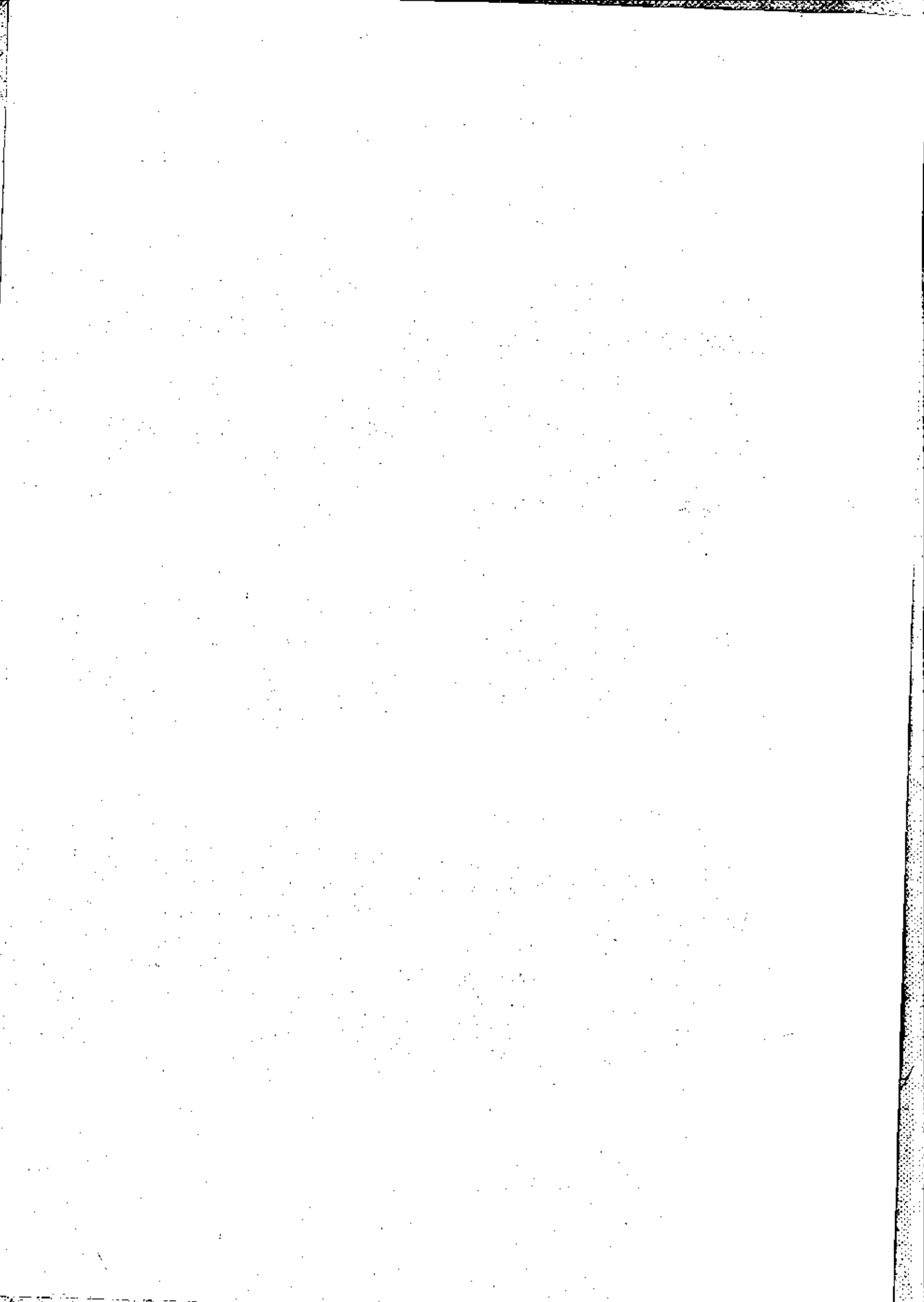
٨- العقل الإنساني وحده قاصر عن فهم حقيقة الكون وتفسير علاقته بالإله وبالإنسان ، وانفراد العقل بمحاولة تفسير شامل للكون مؤد لا محالة إلى خلط ولبس وتصور وهمي للكون ، وإلى وضع الوجود كله في صورة متضاربه متنافرة ، فلابد للعقل الإنساني لكي يفهم الكون على حقيقته من مرشد أعلى منه أشمل وأكمل وأكثر إحاطة ، هو الوحي .

ولولا التصحيح القرآني لحقيقة الكون في نفسه كوحدة طبيعية محكمة ونظام متحرك ، ولولا تصحيحه لمعنى العلم عند اتصاله بالكون والطبيعة ، وهو ما سنعلمه لاحقًا ، لظلت البشرية كلها شرقًا وغربًا على حالتها الأولى من الجهل التام بحقيقة الكون وعلى موقفها المتعثر لا تتقدم خطوة ، كما كانت قبل التصحيح القرآني .

٩- تكَوُّن صورة حقيقية مستقرة للكون مفهومة واضحة ، والوصول إلى تفسير مقبول في العقل والنفس لعلاقة الكون بالله عز وجل وموقف الإنسان منه وما يجب عليه نحوه ، فيعرف الإنسان بذلك حقيقة العالم الذي يعيش فيه وأبعاد علاقته به ، ويفرغ لأداء مهامه والقيام بوظيفته فيه مع حب ومودة له وارتباط به ، لأنه منظم لراحته ومحكم لإعانته وهو طائع له مطيع بأمر الله عز وجل ، وهذا الكون ما يخرج عن النظام والطاعة للإنسان إلا لينبهه إلى خروجه هو عن النظام والطاعة .

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (التوبة:١٢٦)

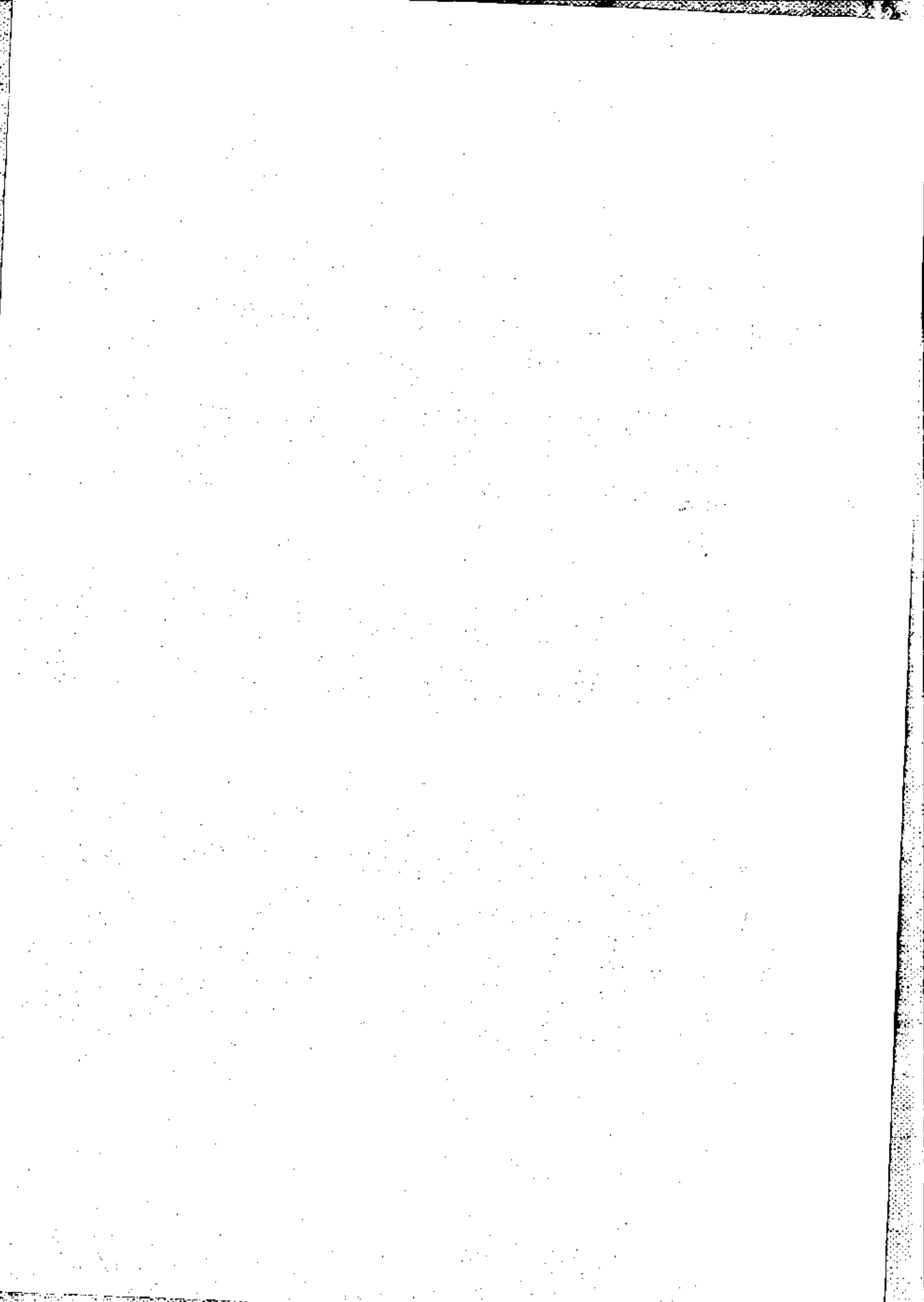
* * *



الفصل الثامن

العلم

- العلم في القرآن
- الكون والعلم
- الإله والإنسان والعلم



العلم في القرآن

التفسير القرآني ، كما رأينا ، هو التفسير الوحيد في تاريخ البشرية ومسيرتها الذي جمع بين الإله والكون والإنسان في منظومة متجانسة ، مفهومة في العقل مريحة للنفس ، تحدد دور كل مكون فيها روضعه وحقيقته في نفسه ، ثم تحدد علاقته بغيره من مكونات المنظومة وأركانها ، في تناسق دقيق لا يطغى فيه ركن فيحتل مكان آخر ، ولا يختلط دور مكون بآخر ، فلا اختلاط ولا قلقلة ولا خلط ولا بلبلة .

فالمنظومة القرآنية هي الوحيدة التي لا يقف الإنسان أمامها موزع الأنحاء مشتت الجوانح متضارب القوى حائرًا مشلول الإرادة .

ففي غير هذه المنظومة والتفسير الإلهي البسيط الذي هو التفسير الحق للوجود ، لا مفر للإنسان من أن يقف أمام عناصر الوجود المتقابلة يختار بينها ويرجح أحدها على غيرها وينحاز إلى هذا أو ذاك ، فإذا اختار الإله وجد نفسه مخاصما للكون والطبيعة التي يعيش فيها معرضًا عنها ، وإذا اختار الكون والطبيعة فسدت عقائده ووجد نفسه تلقائيًا في معسكر أعداء الإله .

وهو نفسه بين هذا وذاك مشتت حائر منقسم موزع أشلاءً ، فالوجود الإلهي حقيقة في كينونة الإنسان وماهيته ، ولا تستقيم حياته دون الإيقان بها ، والكون والطبيعة هو عالمه الذي يجد نفسه فيه منذ يخرج من رحم أمه ، ولا بد له أن يتلمسه ويعيش فيه ويتفاعل معه وإلا كان حيًا ميتًا .

كانت الحضارة الإسلامية القرآنية إذًا هي نقل الإنسان من العماء ومسيرة التيه إلى الرشد ومسيرة النور ، هي هدايته وإرشاده إلى هذه المنظومة التفسيرية الفريدة المحكمة المتناسقة الجميلة التي يجمع الإنسان فيها وبها بين الإيمان بالله عز وجل والإيقان بطلاقة قدرته وبين سعيه ووجوده وعمله وعلمه بالكون والطبيعة التي يعيش فيها .

وبهذه المنظومة الحق والحقيقة أصبح الإنسان رابط الجأش قرير العين مطمئن النفس مستقر العقل، يعلم حقيقته هو، وحقيقة الألوهية، وحقيقة الكون الذي يعيش فيه، وما الذي يربط بينه وبينهم، وموضعه منهم وموضع كل منهما منه ومن الآخر.

فيفرغ الإنسان بعد أن فهم وعرف واستقرت المسائل الكبرى أمامه وامتلك خريطة الوجود ومنارًا يهديه في حياته، يفرغ لمسيرته ومهمته التي وجد من أجلها وجاء إلى الأرض شريفًا عزيزًا طاهرًا بريئًا، ومهمته هي الخلافة العبادة والعبادة الخلافة.

حتى إذا أذن الله عز وجل بطي الدنيا وإنهاء المهمة واستدعاء الإنسان، آب إلى ربه لتكون المساءلة والحساب على ما فعل في مهمته والجزاء الأوفى على ما أنجزه منها، أو ما قصر فيه، أو ما فرط وضيع.

يبقى في المنظومة القرآنية بعد قاعدتها وأساسها، الألوهية والتوحيد، وبعد أركانها وبنائها، الإنسان والكون وعلاقتها معًا بالألوهية، يبقى ملاط المنظومة، وهو العلم.

* * *

الكون والعلم

الشائع حين يذكر القرآن إلى جوار العلم المختص بالكون والطبيعة والمخلوقات أن يقفز إلى الأذهان الإعجاز العلمي ، أي المعلومات التي أتى بها القرآن عن الكون والطبيعة أو عن الإنسان والمخلوقات ، وسبق بها مسيرة العلم ، ليؤكد ارتفاعه وإطلاقه عن الزمان وهيمنته على المعرفة الإنسانية ، ولتكون هذه الحقائق العلمية في كل عصر دليل صدق الوحي وبقاء المعجزة وخلودها .

وهذا كله صحيح طبعًا ، إلا أن للقرآن فضلاً آخر غير هذا الفضل السلبي ، فالمعلومات والحقائق العلمية في القرآن معلومات ساكنة لا أثر لها في مسيرة العلم وتطوره ، فقط هي موجودة في القرآن وتنتظر وصول علم البشر وعقلهم إليها لتتطابق الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية العلمية ، فتكون هذه تصديقًا لتلك وبرهانًا على أن هذا القرآن ما كان ليتقوله ولا ليأتي به رجل أمي في بيداء قفر منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان .

بيد أن للقرآن فضلاً إيجابيًا ، وأثرًا حاسمًا فعالاً في دفع مسيرة العلم المتصل بالكون والطبيعة والخلق ، وتحويل مجراه وانتزاعه من وهدته وعثرته ، وهو فضل وأثر ينفرد به القرآن ولا يشاركه فيه شيء آخر في تاريخ الإنسانية ومسيرة العلم .

وهذا الفضل والأثر هو الذي به القرآن ليس مجرد كتاب يحتوي معلومات وحقائق علمية سبق بها عصر نزوله ، بل كان به ويكون طاقة دفع فعالة ووصلة تحويل هائلة غير مسبوقة لمجرى العلم الطبيعي الكوني .

ونقول : وأيضًا غير ملحوقة ، ولا يوجد لها شبيه في تاريخ الإنسانية ولا في تاريخ العلم كله وحتى لحظتنا هذه ، لأنه ما من نقلة في تاريخ العلم

الطبيعي حدثت بالكيفية ولا السرعة والطريقة الانفجارية التي أحدث بها القرآن هذه القفزة الهائلة في مسيرة العلم ، وما من إنسان ولا مجتمع ولا كتاب ولا حضارة استطاعت تصحيح معنى العلم حين يتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات في نقلة واحدة ومرة واحدة كما فعل القرآن .

وكل ما حدث من ارتقاء في مسيرة العلم بعد هذه النقلة ، هي أصله وتربته ، وهي ماؤه وغذاؤه وشمسه وهواؤه .

نعم قد تكون منجزات العلم الغربي كبيرة ضخمة ، ولكنها متوالدة يخرج بعضها من بعض ، وما كان لها أن توجد أصلاً ، لا في العالم الغربي ولا في العالم الإسلامي قبله ، إلا بهذه النقلة التصحيحية الكيفية التي أحدثها القرآن في العلم ، فصوب بها مساره ودفعه بها .

وحين نقول إن القرآن دفع مسيرة العلم وارتقى بها ربما يظن البعض أن ما نقصده هو رفع المنهج القرآني لمكانة العلم ومنزلة العلماء بخلاف ما كان قبله من ازدراء له وإزراء بأهله .

ونقول : لا ، ليس هذا ما نقصده .

وما نقصده هو فضل حقيقي للمنهج القرآني في دفع مسيرة العلم نفسه كعلم ، وفي تطوير حاسم لمفهومه ، وفي تحويل فعال لمجراه ، وإيجاد معنى للعلم حين يتصل بالكون والطبيعة لم يكن موجودًا قبله ولا سمع به أحد في العالمين ولا عرفه إلا من خلال هذا المنهج القرآني ، أو من خلال الاحتكاك بأهله وهم يطبقونه تلقائيًا دون أن يدركوا أي نقلة ووثبة جبارة أحدثها القرآن بمنهجه ومن خلالهم في مسيرة العلم ومعناه ومفهومه .

يستوقفنا البعض قائلاً : إنك تكاد تجعل القرآن نظرية علمية ، فها قد عدنا إلى كبت العلم بالنصوص .

ونقول : أما عن النظرية العلمية فلا ، لا يقدم القرآن نظرية علمية لأن هذه ليست مهمته ، بل هي مهمة حدد القرآن المسؤول عنها وخصه بها ، وهو

الإنسان ، ولكن ما جاء به القرآن هو تفسير جديد لمعنى العلم ومفهومه ، ما كان ليتركه وقد جاء ليصحح الأوضاع الخاطئة في أذهان البشر قبله وبعده ويعيد تفسير الحقائق الكبرى ويضعها في صورتها الحقيقية .

ولكي يعيد القرآن تفسير الوجود ويصححه أمام الإنسان ، ولكي يوجد المنظومة المتناسقة وتكون فعالة في الإنسان المستخلف ، كان لابد من إعادة تعريف العلم وتحويل مجراه وإنشاء مفهوم جديد له غفلت عنه البشرية قبله ، حتى يتمكن الإنسان من العلم بما حوله والانتفاع به وإنجاز مهمته .

وأما عن كبت العلم بالنصوص ، فنقول أيضًا : لا ، لأن التعريف الذي جاء به القرآن للعلم والمعنى الذي أنشأه له ليس تدخلاً فى العلم أو نتائجه ولا وضع قوالب حديدية له ، بل على العكس هو تدخل لتحرير الإنسان حين يتعامل مع العلم بالكون والطبيعة ، ولتوجيهه إلى المعنى الصحيح له ، مع حثه عليه حتى لا تكون كل أفعاله سدى ، ولكي لا يكون علمه محصورًا في نطاق ضيق وفي غير الطريق التي يجب له أن يكون فيها .

إذًا نقول : لا كبت للعلم بالنصوص ، لأن المعنى الجديد والتعريف والتوجيه الذي جاء به القرآن للعلم ما كان إلا توسيع مفهومه لا تضييقه ، وإخراجه من القالب الذي كان موضوعًا فيه قبله إلى آفاق أرحب تستوعب كل طاقات الإنسان ووسائل معرفته .

ونبدأ من ما قبل التصحيح القرآني لكي ندركه حق قدره ، والبداية من المسيحية لأنها حسمت مسألة العلم من جذورها ، فالمعرفة خطيئة اقترفها المجرم الأول الذي أدى إلى نكبة البشرية بنزولها إلى الأرض وفتح عيونها على الكون ، وكل من يحاول أن يعرف شيئًا غير ما لقن له فهو مذنب يعيد فتح صندوق الشر ويكرر الخطيئة .

ولذلك : **«اختار الله جهال العالم ليكونوا حكماء»**[1]!

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : (١) .

وأصبحت : «**حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله**»[1]

وانعكس ذلك على الغرب المسيحي كله وعلى كل ما وقع تحت سيطرته ، والذى ظل ما يربو على الألف عام لا يرى إلا أن : «**العقيدة وحدها هي مصدر الفهم والمعرفة**»[2]

ونزيد نحن : العقيدة الملفقة والنص المهتز القلق ، كما بينا ، الفاقد للمصداقية والعصمة ، كما سنبين .

ولما كانت التقاليد عند النصارى هي : «**ما اتصل بهم من العقائد أو أمور العبادة خلفًا عن سلف مما أوحى الله به للكنيسة دون أن يسطر في الكتاب المقدس**»[3]

يمكننا أن نعدل عبارة جاك بيرك لتكون : «**أصبحت أقوال البابوات والقديسين وتعاليم الكنيسة هي مصدر الفهم والمعرفة وحدها**» .

إذًا انتهت المسيحية إلى أن العلم هو أقوال البابوات وتعاليم الكنيسة ، وكل علم سواها هو باطل .

وكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي : «**أينما وضعت المسيحية قدمها ، في الإسكندرية وبيزنطة ، في اليونان وروما ، في فرنسا وإيطاليا ، أدت إلى تقلص مروع في الثقافة**»[4].

إذًا العلم في المسيحية هو العقيدة المستمدة من تعاليم الكنيسة والنصوص المختارة من الكتاب المقدس بواسطة الكنيسة ، ويحرم على المؤمنين قراءة غيرها من النصوص حتى لو كانت فقرات من التوراة أو الأناجيل غير ما اختارته الكنيسة !!

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس : (٤) .

(٢) عندما تغير العالم ، ص٢٨ .

(٣) المنجد الأبجدي ، ص٢٧ .

(٤) العقيدة والمعرفة ، ص٢٣ .

وما زال هـذا هـو الموقـف فـي الكنيسـة الغـربيـة حتى الآن ، أو على الأقل ما زال هو الموقف الرسمي المعتمد !

ونترك الغرب المسيحي الـذي حُسم فيه أمر العلم وانحصر في نصوص محدودة من داخل النص التوراتي الإنجيلي وأقوال البابوات وتعاليم الكنيسة إلى الإغريق والرومان .

استقر الإغريق مع الكون على أنه مجزء مقسم ، وأن الجزء الذي يعيش فيه الإنسان ظل للحقيقة وهو باطل وخداع ، أو أنه غير موجود أصلاً ، واستقرت المادة في صورتها الإغريقية على أنها خسيسة دنيئة ، وكلما اقترب الموجود من المادة والتشيؤ زاد خسة ، وكلما تركها وابتعد عنها واقترب من الأفكار المجردة ازداد كمالاً ورقيًا وسموًا .

وانعكس هذا التصور على معنى العلم عند الإغريق ، فكلما اقترب العلم من المادة أو الطبيعة قلت قيمته وأصبح دنيئًا وضيعًا ، وكلما ابتعد عنها ازداد شرفًا حتى يصل إلى ذروته حين يصبح مجرد فكرة عقلية لا علاقة لها بالمادة .

لذلك كان المثل الأعلى للعالم عند الإغريق هو : «**المفكر النظري الذي يستخلص الحقائق كلها بالتأمل النظري ، أما محاولات تدعيم هذه الحقائق بمشاهدات أو ملاحظات أو تجارب فكانت في نظرهم خارجة عن العلم ، بل إنها تحط من قدر العلم وتجعله مجرد ظن أو تخمين**»[1].

فالعلم عند الإغريق ، والرومان من بعدهم ، هو التأمل العقلي المحض في الصورة المجردة للأشياء ، أو هو التفكير في الأفكار .

وأمر آخر ، هو أن احتقار الإغريق للمادة وصل بهم إلى أن اعتبروا : «**العلم لا مجال له بالتطبيق ولا علاقة له بالعالم المادي بأكمله**»[2].

---

(١) دكتور فؤاد زكريا : التفكير العلمي ، ص١٣٧ .
(٢) المرجع السابق ، ص١٣٩ .

فالاستعمال التطبيقي للمعرفة هو : «حط من شأن الفكر وتدنيس المثل العليا لرؤية الأفكار الصادقة»[1].

فإذا كانت المسيحية أينما حلت أدت إلى تقلص مروع في العلم والثقافة ، فإن : «أسلوب الحياة في معظم شعوب البلاد المتحضرة كان عند سقوط الإمبراطورية الرومانية مماثلاً إلى حد كبير لما كان عليه قبل ذلك بألفي سنة ، لأن العلم اليوناني كان مرتبطًا بالمظاهر أكثر مما كان مرتبطًا بالحقائق كما يقول العالم الإنجليزي لويس برنال»[2].

فالإغريق والرومان تركوا العالم دون أن يحدثوا فيه أثرًا على مستوى العلم والتطبيق ، وإذًا انتهى العلم عند الإغريق إلى أنه التأمل العقلي النظري المعزول عن الكون والمادة غير القابل للتطبيق ، لأن تطبيقه حط من كرامة العالم وهبوط بمعنى العلم .

ويمكن أن ندرك مدى عقم هذا الفهم لمعنى العلم فى التعامل مع الحقائق الطبيعية إذا علمنا أن أرسطو جزم بأن عدد أسنان فك المرأة أقل من عدد أسنان فك الرجل دون أن يرد على ذهنه أن يقوم من مكانه ليعد هذه وتلك ليعرف الصواب ، لأن مجرد قيامه وتأكده ببصره حط من فكره وهبوط بعلمه ، ونوشك أن نقول : حتى لو قام وعدها لما زحزح هذا من نتيجته التي استنتجها لأن العالم المادي عنده باطل وخداع ، وما في ذهنه هو المجرد ، ولذا هو وحده الحقيقة المصفاة !

فإذا كانت المسيحية ترفض العلم من البداية ، والإغريق والرومان لم يفهموا من العلم إلا أنه الجلوس في غرفة أو تحت ظل شجرة وتصور كل شيء كيف هو ، وكيف يكون ، وما هي صفاته ، ولماذا هو هكذا ، واعتبار أن ما يصلون إليه بهذا التأمل هو الحقيقة ، إذا كانت هي حالة العلم ، وظلت هذه هي حالته

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٠٧ .

(٢) أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص١٣٠ .

لآلاف السنين لا تتقدم على الصعيد الحقيقى خطوة واحدة ، إذًا فليقل لنا أحد إجابة معقولة تفسر لنا كيف ولماذا حدثت هذه الوثبة الهائلة في العلم مرة واحدة ، والتي عجلت مسيرته بسرعة تفوق سرعة المعجل الذري إذا قيست بخطوات سير العلم قبلها .

أي قوة خارقة تلك التي تدخلت في مسيرة العلم وانتزعته من الوهدة الموحلة التي كان يتعثر فيها إلى الطريق المعبد الممهد لينطلق بأقصى سرعته؟

هل هذا التطور المفاجىء المتسارع في مسيرة العلم بطريقة تخالف كل سيرة له قبل ذلك صدفة ، هل هي اجتهاد بشري محض ، فلو كان ، لم ظهر فقط في هذه المرحلة من تاريخ العالم ، هل من المقبول أو من المفهوم في ميزان العقل الرشيد أن تظل البشرية نائمة هائمة تسير في غير الطريق ولا تتقدم خطوة واحدة ثم فجأة تثور هذه الثورة ، ما الذي حدث فغير مسيرة البشر وصحح فهمهم لمعنى العلم؟

هذه أسئلة تحتاج إلى إجابة وإلى تفسير معقول لها .

الغربيون والمستغربون من ذيولهم يقولون : إن العلم أصبح له معنى جديد بعد أن اكتشف فرنسيس بيكون المنهج التجريبي في كتابه : الأداة الجديدة Novum Organum ، أما لماذا كان بيكون وحده هو الذي اكتشف هذا المنهج مخالفًا البشرية كلها ، وكيف اكتشفه ، ومن أين أتى به إذا لم يكن قد سمع به من قبل ، فلا يقول لنا أحد .

أطرف إجابة لتفسير معرفة بيكون واكتشافه للمنهج التجريبي هي أنه تخيل أو حلم بالمنهج التجريبي ثم قام بوصف تخيله وحلمه في كتابه : أطلنطس الجديدة التي يصف فيها وصوله إلى جزيرة مجهولة رأى فيها العلم يقوم على التجربة لا على الورق والكتابة ثم تطبيق التجارب على الحياة[1]!

---

(١) دكتور زكي نجيب محمود : عندما يحلم العقلاء، مقال ضمن كتاب نافذة على فلسفة العصر .

فبيكون نام في ظل شجرة وهزه الهواء العليل ، فحلم في نومته بالمنهج التجريبي ، حلمك يا شيخ بيكون!!

أما ول ديورانت فإنه يقفز في قصته للفلسفة ، التي يتناول فيها مسيرة الفلسفة والعلم والأخلاق والعقائد ، والتي لم يذكر فيها عربيًا واحدًا ولا فكرة إسلامية واحدة ، ديورانت قفز من أرسطو إلى بيكون مباشرة ووضع سيرته تحت عنوان : النهضة العلمية .

هل هذه قفزة طبيعية ، هل هي مفهومة ، هل هكذا يفسر تقدم العلم ويدعى أنه علم ؟

مات أرسطو فتوقفت البشرية ، وبعد آلاف السنين غير المكتوبة قام أرسطو الجديد من نومه وقد هبط عليه الوحي فجأة بمنهج لم يسمع عنه هو ولا آباؤه ولا أجداده إلى أسفل سافلين !!

أم تراه عرفه بمعجزات البابوات والقديسين ، إذًا لحُق له أن ينصب البابا الأوحد في تاريخ العلم ، كيف لا وقد نام ثم قام فصحح مفهوم العلم كله وأعاد تعريفه وتفسيره في حلم واحد؟!

من أين أتى بيكون بمنهجه ورؤيته ؟

ها هنا نستعين بوصلة لنصل إلى ما نريده .

« تداولت الأيدي في أكسفورد مصنوعات العرب التي كان الناس في المدينة التجارية على صلة دقيقة يدويًا معها . . . ولقد سقطت حوافز البصريات العربية وآثار أستاذ البصريات الأكبر الحسن بن الهيثم على أرض مواتية وعلى الرغبة في فكر علمي تجريبي عار عن الأيدلوجيات كانت تتلقاه على يد مستشارها الأكبر »[1].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٧٤ ، ١٧٥ .

ومستشارها الأكبر هذا هو روجر بيكون السابق على سميه فرنسيس بيكون بثلاثة قرون ، وإذًا فلم يكن المنهج التجريبي وحيًا هبط على فرنسيس بيكون ، بابا العلم عند ديورانت والشيخ علام عند زكي نجيب محمود .

« وبالآلات المتعددة التي تخصه والتي أحضرها بيكون معه من إيطاليا وأعدها بنفسه ، أجرى تجارب استنزفت كل ثروته ، وبها اقتفى أثر قدوته العرب الذين كانوا يتمتعون بتقدير كبير في أوكسفورد »[1].

الحمد لله ! وجدنا من ينصفنا ويقول الحقيقة ويرد على الغربيين والمستغربين ، الذين لا يكفيهم تجاهل العرب المسلمين وعدم ذكر فضلهم على مسيرة العلم ضنًّا بأنفسهم أن يكون الشيء الوحيد الذي أنجزوا فيه وبه اكتشفوا التلفيق والتزوير وصار محور فكرهم وفهمهم للوجود ورؤيتهم له مستعارًا ، وممن؟! من العرب المسلمين ، لا يكفيهم التجاهل وإنما يحرص بعضهم على أن ينفي في صراحة ، هي في حقيقتها وقاحة ، كل أثر للمسلمين على المناهج العلمية ويمحو فضلهم الذي به ولدت العلوم التجريبية .

فهذا فرانز روزنتال جعل كل ما قدمه العرب والمسلمون للعالم في مناهج البحث هو فقط ما يتصل بالورق والكتب والغرف المغلقة ، كالتدوين والتوثيق والنقد ومقارنة المخطوطات[2].

أما المنهج التجريبي ، فلا ، إذ كيف يكون الشيء الوحيد الذي أفلح فيه الغرب قادمًا من الشرق ؟

« أخذت كلمة تجربة أثناء العصور المتوسطة في أوروبا تحتل تدريجيًا في الأوساط العلمية مقامًا خطيرًا وأهمية كبرى ، أما في الحضارة الإسلامية فإننا لا نلاحظ اتجاهًا في هذا السبيل ، ويمكننا أن نقول إن

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ١٧٦ .

(٢) فرانز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص ١٧٥ .

الحضارة الإسلامية كانت تسير على هدى ما جاء في شعر بشار حيث يقول :

عميت جنينًا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم موئلا
وغاض ضياء العين للعلم رافدًا بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

أي استخدام البصيرة في وصف الموجودات حولنا لأن البصيرة تفضل البصر في إدراكها للأشياء»[1].

وقد كفتنا زيجريد هونكه الرد عليه وعلى أمثاله من الدجاجلة ، فلا يبقى إلا أن نقول : حقا ، رمتني بدائها وانسلت !!

إذًا العلم الذي يتعامل مع الكون والطبيعة ، ولا وسيلة لفهمها إلا به ، جاء به الغرب من العرب .

ها قد اقتربنا خطوة ، إذ ليس هذا هو مقصدنا ولا هو ما نسعى إليه ، مقصدنا الحقيقي الذي نسعى إليه هو الخطوة السابقة على هذه .

من أين أتى العرب بهذا المنهج ، كيف توصلوا إليه وهم الأميون الضاربون بأميتهم في القدم ، أي معجزة خارقة تلك التي جعلت بدو القفار يأتون بمعنى للعلم وفهم له ومنهج جديد فيه لم تدركه العوالم الرافلة في حلل المدنية والزخرف قبلهم لآلاف السنين؟

هذا هو السؤال ، كيف : «عرف العرب أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب ، الحقيقة التي جهلها علماء القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها»[2]؟

المعجزة الخارقة والقوة الخارجة عن طاقة البشرية التي أعادت تفسير معنى العلم حين يتصل بالطبيعة والكون ، ووضعت له معنى ومفهومًا لم يكن معروفًا عند البشر قبلها ، فصححت بذلك مسيرة العلم الكوني الطبيعي إلى

---

(١) مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص١٧٨ .
(٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص٤٣٥ .

مساره الذي يلائمه ويكون فعالاً فيه ، هذه المعجزة الخارقة هي المنهج القرآني الذي ما كان العرب أن يعرفوا شيئًا عن العلم إلا به ومنه .

العلم في الغرب المسيحى كان خطيئة فتحت على البشرية صندوق الشرور ، فجاء المنهج القرآني ليعيد تصحيح صورة العلم والمعرفة ، فالمعرفة ليست خطيئة ولا شراً ، بل هي رفعة في الدرجات .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ (المجادلة:١١).

والعلم هو ميزان التفاضل والتقويم .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر:٩).

ثم ماذا بعد ؟

هذا العلم إذا اتصل بالكون والطبيعة ، فلا معنى له ولا وسيلة إليه إلا النظر والبصر واستخدام الحواس في التعرف على الكون والعلم به والتعامل معه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨).

ولأول مرة في تاريخ البشرية يجيء منهج غير مسبوق ولا مثيل له قبله ، يجعل العلم في الرؤية البصرية الحسية ورصد الثمرات والجبال والمخلوقات ، ويجعل الألوان موضوعًا للعلم ، وبنص صريح .

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ (فاطر:٢٨).

وماذا أيضًا ؟

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١).

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ ﴾ (الأنعام:١١).

﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩٩).

هذه ليست مجرد أوامر ولا حض على العلم فقط ، بل هي آيات فيها مفهوم جديد للعلم ، وإدخال لتعريف لم يكن له ولا كان موجودًا على ظهر الأرض قط قبل القرآن .

فالنظر علم ، والسير والحركة علم ، واستخدام الحواس في فهم الكون والطبيعة ومعرفتهما علم .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت:٥٣).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠).

الكون كله ، سماءً وأرضًا وحيوانات ونباتات ، أصبح موضوعًا للعلم ، ومشاهدة الطبيعة ومتابعتها ومراقبتها ورصدها علم .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (يونس:٥).

وأصبحت الشمس والقمر والأفلاك والنجوم موضوعًا للعلم ، والتبصر بها وبحركتها هو العلم ، وهو العلم الذي لابد منه لمعرفة الحساب ، الحساب الذي لم يفهم منه العالم قبل القرآن سوى أنه وسيلة للهو والتسلية ، ولا تزال كلمة حساب الغربية Arithmatic شاهدًا ، فمعناها الأصلي عند الإغريق هو التسلية واللعب بالأعداد .

هذه هي القفزة الهائلة الثانية التي أطاح فيها القرآن بالمعنى السلبي للعلم ، فلم يعد مجرد فكرة ولا تأمل حالم في غرفة مغلقة ، بل صار الكون المفتوح هو ميدان العلم ، والحواس والمراقبة والمتابعة والاختبار الفعلي للحقائق هو العلم .

هذه القفزة المنهجية لم يأت بها الغرب ولم يأت بها العرب ، ولم يقف أحد ليسأل نفسه : كيف أتى بها هؤلاء أو أولئك ، وإذا كان قد أتى بها فلماذا ، هل في مفهوم العلم أن يهبط العلم بمنهجه كاملاً متكاملاً على بشر ليقوم فيرى الكون غير الكون والإنسان غير الإنسان والعلم غير العلم ووسائله غير وسائله؟

أما النقلة الثالثة التي نقلها القرآن للعلم ودفعه بها وصحح معناه ، فهو أن العلم ليس مجرد نتائج نظرية يتوصل إليها الإنسان وفقط ، وإنما العلم تطبيق واستغلال له في تحقيق المهمة التي وكلت إلى الإنسان فى الوجود وتسخير له في مسيرة البشرية .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:١٤) .

فأصبح العلم بالبحر وتسخيره لا للمشاهدة أو الاعتبار فقط ، ولكن لتطبيق العلم عليه واستخراج كنوزه وطعامه والانتفاع بها ومعرفة أمواجه وتياراته ورياحه لضبط مسيرة الفلك فيه .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ (الإسراء:١٢).

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥).

هذه كلها آيات تدعو إلى تحويل العلم والمعرفة إلى أداة فعالة في مسيرة الحياة ، وتطبيقه للانتفاع بنتائجه ، واستخدام البشرية له في حاجاتها وأغراضها ومنافعها وبناء قوتها ، بل وفيها دعوة إلى استخدام العلم في إنتاج العلم .

ولأول مرة فى تاريخ البشرية يأتي منهج يجعل تطبيق العلم جزءاً منه ، ويجعل تطبيق العلم وسيلة للوصول إلى العلم ، وينبه إلى الصلة بين الكون والحساب أو القانون الرياضي .

لهذا ، ولهذا فقط ، اختلف العرب المسلمون عن كل الأمم التي سبقتهم ، فأصبح العلم عندهم : **« يهدف إلى فهم أسرار العالم الطبيعي وتمكين الإنسان من السيطرة عليه . . . كان المسلمون بارعين في استخدام الأرقام ووضع أسس علم الحساب الذي يمكن تطبيقه في حياة الناس اليومية ، وكان اختراعهم للجبر والهندسة التحليلية وابتكارهم لحساب المثلثات إيذانًا لعصر جديد تستخدم فيه الرياضة للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي وتطبق فيه مبادؤها من أجل حل مشكلات المساحة الأرضية وحساب المواقيت وصناعة الأجهزة الآلية ، أما بحوثهم الطبية والصيدلانية فكانت ذات دلالة تطبيقية لا تخطئها العين »**[1].

إذًا تصحيح معنى العلم ومفهومه حين يتصل بالكون والطبيعة والخلق ، والوصلة التغييرية التحويلية الحاسمة لمجرى العلم التي نقلته من مسيرة الأوحال المتعثرة إلى الطريق المعبد الممهد الذي يمكن للبشرية أن تنطلق فيه وتنتفع به كان أثرًا قرآنيًا خالصًا .

فما كان للغرب أن يدرك حقيقة الكون ومعنى العلم حين يتصل به لولا اتصاله بالعرب وإقامة جامعاته ومراكز أبحاثه على مقربة من العالم الإسلامي وإرسال بعثاته إليه ليقتبس منه ، والعرب ما عرفوا هذا المنهج ، وما كان لهم من طريق آخر يعرفونه به ، سوى من القرآن وتصحيحه لحقيقة الكون ، وإرشاده لهم إلى منهج العلم الصحيح حين يتصل بالكون والطبيعة .

ولولا هذا التصحيح القرآني الجذري وأثره الحاسم في تحويل مجرى العلم الطبيعي لبقيت البشرية مكانها لا تقدم ولا تؤخر ، كما كانت قبل نزول القرآن ولآلاف السنين بشهادة لويس برنال ، ولظلت على وقفتها لا ترى في الكون إلا وهمًا مضطربًا مبعثرًا ترتبه بأفكارها المجردة من داخل غرفة مغلقة ، وإذًا لما كان ثمة علم طبيعي ولا كوني ولا تقنية ، لا في الشرق ولا في الغرب .

---

(١) التفكير العلمي ، ص ١٥٢ .

إذًا

يجب تصحيح الصيغة الاعتذارية الدفاعية التي يتحدث ويكتب بها من يتحدثون ويكتبون عن علاقة القرآن بالعلم الطبيعي وموقفه منه من أمثال : الإسلام لا يصادم العلم . . . القرآن يشجع العلماء . . . الله عز وجل جعل العلم الطبيعي هو العلم .

يجب تصحيح ذلك كله ليقال : إن العلم الطبيعي ما كان له أن يولد أو يكون إلا بالقرآن ، فهذا العلم ، ومنهجه ، وما يبحث فيه ، وموضوعه ، كلها نتاج خالص للتصحيح القرآني لحقائق الكون ومعنى العلم المتصل به ومنهجه ووسائله .

ما كان للعلم الطبيعي أن يولد ولا أن يكون إلا بالقرآن ، وما كان للبشرية أن تعرفه ولا أن تصل إليه إلا ببيان من الإله .

* * *

الإله والإنسان والعلم

القرآن هو الذي صحح إذًا مسيرة العلم وغير مجراه إلى حيث يجب أن يكون وإلى حيث يكون العلم فعالاً مثمراً ، فانتزع البشرية بذلك مما كانت فيه إلى ما صارت إليه .

فلماذا صحح الله عز وجل مسيرة العلم ، لماذا لم يترك البشرية كما هي تخوض في أوحال تتعثر فيها ولا تتقدم ، لماذا حرص القرآن على أن يصحح للإنسان معنى العلم وعلى أن يدفعه إليه ويدله عليه؟

هذا السؤال يعود بنا إلى سؤال قبله هو أصله ، من أين جاء الإنسان بالعلم ، لماذا الإنسان وحده دون باقي المخلوقات هو الذي يتصف بصفة العلم والتطلع للمعرفة؟

في رواية التوراة أن الإنسان جاء بالعلم والمعرفة من الجنة ، لكنه جاء بها سرقة من الإله دون علمه ولا رضاه ولا إرادته ، بل على خلافها ، فخرج الإنسان إلى الأرض بالعلم والمعرفة التي أكل من شجرتها ، وأصبح لزامًا عليه ليكفر عن خطيئته الموروثة ولا يكررها ولكي يكون في صف الإله أن يتنازل عن العلم والمعرفة .

فالعلم صفة الإله وحده أو من ينوب عنه ، وعلاقة الإنسان بأي معرفة غير تعاليم الكنيسة ينبغي أن تكون النفور منها والإعراض عنها ، والإعراض عن المعرفة يتبعه الإعراض عن الكون والطبيعة ، فانتهى الإنسان في ظلال التلفيق التوراتي والعالم الذي أقيم عليه إلى أن يكون في صف الإله ضد الكون والمعرفة .

وحين افتضح التلفيق انقلب الوضع ، فصار الإنسان والكون والعلم معًا في مواجهة الإله ولم يستطع الغرب ، لا في ظلال التلفيق وعالمه ، ولا بعد افتضاحه الجمع بين الإله والإنسان والعلم في صعيد واحد .

إذًا ماذا قدم القرآن للبشرية في مسألة : الإله والإنسان والعلم ، وما النقلة التي نقلها للبشرية فيها؟

الله عز وجل في القرآن خلق الإنسان وجعله خليفته في أرضه ، وعندما خلقه منحه هو سبحانه العلم والمعرفة والقدرة عليها .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة:٣١).

فالله عز وجل هو الذي منح الإنسان العلم ، ووهبه له هبة مباشرة .

والأسماء التي علمها عز وجل لآدم هي : «**أسماء خلقه ، وسمى كل شيء باسمه ، وأنحى منفعة كل شيء إلى جنسه ، والمعنى علمه الأجناس وعرفه منافعها**».

أي العلم بالكون والطبيعة التي خلق ليكون خليفة فيها ، والعلم بالمخلوقات كلها التي هو مستخلف عليها ، والعلم بنفسه وما أودع فيه .

ولذلك كان العلم في هذه الآية هبة من الله عز وجل لآدم وحده ولم يعلمه عز وجل الملائكة ، لأن معرفة الكون والمخلوقات والتعرف عليها ليس مهمة الملائكة ، ولا هذا النوع من العلم يختص بهم .

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة:٣١،٣٢) .

إذًا فأول جزئية في التصحيح القرآني هي أن العلم والمعرفة بالكون والطبيعة والخلائق هو علم ينفرد به الإنسان ولا يشاركه فيه أحد من مخلوقات الله عز وجل ولا حتى الملائكة ، فهو علم يختص به وحده .

والجزئية الثانية هي أن هذا العلم موهوب لآدم ممنوح له من الله عز وجل ولم يحزه بنفسه ولا في غفلة من الإله ، بل هو قد عُلِمه ، بضم العين ، في الملأ الأعلى ، والله عز وجل قد منحه هذا العلم وأراده له من أول خلقه ، بل قبل أن

يخلقه ، فالملائكة حين توقفت مستفهمة عن هذا المخلوق كيف يخلق ليفسد في الأرض ، كان جواب الله عز وجل لهم :

﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة:٣٠)

ثم كانت الآية التالية لها :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ (البقرة:٣١)

فتعليم آدم ومنحه العلم والمعرفة هو ما علمه الله عز وجل ولم تعلمه الملائكة ، وهو جزء من الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان ، وهو إذًا مراد من الله عز وجل للإنسان ، ممنوح وموهوب له من قبل أن يخلق ويوجد .

يبقى سؤال : هذا العلم الممنوح الموهوب للإنسان وحده من الله عز وجل ، المنفرد به دون باقي الخلائق ، ما موقعه من الإنسان وما هو مكانه من تكوينه وماهيته؟

أين يقع العلم والمعرفة من تكوين الإنسان وكم يستغرق منه؟

هنا تجيبنا آيات سورة الرحمن .

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾

(الرحمن:١-٤)

الآيات تقرر أن الله عز وجل خلق الإنسان وأنه عز وجل الذي علمه البيان ، لكن الآيات بها شيء يحتاج إلى تفسير ، فالآيات لا تفصل بين خلق الإنسان وبين تعليمه البيان ، فلم يقل عز وجل : خلق الإنسان وعلمه البيان ، أو ثم علمه البيان ، بل قال عز وجل :

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٣،٤)

فلا فاصل بين الخلق والتعليم ، لا كبير ولا صغير ، ولا هما شيئان منفصلان ، الخلق وحده والبيان وحده ، فتعليم البيان هو جزء من خلق الإنسان ، والإنسان ما كان ولا خُلِق إنسانًا إلا بتعليمه البيان .

إذًا البيان الذي علمه الله عز وجل الإنسان هو مكون من مكوناته وجزء من ماهيته لا يستطيع الانفصال عنه ، وهو أصل فيه جُبِل عليه .

وهذه حقيقة أخرى يصححها القرآن ، وهي أن العلم حين وُهِبَ للإنسان ، ووُهِبَ له من الله عز وجل ، وحين انفرد به واختص دون باقي الخلائق ، إنما جعل العلم أصلاً فيه ، خلق به وعليه ، وهو جزء من تكوينه وماهيته وليس شيئًا منفصلاً عنه ، فالإنسان دون العلم الذي عُلمه ناقص الماهية فاقد لمكون رئيسي من مكوناته .

فما هو البيان الذي عُلِمه ، بضم العين ، الإنسان .

بان وكل ما يتفرع منها تدور حول معنى واحد ، هو الظهور والوضوح .

«بان الشيء : ظهر واتضح ، وأبان فلان : أفصح عما يريد ، وأبان الشيء : أظهره ووضحه ، وتبين الشيء : تأمله حتى اتضح ، واستبان الشيء : ظهر واتضح أو استوضحه ، والبيان : الحجة والمنطق الفصيح ، والبين : الواضح والطلق الفصيح اللسان»[1] .

فكل ما كانت بان أصلاً له يدور حول الوضوح والظهور والكشف عن حقيقة الشيء ، وما سمي الكلام بيانًا إلا لأن الإنسان يظهر به ما في نفسه ويوضحه .

لذلك : **«البيان هو الكشف عن الشيء»**[2] .

إذًا آيات الرحمن ، وهي تقرر أن الله عز وجل حين خلق الإنسان جعل البيان الذي علمه إياه جزءًا من تكوينه وماهيته وأصلاً في خلقه ، فإنها تقرر أن تطلع الإنسان للكشف عن الأشياء واستجلاء حقيقتها واستيضاحها ومعرفة ما فيها هو جزء من الإنسان وصفة مفطورة فيه مخلوق بها مكونة له .

---

(١) المعجم الوجيز ، ص٧٠ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ، ص٦٩ .

وهذا لا يتنافى مع أن البيان هو المنطق والكلام ، فهو قد عُلِّم البيان الكلام ، ليكون وسيلة تناقل البيان الكشف وما كشف عنه ووراثته وتبادله وتراكمه .

ونستطرد فنقول : إن الطفل حين يولد من رحم أمه ويخرج للوجود يكون أول ما يفعله حين يعي أن يسأل من حوله أن يكشفوا له عن معنى ما يراه وحقيقته : ماهذا ، ماهذه ، لماذا هذا هكذا ، لماذا هذا ليس كذلك ؟

الأسئلة التي ينهال بها الطفل على من حوله وهم يبتسمون له ويضحكون منه ومن سذاجة طفولته الأولى ورغبته في معرفة كل شيء أمامه وما اعتادوه هم وأصبحوا لا يسألون عنه لملازمتهم له ، ولو فطنوا لعلموا أن هذا الطفل الوليد أحكم منهم وأوعى وأجدر بالانتساب لأبيه الأول منهم ، فإنه حين يسأل ويستقصي ما يفعل إلا أن يعيد سيرة أبيه الأول ويطلب ميراثه منه : المعرفة والتطلع والكشف عن الأشياء ، الميراث الذي يولد وهو مفطور على معرفته ومعرفة حقه فيه ونصيبه منه .

ولأن البيان الذي علمه الله عز وجل للإنسان هو العلم بالأشياء والقدرة على كشفها واستجلائها ومعرفة حقيقتها كانت الآيات التالية بعد : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ هي كلها آيات كونية وطبيعية خالصة .

فالله عز وجل يقول للإنسان إنه هو الذي منحه هذا العلم وهذه القدرة على الكشف ، ثم يوجهه إلى الوجهة التي ينبغي له أن يضع فيها هذا العلم وهذه القدرة لاستجلائها وكشفها ومعرفتها :

﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴾(الرحمن:٤-١٢)

فهذه كلها ، وهي مظاهر الكون والطبيعة ، متعلقة بـ : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ ، إذ هي موضوع هذا العلم وهذه القدرة ومحل استخدامها .

فالله عز وجل علم الإنسان ثم هو يرشده إلى الموضع الذي يجب أن يضع فيه علمه ، أو وهو عز وجل يهديه إلى الوجهة والميدان الذي يناسب علمه الذي منح له وخلق به من أجل استبيانها واستخدامه فيها .

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن:١٣)

كما قلنا ونقول ولا نمل من القول : التفسير الإسلامي القرآني للأشياء تفسير نسيج ، تتشابك خيوطه وتلتقي ، ويأخذ بعضها بأطراف بعض ويلتحم ، وهو ما يمنح التفسير القرآني قوته ونفاذه في العقل والنفس واطمئنانهما إليه ، فلا اضطراب ولا تناقض ولا بعثرة ، ولا تضارب بين الأشياء أو إيقافها في مواقف متقابلة .

وحدات التفسير القرآني كلها محكمة منظمة متجانسة ، في تناسق بديع ، يفضي فيه تفسير كل وحدة إلى الأخرى ويمنحها قوتها في موضعها ، ويمنح التفسير كله قبوله في العقل والنفس ، ومطابقته لصفة الحقيقة وعلامتها فيهما : الوضوح والبساطة والنظام والتناسق .

ولو أردنا شيئًا نشبه المنظومة القرآنية به ، لكان أحد آثارها في العقل والنفس التي أنتجته ، الزخارف الفسيفسائية البديعة الجميلة التي تتكون من وحدات صغيرة تتصل وتتداخل وتتلاقى ، لتكون وحدة واحدة لاحد لروعتها ولا لقدرتها على أسر البصر والنفس داخلها ، والتي انفرد بها الفن الإسلامى كتعبير عن الإحكام والنظام والتناسق والانسجام الذي جاء به القرآن كنص محكم ، وما جاء به من انسجام وإحكام في أحكامه وشرائعه وتنظيمه للحياة ، وما جاء فيه من نظم صوتي واتساق لغوي ، وما جاء به من تفسير مترابط متناسق مفهوم للوجود .

النقلة ، الثورة التي جاء بها القرآن إذًا في تفسير علاقة العلم بالله عز وجل وبالإنسان هي أن العلم هبة من الله عز وجل للإنسان ، والإنسان انفرد بهذا العلم دون الخلق أجمعين واختص به وحده ، وهذا العلم هو فطرة في الإنسان وماهية له ، وهو أصل في خلقه وتكوينه .

بقي خيط واحد نعود به إلى البداية ، هذا الخيط هو الذي يكتمل به النسيج وتتضفر أطرافه ليصبح وحدة واحدة تختفي فيه الخيوط ويحل هو محلها ، ليكون هذا التفسير النسيج هو ما يحكم العقل المسلم في رؤيته للعلم .

هذا الخيط هو : لماذا منح الله عز وجل الإنسان العلم بالكون والطبيعة والخلق ، ولماذا انفرد الإنسان بهذا العلم واختص به وحده دون باقي الخلائق ، ولماذا كانت إحدى نقلات القرآن للبشرية هي تصحيحه لمعنى العلم بالكون والطبيعة ولمفهومه بعد أن صحح أمامها حقيقة الكون ونظام الطبيعة نفسها؟

السبب في ذلك أن الإنسان هو المختص وحده بالتعرف على الكون والمخلوقات ، فالله عز وجل خلق الإنسان لمهمة هي أن يكون خليفة له في الكون والخلق ، وهذه الخلافة تعني تسيير كل شيء في الوجود بأوامر الله عز وجل ومنهجه وحسب ما يريد سبحانه منه ، ولكي يتمكن الإنسان من أداء مهمته وإنجاز الخلافة في الأرض التي خلق من أجلها ، منحه الله عز وجل من القدرات وزوده من الوسائل ما يعينه ويستطيع به أداء مهمته والقيام بها .

فوهبه سبحانه العلم وزوده بوسائله ليتعرف على الكون الذي هو مستخلف فيه : ما هو ، وكيف نظامه ، وما يحكمه من قانون ونظام ، وما هو مخبوء فيه ومركوز من إمكانات لتكون عونًا له في مسيرته ومهمته ، وليعرف المخلوقات التي هو مستخلف عليها ومسؤول عنها : ما هي ، وما العلاقة بينها وبينه ، وكيف تعيش ، وما هي وظائفها وما تفعله في الأرض ، وكيف هي مسخرة له ، وما الذي يمكنه أن يفعله بها ، إذ كيف يُسَيِّر الإنسان كونًا لا يستطيع معرفته ، وكيف يقود مخلوقات ليس عنده علم بها؟

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس:١٠١)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(ق:٦،٧).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (النور:٤٣).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(الزمر:٢١).

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الغاشية:١٧-٢٠).

فالله عز وجل زود الإنسان بالعلم ، أولاً لكي يعرف الكون المستخلف فيه والمخلوقات المستخلف عليها حتى يتمكن من إنجاز مهمته : الخلافة العبادة ، وثانيًا : كان هذا العلم من الله عز وجل للإنسان سلطانًا مُنح له ليتمكن من السيطرة على هذه المخلوقات واستخدامها واستغلال تسخيرها له في الانتفاع بها ، وهو تذليل لمهمته وعون له لإنجازها .

فالعلم ممنوح للإنسان لكي يطبقه على ما عرف من الكون والخلائق ويقودها به ويستعين به في مسيرته على الأرض ومهمته فيها .

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ

فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل:٥-١٦).

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥).

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ (عبس:٢٤-٣٢).

ومع معرفة الكون والخلائق ، وقبل تطبيقه لمعرفته عليهم واستغلاله لها في مسيرته ومهمته ، مُنح العلم ووهب له ليعرف نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من قدرات ووسائل سيادة وسلطان ووسائل كشف وعلم ، ليستخدمها في مهمته الاستخلافية ، وليطورها ويورثها من جيل إلى جيل في البشرية حتى تتحقق وتكتمل مهمة الخلافة التي وجدت البشرية من أجلها .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (الطارق:٥).

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات:٢١)

وقبل أن يعرف الكون والخلق ويعرف نفسه ، مُنح له العلم ليكون مرشدًا له وهاديًا حين ينظر في الكون والخلق ويرى دقة النظام وبديع التناسق والإحكام إلى الخالق ووحدانيته وطلاقة قدرته وكمال صفاته ، ولكي يظل على اتصال بالملأ الأعلى حتى لا ينحرف عن مهمته أو يسيء فهم المراد منه فيها .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢٢)

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (آل عمران:١٩٠)

إذًا هذا هو جواب السؤال : منح الله عز وجل الإنسان العلم ، وانفرد به هو دون باقي الخلائق ، لأن العلم هو وسيلته في التعرف على محل مهمته ، وهو قدراته الممنوحة له لإنجازها ، وهو سلطانه في تسخير المخلوقات والانتفاع بها ، وهو طريقه لمعرفة نفسه وما أودع الله عز وجل فيه من وسائل وقدرات لإنجاز مهمته ، وهو النجم الذي يهديه في أثناء مسيرته إلى الخالق ووحدانيته ويذكره دائمًا بمهمته .

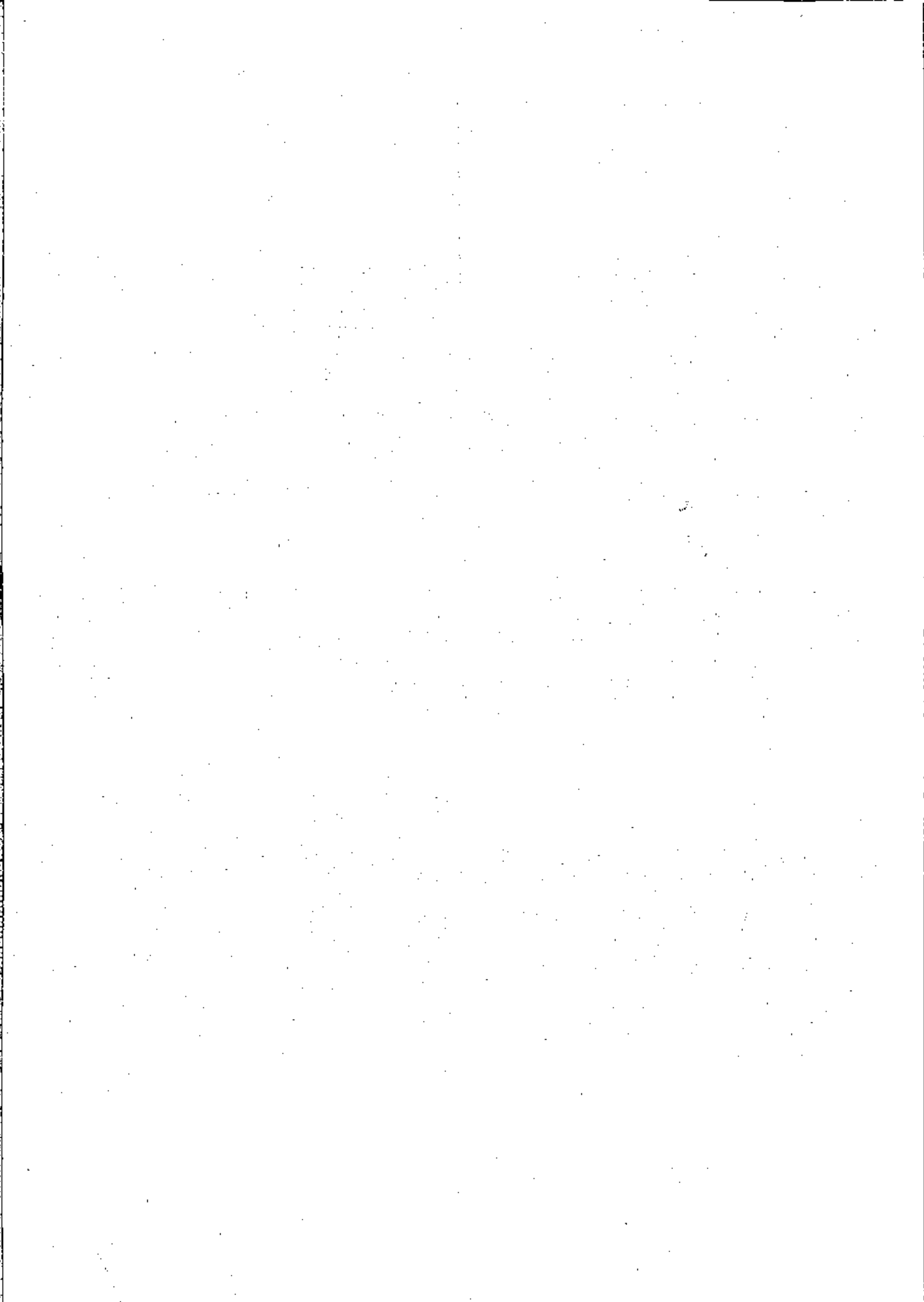
ولهذا أيضًا كان حرص القرآن على تصحيح صورة الكون والطبيعة ، وتصحيح مفهوم العلم ومجراه ، وإعادة كل منهما إلى حقيقته وتصحيح نظرة البشرية له ، القرآن بذلك كان يصحح في ذهن البشرية حقيقة الكون والطبيعة محل مهمتها : الخلافة ، ويصحح مفهوم العلم المتصل بهذا الكون والطبيعة ومجراه لأنه وسيلة إنجاز المهمة .

وبدون هذا التصحيح لمحل المهة ووسيلتها وإرشاد القرآن لحقيقتهما ، لظلت مسيرة البشرية متعثرة تتخبط في طريق لن تتقدم فيه خطوة واحدة ، لأنه ليس ميدانها ولا مهمتها ولا ما هي مؤهلة له ، ولا الوسيلة التي كانت تستخدمها في هذا الميدان هي وسيلة الإنجاز والإثمار فيه .

البشرية كانت تضع وسيلة للمعرفة تملكها في غير موضعها ، فجاء القرآن لبيان حقيقة الموضع وتصحيح صورته ، وليرشد الإنسان إلى الوسيلة الصحيحة المناسبة للتعامل معه .

إذًا إحدى نقلات القرآن للبشرية وأحد وجوه تصحيحه لمسيرتها هو بيانه لوسائل المعرفة الإنسانية وتصحيحه وتنظيمه للعلاقة بينها .

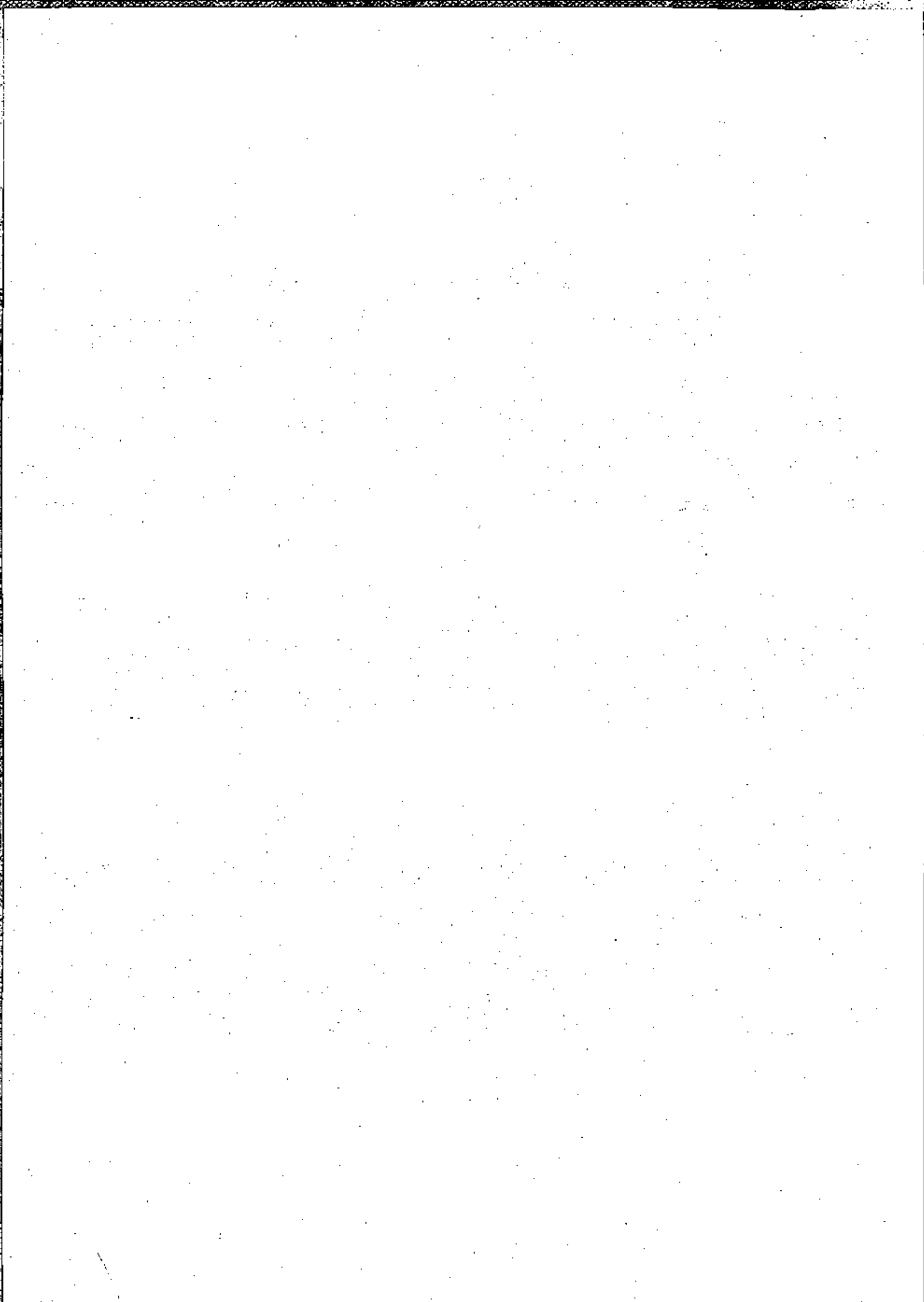
* * *



الفصل التاسع

وسائل المعرفة

- مشكلة وسائل المعرفة
- المنظومة الإسلامية لوسائل المعرفة
- ما هى وسائل المعرفة
- أنواع العلم ووسائل المعرفة
- آثار التصحيح القرآني لمعنى العلم الطبيعي وتنظيمه لوسائل المعرفة
- مولد العلم التجريبى



مشكلة وسائل المعرفة

وسائل المعرفة المختلفة التي يمتلكها الإنسان ، والعلاقة بينها ، ودور كل وسيلة ، وميدانها الذى يناسبها هي إحدى مشكلات البشرية الكبرى منذ أن عُرف لها تاريخ .

وهي إحدى المسائل التي احتشد لها الفلاسفة قديمًا وحديثًا ، وتعاركت حولها النظريات الفلسفية والمناهج العلمية ، وقامت المدارس تبغي حل هذه المشكلة العويصة التي تبدو وكأنه لا حل لها .

وهي أيضًا إحدى المسائل التي تكون الإجابة عليها جزءًا من رؤية الإنسان وتصوره للوجود كله ومقدار ما يعتبره أو يدخله منه في نطاق الحقيقة .

الإنسان مفطور في نفسه على العلم والمعرفة ، ويجد في نفسه تطلعًا للبحث والتساؤل ، وهو يريد أن يهتدي إلى إجابات عما يسأل عنه ، إجابات مقبولة مفهومه تخاطب كينونته ووجوده كله ولا تمزقه أو تجعله متضارب المكونات ، فيمكنه بذلك أن يستريح وتقر نفسه ويهدأ عقله ويعرف ما يختص بحياته ووجوده وما يحيط به .

قد يقول قائل : أين هي المشكلة بالضبط ؟ الإنسان له عقل ، وله حواس وخبرات يكتسبها من الحياة ومما يحيط به ، وكل تجمع في البشرية كان له صفوة يتعرف منها على ما هو خارج نطاق العقل وفوق قدرات الحواس : إطار الحياة وغاياتها ، سواء كانت الصفوة عقائدية أو علمية أو فلسفية .

ونقول : هذه بالتحديد هي المشكلة .

فالإنسان منذ وعى وجد نفسه أمام وسائل وقدرات متعددة يمتلكها ، فهو ذو عقل قادر على التفكير والربط والاستنتاج وتوليد الأفكار وبناء النظريات ، وهو أيضًا يمتلك من الحواس ما يرى به ويسمع ويجمع ما يراه حوله من ظواهر

الكون ومظاهر الطبيعة أو المجتمع والناس ، والإنسان في كل عصر كان له عقيدة ودين ، حقًا كان أو باطلاً ، يرسم له صورة ويعطيه معرفة تضيق أو تتسع حسب رغبة القائمين عليها وتصورهم .

العقدة في وسائل المعرفة والمشكلة التي تبلبلت فيها البشرية هي : أي وسيلة من هذه الوسائل هي الوسيلة الفعالة المؤدية إلى معرفة حقيقية ، وأي وسيلة منها يجب على الإنسان أن يستخدمها وكلها معه وتحت طوعه ، وما هو الموضع الذي يناسب كل وسيلة من وسائل المعرفة التي يمتلكها الإنسان لتوضع فيه ولا توضع في غيره حتى لا تؤدي إلى الوهم أو الخطأ ، وهل تصلح وسيلة من وسائل المعرفة وحدها للعلم بكل شيء ، وهل يمكن الاكتفاء بوسيلة معرفة عن الأخريات؟

البشرية واجهت في وسائل المعرفة مشكلتين :

المشكلة الأولى هي : ما هو الميدان المناسب والمجال الذي تختص به كل وسيلة من وسائل المعرفة ، أو ما هي وسيلة المعرفة الصحيحة لكل مجال من مجالات العلم والمعرفة؟

والمشكلة الثانية : ما هي العلاقة بين هذه الوسائل المتعددة ، وكيف يمكن إيجاد علاقة منظمة بينها تضع كلاً منها في مجاله الذي يناسبه ، لنصل في النهاية إلى تناسق وانسجام بين وسائل المعرفة بدلاً من التضارب والتنافر أو إلغاء بعضها بالبعض الآخر ، ثم ليكون هذا التناسق والانسجام فعالاً في استخدام وسائل المعرفة ومؤديًا إلى معرفة حقيقية وارتقاء في علم الإنسانية وإدراكها؟

ولكي نعرف النقلة الحضارية التي أوجدها القرآن فيما يختص بوسائل المعرفة ، وما أتى به من منظومة متناسقة واضحة لوسائل المعرفة وتنظيم للعلاقة بينها لكي تصبح متعاضدة في وحدة واحدة وتؤدي مهمة واحدة ، تختص فيها كل وسيلة معرفة بجزء ومجال منها في انسجام وإحكام ، لكي

نعرف لابد أولاً من إلقاء نظرة سريعة على كيفية فهم البشرية وتعاملها قبل القرآن وبعده في غير أهله مع وسائل المعرفة المتعددة التي يمتلكها الإنسان ، والتي من تعددها يضطرب بينها ويكاد يتوه فيها ولا يعرف كيف يفصل بينها وينظم علاقاتها .

قبل المسيحية وقف العالم الإغريقي أمام وسائل المعرفة المتعددة التي يمتلكها الإنسان فلم يعجبه منها سوى العقل .

والعقل وسيلة معرفة إنسانية فعالة وأداة ارتقاء كبرى ، ولكن العقل كوسيلة معرفة له دور ومجال ، إذا تخطاه كان وبالاً على أهله ، وكان حطًا وإزراءً به هو نفسه ، فوضع العقل في غير موضعه واستخدامه في غير مجاله كتعليق جوهرة ثمينة في صدر عنز!

افتتن الإغريق بالعقل واختاروه ، ولم يعرفوا أو رفضوا كل وسيلة للمعرفة الإنسانية سواه ، فوضعوه في كل شيء قابلهم وجعلوه حكمًا وفيصلاً في كل ميدان ، فما تخيله وتصوره وقعده ونظره هو عندهم الحقيقة المطلقة ، وكل ما عداها باطل وإن كان الإغريقي يراه بعينيه ، وما لا يراه بعينيه لا يكلف نفسه مجرد النظر إليه للتيقن منه أهو كما رسمه عقله وتخيله أم لا .

ولأن العقل في غير موضعه كدرة في صدر عنز ازدهر الإغريق وبرزوا وأنجزوا في المجال الوحيد الذي يصلح العقل وحده أن يكون وسيلة المعرفة فيه ، وهو ميدان العلوم النظرية أو التصورية ، فـ : « **كانت أعظم الإنجازات العقلية التي توصل إليها اليونانيون هي تلك التي تمت في ميدان الفلسفة والرياضيات** »[1].

والفلسفة نتحفظ عليها كثيرًا ، فأن يجلس أحد في غرفة أو تحت شجرة ثم يقوم بتخيل صورة للوجود والكون والخلق والإله لا تمت للحقيقة بصلة ولا أثر لها على الإطلاق في مسيرة البشرية ورقيها في أى مجال لا يسمى

---

(١) التفكير العلمي ، ص١٣١ .

إنجازًا ، بالغة ما بلغت درجة التعقيد والتركيب الذي أوجد فيه هذا الأحد هذا النسق .

أما الرياضيات فنعم كانت هي ، بحكم مناسبة وسيلة المعرفة التي اعتمدوها لهذا المجال ، ما أنجزوا فيه ، ولكن ليس كل الرياضة وإنما ما يتعلق منها فقط بالتخيل العقلي والقدرة على التصور وملء الفراغ ، أي الجزء من الرياضيات الذي يكون فيه التقدم باستخدام العقل وحده ، وهو الهندسة .

أما الجزء الآخر من الرياضة المتعلق بالأرقام والحساب : «**فكان بالنسبة لليونانيين ترفًا فكريًا محضًا**»[1].

وكلمة : حساب في أصلها الإغريقي ، كما ذكرنا ، تعني اللعب أو اللهو بالأعداد الذي لا يليق إلا بالباعة في الأسواق أو البرابرة .

وما عدا هذا المجال ، الهندسة ، الذي هو المجال الوحيد الذي وضع فيه الإغريق وسيلتهم للمعرفة وكان مناسبًا لها فأنجزوا فيه ، ما عدا هذا المجال لم يقدم الإغريق للبشرية شيئًا حقيقيًا يسهم في رقيها في أي مجال آخر ، لأنه لا يوجد مجال آخر يمكنه التقدم والرقي بالعقل كوسيلة معرفة وحيدة .

وضع الإغريق العقل في مسألة الألوهية فوصلوا إلى أن الصورة التي يجب أن يكون عليها الإله هي ما ذكرنا : الساكن المستقر في الجزء العلوى من الكون ، الذي لا يتحرك لأن الحركة قصور ، وهو يحرك العالم إليه بمغناطيسية الشوق والمحبة .

ووضعوا العقل وحده كوسيلة معرفة في التعامل مع الكون والطبيعة والمخلوقات ، فلم يكلف أرسطو نفسه حين حكم أن عدد الأسنان في فك المرأة أقل منها في فك الرجل أن يعد هذه وتلك ، وكذا جالينوس حين جزم أن الفك السفلي يتركب من عظمتين لم يكلف نفسه أن ينظر إلى ما يجزم به ليتقين منه ببصره .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٣٢ .

ولا نظر الإغريق إلى الكون ولا راقبوا حركة أفلاكه ، ولا خطر لهم ذلك وهم يصفونه ويضعونه على تلك الصورة المجزءة التي وضعوه عليها ، يكفي فقط تصورهم العقلي الذى يرسمونه ، وعلى الكون أن يكون كما تصورت عقولهم ، فإذا ما تعاملوا مع ظواهر الطبيعة : «**جردوا اللون والحرارة والرائحة والوزن ومقدار الضوء والسرعة في الحركة من كل الصفات والمواصفات التي تقدمها لهم الحاسة**»[1].

فالإغريقي حين يتعامل مع ظواهر الطبيعة يحولها إلى أفكار نظرية مجردة لا علاقة لها بما يراه أو تكشفه حواسه ، لذلك جاء علمهم الطبيعي والكوني ، كما يقول ديورانت : «**كتلة من الملاحظات الفجة عسيرة الهضم ، وبينما كانت الفلسفة اليونانية تتقدم في النظريات والاستنتاجات كان العلم يتخلف وراءها**»[2].

إذًا الغرب قبل المسيحية اعتبر العقل وسيلة المعرفة الوحيدة ووضعها في كل مجال واقتحم بها كل ميدان وصادر بها كل وسائل المعرفة الأخرى ، فانتهى إلى تصور مضحك للألوهية والعقائد ، وإلى فشل في فهم الكون والتعامل معه ، وإلى صورة وهمية نظرية للطبيعة ، وظلت البشرية وحياتها ، كما قال لويس برنال ، بعد أن عبر الإغريق والرومان العالم كما كانت قبلهم لآلاف السنين .

وبعد أن وضعت المسيحية البابوية قبضتها على الغرب ، أو بدقة وضعت الإمبراطورية الرومانية قبضتها عليه وعليها ، وقفت المسيحية من وسائل المعرفة الموقف نفسه الذي وقفه الغرب قبلها .

وقف الغرب بردائه المسيحي هذه المرة أمام وسائل المعرفة المتعددة ، فاختار وسيلة وحيدة اعتمدها وصادر بها وسائل المعرفة الأخرى جميعها ، واعتبر كل معرفة عن غير طريق هذه الوسيلة باطلة وخطيئة تستوجب العقاب .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص ١٢٧ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص ١٢٠ .

الفرق بين الغرب الإغريقي والغرب المسيحي أن الغرب الإغريقي اختار العقل وحده والغرب المسيحي اختار النص وحده ، أو لو شئنا الدقة اختار التعاليم الكنسية وحدها .

كانت مشكلة الإغريق هي افتقادهم للوحي والإرشاد الإلهي واستعلاءهم على الحواس ، فأصبحت مشكلة المسيحية هي وجود نص قلق به فجوات عديدة تم ملؤها بالتلفيق والتحريف والتعديل ليتناسب التلفيق هنا مع التلفيق هناك ، ثم تعديل التعديل وهكذا ، حتى صار النص التوراتي الإنجيلي نصًا متهرئًا مليئًا بالثغرات ويستطيع أي ناشئ يقلب فيه أن يكتشف التضارب الذي يحويه ومخالفته للحقائق المرئية المحسوسة وللحقائق العقلية الملموسة وعدم قدرته على تقديم تفسير مفهوم مقنع لأي شيء[1] .

لذلك لم يكن ثمة مفر أمام الكنيسة والبابوات للحفاظ على سلطانهم وضمان ولاء الأتباع سوى إشاعة الجهل وضرب حجاب كثيف حول المعرفة ، إذ لا سبيل أمامها لحماية النص من نقده وكشفه سوى ذلك .

فعملت الكنيسة بسيطرتها على الملوك والحياة الاجتماعية على تحجيم الغرب كله وبناء خندق حوله يمنعه من معرفة الحقيقة والخروج عليها ، فعلى الصعيد الجغرافي تبنت نظرية بطليموس التي تجعل المحيط الأطلنطي خضمًا هائلاً لا شيء خلفه ، وتجعل إفريقيا أرضًا يابسة ممتدة لا نهاية لها لتضمن بذلك انحصار رعاياها بين المحيط الأطلنطي والمحيط الإسلامي وعدم قدرتهم على الخروج والاحتكاك بالعالم الخارجي .

وعلى الصعيد الفكري والعقلي حجمت الكنيسة والبابوات المعرفة وقلصتها إلى أدنى درجة ممكنة في كل مكان حلت فيه ، كما تقول زيجريد هونكه ، وعملت على إشاعة الجهل ومنع القراءة والاطلاع ، حتى الإنجيل والتوراة كان ،

---

(١) عن التضارب بين نصوص التوراة والأناجيل ومخالفتها لحقائق العلم والعقل والتاريخ انظر : موريس بوكاي : القرآن والإنجيل والتوراة والعلم .

وما زال ، يحرم قراءتها كاملة ، فالمسيحي المؤمن الملتزم بتعاليم الكنيسة يقرأ فقط ما يختاره القس ويقدمه له .

والقساوسة أنفسهم كانوا لا يستطيعون القراءة والاطلاع إلا على كتب وقوائم بعينها ليس لهم أن يتعدوها ، بل كان كثير منهم يجهل القراءة والكتابة تمامًا ، حتى أن : « **كثيراً من المطارنة كانوا لا يقدرون أن يوقعوا لوائح المجالس التي كانوا أعضاء فيها** »[1]!!

ويمكن أن نتصور حالة عامة الناس كيف كانت إذا كان هذا هو علم المطارنة وثقافتهم ، وهم الخاصة والصفوة في ذلك الزمن .

إذًا لم يكن هناك مفر أمام الكنيسة وبابواتها من إلغاء أي طريقة ومصادرة أي وسيلة للإنسان يمكن أن يعرف بها حقيقة جغرافية أو كونية تهز سلطان النص والكنيسة ، ولم يكن أمامها بد من ضرب الحصار على أي وسيلة يستطيع بها الإنسان أن يكتشف تضارب النص واختلاطه .

وجدت الكنيسة والقائمون عليها وعلى العالم الذي تقف على رأسه أن الوسيلة الوحيدة لتثبيت النص والسلطان هي إلغاء كل وسائل المعرفة الإنسانية جملة واحدة ! فلا فائدة من الحواس ، والطبيعة والكون الذي تتعامل معه الحواس شر وعفن ، ولا طائل من وراء العقل إذ لم يجن الإنسان من ورائه سوى المعرفة ، وهي الخطيئة التي لعن بسببها وعوقب بالضنك في الأرض .

ولما كانت المعرفة والكشف عن الأشياء والرغبة فيها مكونًا إنسانيًا وماهية بشرية ، أحلت الكنيسة تعاليمها مكان وسائل المعرفة التي أزاحتها وصادرتها ، فأصبحت المعرفة الوحيدة الممكنة هى ما يأتي عن طريقها وبإرشادها ، وفي كافة المجالات والميادين .

فالكنيسة هي التي تحدد شكل الكون وترتيبه ، وهـي التى ترسم جغرافية الأرض وتضاريسها ، وهي التي ترفع الملوك وتسقط العروش وتتحالف مع

---

(١) أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ص٢٤٧ .

الدول ، وهى التي تشن الحروب الصليبية التي دشنها البابا أوربان الثاني لأن هذه هي إرادة الرب ومشيئته !

وصار كل ما تقوله الكنيسة وما يفعله باباواتها وحيًا مقدسًا وجزءًا من النص لا ينبغي لأحد مناقشته أو التفكير فيه ، وإذا تجرأ أحد على ذلك كان هذا الوحي المقدس نفسه كفيلاً بالرد وإعلان عصمة البابا وكل من ينوب عنه وتمثيله للإله على الأرض(*).

إذًا ما زال الموقف كما هو ، تبني وسيلة معرفة وحيدة تصادر بها كل وسائل المعرفة الأخرى وينحصر العلم بكل شيء فيها : العقائد والطبيعة والكون والأخلاق والقانون .

وانعتق الغرب من إسار الكنيسة والبابوات وخرج من قمقمها وخندقها بالعلم الذي أخذ مناهجه وصورته القرآنية المصححة من تطبيق المسلمين له .

وبهذا الانعتاق أصبح الغرب أمام مشكلة لابد لها من حل ، فقد كانت التعاليم والكنيسة هي مصدر المعرفة الوحيد ، والآن تفكك هذا المصدر وصار غير أهل لأن يدلي بدلوه فى أي نوع من أنواع المعرفة ، ولا حتى المعرفة العقائدية وما يختص بالألوهية والدين ، فكان لابد من البحث عن وسائل للمعرفة ومصادر لها تملأ الفراغ الذي نشأ بإزاحة الكنيسة وتعاليمها كمصدر للمعرفة .

وبدأ الغرب رحلة طويلة وقامت المدارس وتحزب الفلاسفة والعلماء ، كلٌّ يدلي بدلوه في الفراغ الجديد ويضع تصورًا لوسيلة المعرفة التي يمكن أن تسد هذا الفراغ وتعطي معرفة صادقة بكل شيء ، كل شيء .

(*) في مواجهة حملات النقد العنيفة الموجهة للكنيسة الكاثوليكية في القرن التاسع عشر أعلن المجمع المسكوني الأول الذي تم افتتاحه في ديسمبر ١٨٦٩م عصمة البابا من الخطأ باعتباره ممثلاً للإله على الأرض!! انظر تفاصيل المعارك بين الكنيسة ونقادها في القرون الأخيرة فى : دكتورة زينب عبد العزيز : هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة .

واختلفوا ما اختلفوا وتباينوا ما تباينوا ولكنهم اتفقوا على شيء واحد ، ألا وهو مصادرة الكنيسة والنص التوراتي الإنجيلي كمصدر للمعرفة ، والبحث عن وسائل المعرفة الحقيقية بالأشياء كلها في الإنسان والطبيعة فقط .

وبعد هذا الاتفاق المبدئي على إلغاء النص والكنيسة كمصدر للمعرفة تفرقوا واختلفوا ، وانتهوا في اختيار الوسيلة الحقة للمعرفة الحقيقية إلى أربع مدارس .

١- الحواس :

الحواس هي ما انتهى الفلاسفة التجريبيون ، كجون لوك ، إلى أنه مصدر المعرفة الحقيقي والوحيد للإنسان ، فالعقل حين يولد الإنسان كما يقول جون لوك : **« يكون أشبه بصفحة بيضاء خالية من كل شيء ، ثم تأخذ الحواس والتجارب في الكتابة على هذه الصفحة إلى أن تلد الذاكرة ، والذاكرة تلد الآراء »**[1].

وطالما أن المعرفة لا تأتي إلا عن طريق الحواس : **« فلو أقفلت أبواب الحواس واحدًا بعد الآخر لا متنعت المعرفة جانبًا بعد جانب ، حتى تمتنع المعرفة كلها إذا أقفلت الأبواب كلها »**[2].

« ولما كانت الأشياء المادية وحدها هي التي تؤثر على الحواس ، فإن الإنسان لا يعرف شيئًا إلا المادة . وإذا كانت الحواس هي وسائل الأفكار فإن المادة بالضرورة هي التى يستمد منها العقل أفكاره وآراءه »[3].

إذا انتهى الفلاسفة التجريبيون إلى اعتماد الحواس كمصدر حقيقي وحيد للمعرفة الإنسانية وصادروا بها كل وسائل المعرفة الأخرى : النص والتعاليم والعقل الذي لم يعد له وجود حقيقي ، أي هو في حقيقته وجوهره الموقف

---

(١) قصة الفلسفة ، ص٣٢٠ .

(٢) دكتور زكى نجيب محمود : نظرية المعرفة ، ص٥٣ .

(٣) قصة الفلسفة ، ص٣٢٠ .

والمنهج الإغريقي المسيحي نفسه : الانحياز لوسيلة معرفة ومصادرة غيرها من الوسائل وإلغائها بها .

٢- العقل :

العقل هو المصدر الوحيد والمعتمد كوسيلة لمعرفة الحقائق عند العقلانيين ، أصحاب المذهب العقلي ، وهؤلاء وقفوا على الجانب المقابل من التجريبيين ، فالعقل عندهم هو مصدر المعرفة الوحيد ، أما الحواس والمعرفة التي تأتي عن طريقها فهي عندهم ناقصة وغير حقيقية ، لأنها تفتقد شرطين هما اللذان يجعلان المعرفة معرفة ، وهما أن : «**المعرفة الحسية ليست ضرورية ، فلا يتحتم أن تكون المعلومات الآتية إلينا من الحواس على ما هى عليه في الحقيقة ، كما أنه لا يمكن تعميم هذه المعرفة إلا بالإحصاء والمشاهدة ، وهذه قد تتغير نتائجها**»[1].

وإذًا المعرفة الحقة أساسها العقل الذي يدركها إدراكًا مباشرًا ، وإذا كان التجريبيون قد محوا العقل ، فإن العقلانيين ليسوا بأقل منهم كفاءة واقتدارًا ، فقد ردوا عليهم بمحو المادة ، فكما يقول جورج بركلي : «**أصبحت جميع أنواع المادة حالة عقلية أو حزم عقلية**»[2].

مرة أخرى ، التشبث بمصدر وحيد للمعرفة وإلغاء كل ما سواه ، ومن ثم انتهى البحث في وسائل المعرفة التي يمكن أن يصل بها الإنسان إلى علم حقيقي ومعرفة يقينية مؤكدة إلى أن هدم العقلانيون المادة ومحوها من الوجود ، وهدم التجريبيون العقل فلم يعد له وجود حقيقي ، وهدما معًا العقائد والتعاليم !!

فانهار على يد هؤلاء العقل ، وانهارت على يد أولئك المادة ، وانهار على

---

(١) نظرية المعرفة ، ص٧٠ .

(٢) قصة الفلسفة ص ٣٢١ .

أيديهما معًا الدين والعقيدة ، ووجدت الفلسفة نفسها ، كما يقول ول ديورانت ، وسط أنقاض خربة قوضتها بنفسها ودمرتها بيدها !

٣- العقل والحواس :

« **في هذا الإطار الباعث على اليأس** »[١] الذي انهارت فيه كل وسائل المعرفة ، فهدم البعض العقل وهدم البعض الآخر المادة ، وهدموا معًا الدين والعقائد والنفس والروح ، ظهر الفلاسفة النقديون وعلى رأسهم عما نويل كانط لمحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

جمع كانط بين العقل والحواس كمصادر للمعرفة ، فوفق بذلك بين الماديين التجريبيين وبين العقلانيين الذاتيين ، وكان هذا التوفيق والجمع يقوم على أن : « **معرفة الإنسان يستحيل أن تتجاوز حدود خبرته الحسية ، إلا أن هذه الخبرة الحسية نفسها لابد لها من إطارات أو قوالب أو مقولات تكون فطرية في طبيعة العقل لتشكل الخبرة الحسية على غرارها** »[٢] .

فالعقل هو الذي : « **يستقبل الإدراكات الحسية ويرتبها ويسكبها ويصوغها إلى مدركات فكرية منظمة** »[٣] .

إذًا انتهى التوفيقيون بين العقل والحواس إلى أن العقل هو القالب الذي يحدد المعرفة ويشكلها ، بينما المعرفة نفسها أو حشو القالب حسي لا يأتي إلا عن طريق الخبرة والتجربة الحسية ، ونجحوا لأول مرة في الجمع بين العقل والحواس والتوفيق بين وسيلتي معرفة معًا في وقت واحد ، فلا تنفي إحداهما الأخرى .

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٢٦ .

(٢) نظرية المعرفة ، ص٧٧ .

(٣) قصة الفلسفة ، ص٣٤١ .

فهل انتهت المشكلة وتمكن الغرب بذلك من الوصول إلى تنظيم لوسائل المعرفة وتنسيق بينها واستخدامها فيما ترتقي به البشرية على جميع الأصعدة وما تحل به مشاكلها ؟

أبداً !!

لماذا ؟

لأن هؤلاء اتفقوا مع سابقيهم على إلغاء التعاليم الكنسية ومصادرة النصوص واللاهوت كمصدر للمعرفة .

قد يقال : وماذا فى ذلك ، هذا تطور طبيعي ، ألم يكتشفوا تلفيقها وتضاربها ؟

ونقول : في ذلك أنه لم تعد ثمة وسيلة للمعرفة يمكن بها معرفة العقائد ، والألوهية ، ومعنى الإنسان ، ومن أين جاء ولماذا ، وتحديد معيار الأخلاق والقيم الإنسانية ، وميزان التفرقة بين الخير والشر ، أو بإيجاز : كل الأسئلة التي لا يتحقق وجود الإنسان واستقراره إلا بمعرفتها .

فهذه كلها مما لا سبيل إلى إدراكه ولا معرفته بالحواس ولا بالعقل ولا بهما معًا ، وهو ما قرره كانط نفسه ولم يستطع إيجاد حل له .

٤- الحدس :

قد يثور سؤال : ما وضع العلم الطبيعي وسط هذه التناقضات والمذاهب المتضاربة ؟

الحقيقة أن الغرب منذ اكتشف العلم واستمسك به لم يتركه ، وظل هو المشكِّل والمكون الحقيقي لكل رؤى الغرب وتصوراته وفهمه للوجود ، وحين يختلف الغربيون فإن اختلافهم لا يؤثر في مسيرة العلم الطبيعي المطرد بالتراكم ، والقائم على التجربة والعقل ، سواءً أقروا بهما أو أنكروهما .

إذًا ما المشكلة ، العلم يتقدم وآثاره تتراكم وليقل الفلاسفة العائشون في الأبراج ما يقولون طالما أن ما يقولونه لا يؤثر في المسيرة؟!

والأمر ليس بهذه البساطة ، لأن تنظيم وسائل المعرفة ووضع كل منها في موضعه أمر ضروري لاستقامة حياة الإنسان ، لأن الإنسانية ليست علومًا طبيعية فقط ، بل هي علوم طبيعية ، وهي في الوقت نفسه عقائد وأخلاق وقوانين وعلاقات اجتماعية ونظم حكم .

وما حدث أنه نتيجة لانتفاء التنظيم والتنسيق بين وسائل المعرفة كان العلم يتقدم بصورة مطردة على حساب جوانب الإنسانية الأخرى كلها ، فكان من الطبيعي أن يرتفع الاعتراض على العلم الطبيعي من كل جانب : «شعراء **وفنانون وكتاب أزعجهم عقم الوصف العلمي للعالم ، فعارضوا العلم بالعاطفة وبالحياة وبالدين معلنين أن هناك طرقًا أخرى غير طرق العلم للوصول إلى الحقيقة**»[1].

وما يعنينا هو الثورة على وسائل المعرفة العلمية الجامدة وظهور الحدس أو البصيرة كمصدر للمعرفة ، فيرى أصحاب هذا المذهب ، وعلى رأسهم هنري برجسون ، أن : «**العقل والحواس آلات للتجزئة ، والغاية منهما تيسير الحياة لا تصوير الوجود وفهمه ، أي أنها تتناول الوجود في ظاهره ولكنها لا تنفذ إلى باطنه ، وإذًا ليس العقل ولا الحواس هما الأداة الصالحة لإدراك الحياة لأن هذا مطلب فوق مقدورهما**»[2].

فما هي الوسيلة لمعرفة الحقيقة إذًا ؟

هي ، كما يقول برجسون : «**عدم الوقوف عند الجانب المنظور من**

---

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٢٩ .

(٢) قصة الفلسفة ، ص٥٦١ .

الشيء المراد معرفته ، بل الغوص إلى الأعماق واجتياز الظواهر الخارجية لإدراك الجواهر الباطنة إدراكًا مباشرًا»[1]

فالحدس : «هو الذي يظهر لنا الحقيقة الحقيقية ، لأنه يعمل في نفس الاتجاه الذي تعمل فيه الحياة ، أما الذكاء والعقل فإنه يعمل في الاتجاه المعارض»[2].

وبهذه الطريقة يمكن معرفة كل ما وراء ظواهر الطبيعة ، كالإله ، وخلود النفس ، والحياة بعد الموت ، والأخلاق والقانون .

ورغم ثورة برجسون على كل وسائل المعرفة الميكانيكية إلا أنه اتفق مع الآخرين في أن النص والتعاليم ليست مصدرًا للمعرفة ، أو هي لا علاقة لها بها مطلقًا .

ولم تنته المشكلة ، فوسائل المعرفة لتعددها أمام الإنسان ، ولتعدد ميادين المعرفة نفسها تشكل متاهة أمام الغرب ، ما أن يسير في طريق منها حتى يكتشف أنه مسدود فيعود أدراجه ويجرب في طريق آخر ، ثم ثالث ورابع .

والنتيجة النهائية هي أن الغرب يقف نفس موقف أسلافه من آلاف السنين ؛ وكل حلول المسألة عنده هي تكرار لسوابق لها ، فهو لا يعرف كيف ينسق بين وسائل المعرفة المختلفة للوصول إلى المعرفة والعلم الحقيقي في كل مجال بوسيلة المعرفة التي تناسبه ، والتي يكون وضعها في غيره بابًا إلى الخلط والبلبلة وتداخل الأشياء وشيوع موجات اللا يقين وعواصف الحيرة والقلق .

إذًا الغرب كان وما زال يقف أمام وسائل المعرفة المؤدية إلى العلم الشامل بكل الأشياء موقفًا مضطربًا ، يؤدي إلى انهيار الثقة في كل وسائل المعرفة ، ويعيد كل جيل فيه موقف أسلافه ، فـ : «**أفلاطون يعود إلى الحياة مع**

---

(١) نافذة على فلسفة العصر ، ص١٤٧ .

(٢) الفلسفة المعاصرة فى أوروبا ، ص١٧٨ .

وايتهد ، وأرسطو مع دريش وهارتمان ، وأفلوطين مع بعض الفلاسفة الوجوديين ، والقديس توما الإكويني مع المدرسة الجديدة التي تحمل اسمه ، والفلسفة المدرسية المتأخرة مع الفينومينولوجيا ، والوضعية الجديدة وليبنتز مع رسل»[1].

أي أن الغرب يعيد تكرار نفسه في صور جديدة ، ولم يفارق النقطة التى بدأ منها .

* * *

(١) الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ص٦٦ .

المنظومة الإسلامية لوسائل المعرفة

ما هي النقلة الحضارية التي جاء بها الإسلام لإخراج الإنسان من هذه المتاهة التي يلف ويدور فيها ولمّا يستطع الخروج منها ، وماالذي فعله القرآن في وسائل المعرفة المتعددة هذه؟

ما فعله القرآن هو أنه أعاد تنظيم وسائل المعرفة وتنسيق العلاقة بينها ، ووضع كلاً منها في ميدانه الذي خلق له بتفسير بسيط هو الحقيقة ، ومتجانس مع المنظومة القرآنية الكبرى وتفسيرها لحقيقة الوجود ، وللعلاقة بين الله عز وجل والإنسان والكون والعلم .

فالبشرية ، قبل القرآن وبعده في غير أهله ، ما كانت إلا كإنسان يملك عيونًا وآذانًا ولسانًا وأنفًا ولا يعرف فائدة كل منها ولا وظيفته ومهمته ، فهو يرى بعينيه فيتوهم أن بصره هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة كل شيء ، ثم يغلق أذنيه ويصر على أن يسمع بعينيه ، ثم يكتشف أنه أصبح معزولاً عن العالم فيفتح أذنيه ليسمع ما حوله ، وحين يدرك أنه يحيا في العالم بأذنيه يعتبر أنهما صلته الوحيدة به فيغلق عينيه وينظر للأشياء بأذنيه ، حتى إذا أدرك أنه لابد من اجتماع سمعه وبصره في الإدراك ، ومن وضع كل منهما فيما يخصه فقط ، غفل عن أن السمع والبصر ليسا كل ما يملكه الإنسان فصار يشم الأشياء بأذنيه ويلمسها ويتحسسها بعينيه ، وهكذا !!

هذا هو بالضبط موقف الإنسان أمام وسائل المعرفة ، يمتلك حواسًا وعقلاً وإحساسًا داخليًا ونصًا وتعاليم ، فهو يريد أن يجعل المعرفة كلها كتلة واحدة والطريقة إليها وسيلة واحدة ، فتارة يختار العقل ، وتارة التعاليم ، وثالثة الحواس ، ورابعة الحدس .

ولم يعرف الإنسان أبدا كيف ينسق العلاقة بين هذه الوسائل المتعددة وينظمها لكي يضع كلاً منها في مكانه الصحيح الذي تكون فيه فعالة لتنتج في النهاية منظومة متناسقة متجانسة يمكن الوصول بها إلى المعرفة الصادقة والعلم الحقيقي ، ويمكن بها التعامل مع هذه المعرفة الحقيقية بما يمنح الإنسان الرقي في كل ما يكون به الإنسان إنسانًا .

لم يعرف الإنسان ذلك أبدًا سوى في القرآن .

حرصنا ونحن نذكر تصحيح القرآن لمعنى العلم ومفهومه أن نصف كلمة العلم بأنه المتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات ، لأن هذا في الحقيقة نوع واحد فقط من أنواع العلم .

أما العلم مطلقًا ، فهو : « **إدراك الشيء بحقيقته** »[1].

إذًا العلم بأي شيء هو معرفته على حقيقته كما هو ، ووسيلة المعرفة الحقة من ثَم هي الوسيلة التي تمكننا من إدراك شيء ما على حقيقته .

وإذًا حل مسألة وسائل المعرفة يحتاج إلى معرفة الشيء المراد معرفته ، لنحدد بناءً على ذلك طبيعة الوسيلة التي تناسبه ونوعها ، والتي يمكن بها الوصول إلى معرفته على حقيقته .

وأمر آخر ، هو أننا بحاجة إلى أن نعرف ما هي وسائل المعرفة الفعالة والحقيقية التي يمتلكها الإنسان ، أي : ما هي الوسائل الحقيقية المتاحة أمام الإنسان لمعرفة حقيقة الأشياء .

* * *

---

(١) المفردات في غريب القرآن ، ص٣٦٤ .

ما هي وسائل المعرفة ؟

هذا أول تصحيح ونقلة قرآنية في هذه المسألة ، فكما رأينا ، الآفة التي صاحبت كل من فكر ونظر إلى هذه المسألة هي الانحياز لوسيلة معرفة واعتبارها وسيلة المعرفة الوحيدة ، ومصادرة جميع وسائل المعرفة الأخرى بها ولصالحها .

فالإغريق صادروا بالعقل ، والكنيسة بالتعاليم ، والتجريبيون بالحواس ، والعقلانيون بالعقل ، والنقديون بهما معًا ، وفلاسفة الحياة بالحدس ، فاختلفوا ما اختلفوا في النتائج وظل المنهج الذي يحكمهم هو هو لا يتغير .

فماذا قال القرآن عن وسائل المعرفة المؤدية إلى معرفة حقيقية .

١- الحواس :

جاء القرآن فريدًا منفردًا فذًا ليعرف البشرية أنه : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل:٧٨)

فالسمع والبصر ، أي الحواس ، وسيلة معرفة ، بل وسيلة علم حقيقي يمكن بها إدراك الأشياء على حقيقتها ، وهي أول وسيلة ، يكتسبها الإنسان منذ أن يولد ، لأن الله عز وجل خلقه وأنشأه بهذا السمع والبصر وهذه القدرة في الحواس على المعرفة والعلم .

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (السجدة:٧-٩).

فالإنسان قد وهب عند خلقه الحواس كوسيلة أولى لمعرفة الأشياء والعلم بها ، وفي غياب البصر ، السمع وحده كحاسة هو وسيلة للعلم والمعرفة :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ (القصص:٧١).

والبصر وحده يصلح كوسيلة للعلم وإدراك حقيقة الأشياء : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:٧٢).

والجلد وحاسة اللمس هي وسيلة لعلم حقيقي ومعرفة صادقة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ (النساء:٥٦).

إذًا الحواس هي وسيلة فعالة وحقيقية في المعرفة والوصول إلى إدراك شيء ما بحقيقته ، أما ما هو هذا «الشيء ما» فليس مكانه الآن ، المهم أن الحواس هي وسيلة علم حقيقي ومعرفة صادقة .

وفي الوقت الذي نزل فيه القرآن كانت هذه هي أول مرة في تاريخ البشرية يجيء منهج تكون الحواس فيه وسيلة صادقة لمعرفة وعلم حقيقي .

قد يقال : ما هذا الكلام ، ألم يكن للبشرية قبل القرآن عيونًا وآذانًا حتى تنتظره ليرشدها إلى أن لها سمعًا وبصراً ؟!

ونقول : نعم ، كان للبشرية قبل القرآن عيون وآذان وكانت تستخدمها ، لكنه استخدام الضرورة لا المنهج ، مع عدم إيلاء ما تحكم به الحواس حكم العلم والحقيقة اليقينية .

قبل القرآن كانت الحواس موجودة ، لكن لم يكن هناك منهج يعتبرها من وسائل العلم الحقيقي داخله ، ولم تدخل هذه الحواس إلى نطاق العلم كوسيلة له إلا مع المنهج القرآني ، ثم اقتبسها بعد ذلك الغرب معزولة عن المنظومة الكلية التي أفرزتها ، فصار إلى ما رأيناه من تضارب .

وبعد تأكيد الحواس كوسيلة معرفة صادقة لعلم حقيقي ماذا يقول القرآن عن العقل ؟

٢- العقل :

نلاحظ أولاً أن القرآن لا يستخدم مادة عقل أبدًا في صيغتها الاسمية الساكنة : عقْل ، عقول ، العاقلون ، بل يستخدمها دائمًا في صيغتها الفعلية المتحركة : عقلوه ، تعقلون ، يعقلها ، يعقلون[1].

وهذا بخلاف وسائل المعرفة الأخرى جميعها ، إذ يستخدمها القرآن في صيغتيها الاسمية والفعلية : يسمع ، تسمعون ، سميع ، سمع ، يبصرون ، يبصر ، بصر ، أوحى ، نوحي ، وحيًا .

وفي ذلك دلالة على أن العقل في الحقيقة ما هو إلا وظيفته ، وأنه لا يكون في لحظة معينة أداة للعلم والفهم إلا إذا كان متحركًا منطلقًا يجول في الشيء الذي توجه لعلمه أو فهمه .

ثم ماذا بعد؟

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾(العنكبوت:٤٣)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(الروم:٢٤)

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (الملك:١٠)

إذًا فالعقل أيضًا وسيلة معرفة حقيقية وصادقة لعلم حقيقي .

ولكن ثمة ملاحظة أخرى ، وهي أن العقل ، بخلاف الحواس ، لا يكون أداة للعلم وحده ابتداءً ، وإنما هو وسيلة للعلم تبدأ من معطيات تقدمها له وسائل أخرى ، فهو لا يبدأ أبدًا من فراغ .

فإذا وضعنا هذه الملاحظة إلى جوار سابقتها ، وصلنا إلى أن العقل لا يكون أداة علم ووسيلة إلى معرفة حقيقية إلا إذا سبقته معطيات من وسيلة معرفة أخرى ، يتحرك هو فيها ويجول ليصل إلى العلم .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، ص ٤٦٨ .

وهذه المعطيات الأولية التي يبدأ منها العقل إما أن ترد له من جهة الحواس :

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد:٤).

فهذه الآيات التي جاءت ليعقلها من يعقل هي أولاً صورة طبيعية زراعية خالصة ، معرفتها الأولى تتعلق بالعين وحاسة البصر، ثم يبدأ العقل كوسيلة للمعرفة من هذه المعرفة الأولى ويجول فيها ليصل إلى العلم الحقيقي المراد في هذه الصورة الطبيعية من جهة أنها دلالة على الخالق ووحدانيته ، وفي الوقت نفسه الحواس هي وسيلة معرفة حقيقية بها ، من جهة كونها طبيعة تتعامل معها .

ولذلك يقرر القرآن أنه حين يفقد الإنسان الحواس تنعدم المعارف الأولية التي يبدأ منها وفيها العقل الانطلاق والجولان للوصول إلى العلم الذي يختص به ، فيصبح العقل وكأنه لا وجود له :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١)

فكأن الصمم والبكم والعَمَى ، أي امتناع المعرفة الأولية القادمة من الحواس ، أدى إلى امتناع حركة العقل ووصوله إلى العلم .

ومثلها : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال:٢٢)

فلا عقل دون معرفة أولية ، هي هنا الحواس ، فإذا فُقدت امتنعت وظيفة العقل ، إذ هي لا تبدأ من فراغ ولا تكون في فراغ .

وقد تكون المعطيات الأولية التي يبدأ منها العقل الحركة والانطلاق للوصول إلى العلم الذي يختص به واردة إليه من جهة الوحي :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢).

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(البقرة:٤٤)

إذًا فيما يختص بالعقل ، يقرر القرآن أنه أحد وسائل المعرفة الحقيقية والوصول لإدراك الشيء بحقيقته ، ولكنه لابد له من معرفة أولية يبدأ منها ويجول فيها ، وبدون هذه المعرفة الأولية من وسائل معرفة أخرى فالعقل لا وجود له ،أو لا وجود لوظيفته ، والعقل ما هو إلا وظيفته ، إذا فقدها انعدم .

٣- الوحي :

قرر القرآن أن الحواس هي وسائل لعلم حقيقي ، وأن العقل كذلك وسيلة لعلم حقيقي مع اشتراط أن تكون المعرفة الأولية المعطاة له للوصول إلى العلم الذي يختص به حقيقية وصحيحة ، فماذا عن الوحي؟

كما رأينا ، الغرب حين تحرر وخرج من قمقم الكنيسة اختلف على كل وسائل المعرفة ولم يتفق سوى على شيء واحد فقط ، هو نفي النص والتعاليم كمصدر لأي معرفة بما فيها العقائد .

وما فعله الغرب مع تعاليم الكنيسة أحدث التباسًا في عقول كثير من أبناء الشرق أذناب الغرب ، فرُهاب (فوبيا) النصوص التي صارت سمة لازمة للعالم الغربي ورثها هؤلاء الأذناب وأسقطوها على القرآن بوعي وبدون وعي ، فما أن يرى أحدهم للقرآن حكمًا ، أو يستشهد به أهله في مسألة ، أو يدعو أحد إلى تحكيمه وإعادته إلى مكانه من المجتمع والحياة حتى يرتجف وينتفض ، ويرغي ويزبد ، ويهاجم النصوص وكبت الحرية وتقييد العلم والرجعية والعودة إلى القرون الوسطى ، وهو لا يعلم أي شيء عن هذه «النصوص» التي يهاجمها ، ولم يفكر أن يمسكها يومًا ليرى ما فيها ، بل هو في أثناء هجومه واندفاعه يضع تاريخ الغرب مع الكنيسة أمام عينيه ، ويستحضر معارك مفكريه وعلمائه في مواجهة باباواتها وتعاليمهم ، فهو في الحقيقة يهاجم في القرآن الذي لا يعلم عنه شيئًا الكنيسة والنص التوراتي الإنجيلي الملفق .

وأمثال هؤلاء الأذناب هم في الحقيقة أنكى على العالم الإسلامي من غلاة المستشرقين ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين إنما يحكمهم في تعاملهم مع العالم الإسلامي والقرآن تعصبهم للغرب وولاؤهم له والميراث التاريخي من الصراع بين الإسلام والغرب .

أما هؤلاء الأذناب فيحكمهم في علاقتهم بالقرآن وموقفهم منه الموقف الذي ورثوه من آبائهم الروحيين في الغرب ضد النصوص عامة مرة ، ومرة أخرى ما ورثوه منهم من عداء للقرآن خاصة .

نعود إلى وسائل المعرفة ، ونحن لم نبتعد عنها .

بعد الحواس وبعد العقل كوسائل للمعرفة ، يقرر القرآن مكانة الوحي كوسيلة للمعرفة الصادقة والعلم الحقيقي ، أي إدراك الشيء بحقيقته :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ (هود:٤٩)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (الكهف:١١٠)

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾

(الأنعام:١٤٥)

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ (العنكبوت:٤٥)

إذًا الوحي هو وسيلة معرفة يقينية ومصدر علم حقيقي .

وفي الآيات التي انتقيناها يؤكد القرآن اختصاص الوحي كوسيلة معرفة أولية ووحيدة في مسألة العقائد والألوهية وكل ما يتصل بها، وهو وسيلة المعرفة الوحيدة الصحيحة لما غاب عن إدراك البشرية ولم تعه وليست لديها وسائل أخرى لمعرفته . ويدخل في ذلك ما قبل وجود البشرية وما لابس ظهورها على الأرض وبدء مسيرتها فيها .

وهو أيضًا وسيلة المعرفة المختصة بوضع القانون والنظام العام للبشرية وتحديد الصواب والخطأ والخير والشر ، لأن هذه كلها معرفة تخرج عن نطاق قدرات وسائل المعرفة الأخرى التي تمتلكها البشرية ، ولأن تذبذب رغبات البشر وتفاوت أهوائهم وتضارب مصالحهم يؤثر على إمكانية وسائل المعرفة الأخرى الوصول للإدراك الحقيقي للقانون والنظام الصالح لجميع البشر في كل زمان وفي كل مكان .

قد يعترض البعض فيقول : مسألة اختصاص الوحي بالعلم في مسائل ومعارف ليس لوسيلة أخرى أن تتقدم عليها فيها مسألة عسيرة الهضم ، إذ سوف يظل ملتبسًا بها التاريخ الغربي وصراعاته ، وكذلك ادعاء من يدعي أن ما عنده من نصوص هو وحي واجب الاتباع كهذا الوحي .

ونقول : الفيصل هنا والمسألة الحاسمة هي الفرق بين الوحي القرآني والنصوص الكنسية ، فالوحي القرآني ، أولاً : قرر هو في حسم اكتماله وغلق المنهج والمنظومة التي يحملها .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة:٣)

وثانيًا : قرر هو نفسه وفي حسم أيضًا ، والتاريخ والتدوين يشهدان ، أنه محفوظ بقوة علوية .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)

إذًا فالمنهج القرآني وما يحمله من علم حقيقي غير قابل لأن يتداخل به وضع بشري ولا تصورات أو معارف إنسانية ، فهو مستقل عنها كلها استقلالاً تامًا .

ولم يحدث في تاريخ القرآن ، ولا تاريخ لكتاب على ظهر الأرض مثل تاريخ القرآن ، أن اختلط به عنصر بشري أبدًا .

قد يقال : فليكن ، القرآن منظومة مغلقة مكتملة لم يختلط بها وضع بشري ولا معرفة إنسانية ، ومع ذلك فنحن في حاجة إلى أن نتثبت من أن ما يحمله من معارف وعلم هو حقيقة لكل زمان وكل مكان .

ونقول : هنا يفارق القرآن غيره من النصوص والتعاليم في بقاء المعجزة وخلودها وازديادها تدفقًا وثراءً مع مرور الزمن ، فالمعجزة ملازمة للوحي ، أو هي هو ولا تنفصل عنه .

لذلك يبقى القرآن كوحي مصدر معرفة صادقة وعلم حقيقي ما دامت المعجزة باقية ، وهي باقية ببقائه ، وما دام لم يستطع بشر أن ينازلها أو يغض من إعجازها .

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨).

إذًا في المنظومة القرآنية ، الوحي مصدر معرفة يقينية صادقة وعلم حقيقي باكتماله وحفظه وعصمته ومعجزته الدائمة الخالدة الملازمة له .

وهو ما لا تملك شيئًا منه النصوص الملفقة والتعاليم الكنسية .

٤- الإدراك المباشر :

بعد أن أكد القرآن أن الحواس هي وسيلة معرفة صادقة ، وبيّن أن العقل هو مصدر لعلم حقيقي ، وأكد وأثبت أن ثمة أشياء لا يمكن أبدًا إدراكها ولا إدراك وجه الحق فيها إلا عن طريق الوحي فقط ، ماذا يقول القرآن عن الإدراك المباشر؟

يوضح لنا القرآن أن الإدراك المباشر لحقيقة شيء ما ، هو إدراك للشيء منفصلاً عن مقدماته ، أو هو نوع من الإدراك ليس بحاجة إلى استخدام الحواس والعقل ، لأنه غير مرتبط بظاهر الشيء الذي يمكن أن تعرفه الحواس ، وغير مرتبط بمقدمات تناسبه يمكن أن يجول فيها العقل .

ولأنه إدراك لشيء قد تخالف حقيقته التي لا يمكن معرفتها بوسائل المعرفة البشرية ظاهره البادي ، فإنه نوع من الإدراك مرتبط بالله عز وجل مباشرة ، يؤتيه عز وجل من يشاء بطلاقة قدرته وعلمه المحيط الشامل .

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥).

فإذا كان علم الإنسان ومعرفته محصورة بوسائل نظامية وانتقالية بين أسباب ومسببات ومقدمات ونتائج لقصور وسائله وقدراته ، فإن الله عز وجل قد يفيض من علمه الشامل المحيط على عبد من عباده ما يدرك به حقائق الأشياء مباشرة .

فما علمه هذا العبد الذي آتاه الله عز وجل علمًا من لدنه يخالف القانون الطبيعي، وما يقضي به الفهم الظاهر للأشياء ويعلو فوق قدرة الوسائل البشرية ، بل يناقضها ويخالف نتائجها .

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ (الكهف: ٧١)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ ﴾ (الكهف: ٧٤)

﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ﴾ (الكهف: ٧٧).

فهذه كلها أفعال لا تنطلق من الفهم الظاهر لمقدمات معقولة أو مرصودة ، بل من مقدمات حقيقية خفية تناقض المقدمات الظاهرة ، كشفها هذا العبد لموسى عليه السلام حين فاقت حاجته إلى الفهم صبره ، وتغلب تطلعه إلى كشف المخبوء على وعده بالطاعة .

﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩).

﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف: ٨٠، ٨١)

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ (الكهف:٨٢)

فما علمه هذا العبد مخبوء خفي لا طاقة لوسيلة ولا مصدر بشري على الوصول إليه ومعرفته كما هو ، وإنّا الإدراك المباشر لحقيقة ما ، شيء مقرر في القرآن .

قد يقال : ها قد فتحنا بابًا لا مسد له ! ، فما الحيلة فيمن يطلع على الناس يدعي أنه قد كُشف له من الحقائق الخافية ما لا يعلمه إلا هو ، ثم يختلط في ذلك الصادق والكاذب ، ولا وسيلة عندنا لتمييز هذا من ذاك ، والأمر بعد لا يخضع لضوابط ، والأصل فيه أنه غير مفهوم ولا مقدمات منضبطة له في الحواس أو العقل ، فتكون النتيجة النهائية هي قدرة أي أحد على إهدار أي حقيقة ظاهرة بدعوى العلم المباشر .

ونقول : بل القرآن أعلى وأجل من ذلك ، وما ترك الأمر حتى بينه فهدى ، وحكم فيه ففصل .

أولاً : هذا النوع من العلم ليس علمًا عامًا في البشرية ، فما كان هذا العبد الصالح في أصح الأقوال إلا : **«نبي ، وعلمه وحي يوحى إليه»**[(١)] .

والوحي قد انقطع بوفاة سيد المرسلين وخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠).

ثانيًا : الله عز وجل قرر في القرآن مع ختم الوحي اكتمال الدين ، بما يعني أن الوحي الخاتم قد أصبح إطارًا جامعًا وأصلاً تامًا لن يخرج علم حقيقي عن إطاره ومنهجه ، فكل من أتى بمعرفة أو ادعى علمًا يخرج به عن إطار المنهج الذي يحمله الوحي الذى اكتمل به الدين ، فعلمه خارج عن الدين .

---

(١) تفسير القرطبى ، ٤١٦٩/٥ .

فليس لأحد أن يدعي إدراكًا مباشرًا لحقيقة تخرج عن هذا المنهج أو تصادم أصوله وأحكامه ، وإلا كان طعنًا منه في كماله واكتماله المقرر المحسوم يستوجب العقوبة المقررة لذلك .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة:٣).

ثالثًا : هذا الإدراك لحقيقة شيء ما مباشرة بطريقة تخالف فيها الحقيقة الظاهر كان على عهد موسى عليه السلام ، وكل شرائع الأنبياء قبل خاتم الرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام كانت لأقوام مخصوصة ولأزمان محدودة .

فهذا العبد ، نبيًا كان أو غير نبي ، لم يكن مكلفًا باتباع شريعة موسى ، ولا هو مخاطب بها ، ولا هو محاسب على انتهاك أحكامها .

فموسى مرسل إلى قومه خاصة ، وإلى فرعون لإنقاذهم منه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (إبراهيم:٥)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ (الزخرف:٤٦)

أما هذا العبد ، فبيّن من رواية القرآن أنه لم يكن مخاطبًا برسالة موسى عليه السلام وشرعه ، بل بحث عنه موسى واقتفى أثره ليتعلم منه لا ليبلغه .

أما بعد ختم النبوة والرسالة فكل البشر مكلفون مخاطبون بها .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ:٢٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف:١٥٨)

وبذلك أصبح البشر جميعًا واقعين تحت الأمر بالتكليف واتباع الشرع وعدم مخالفة أوامره ونواهيه وأحكامه الظاهرة ، فلم يعد في قدرة بشر أن يدعي إدراكًا لحقيقة تخالف ظاهر الأحكام والشريعة والمنهج ، لأنه بذلك يُخرج نفسه من التكليف الذي صار لازمًا لكل البشر في كل زمان وفي كل مكان إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها .

رابعًا : هذا النوع من الإدراك المباشر للحقائق غير قابل للنقل ، ولا يتعدى من صاحب هذا الإدراك إلى غيره ، بل هو مخصوص به وحده .

ولذلك كان شرط هذا العبد الصالح على موسى عليه السلام أن لا يسأله عن معنى ما يراه من غرائب وتفسيرها ، وكان التفسير والفهم إيذانًا بالفراق .

﴿ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(الكهف:٧٨)

فهذا العلم شرطه الخفاء ، وإعلانه كان إيذانًا بانتهائه واختفاء صاحبه ، فليس لأحد أن يدعي إدراكًا مباشرة لحقيقة تخالف شريعة ظاهرة ، ومجرد إعلان أحد عن هذا الإدراك هو اعتراف منه وإقرار بعدم حيازته له ، لأن حيازته مشروطة بخفائه ، وإعلانه مؤذن بذهابه .

خامسًا : البشرية ليست مطالبة بأن تضع هذا النوع من العلم ضمن وسائل معرفتها ، ولا أن تبني عليه أحكامًا أو معاشًا ، ولا معاملة للكون أو الخلق ، بل ولا هي مطالبة بالبحث فيه ولا قبوله ممن يدعيه ، إذ موسى عليه السلام ، وهو النبي وهو الذي علم يقينًا من الله عز وجل بوجود هذا العلم عند هذا الرجل ، لم يستطع التعامل معه ولا قبوله قبول تسليم ورضا وطاعة دون فهم .

وهذا العبد الصالح ذهب كما جاء ، ولم يتبق منه أثر في القرآن سوى الإعلام بوجود هذا النوع من العلم يفيض به الله عز وجل على من يشاء من عباده .

إذًا الإدراك المباشر للحقائق هو وسيلة معرفة خاصة غير قابلة للنقل ، والبشرية غير مكلفة به ولا بتصديقه في حق أحد بعينه ، وإن كانت مطالبة بتصديق وجوده بحكم تقرير القرآن،وبتصديق وجوده في حق من عينه القرآن، وهو وسيلة معرفة ليس لها أن تخرج عن إطار منهج الوحي وأحكامه ، لعموم الرسالة وختمها ، ولحفظ الوحي واكتمال المنهج .

وقد يقال : ما الفرق بين هذا الإدراك المباشر وبين الوحي القرآني ، وكلها وسائل معرفة من الله عز وجل لا تستطيع الوصول إليها وسائل المعرفة البشرية؟

الفرق الهائل هو أن الإدراك المباشر يكون لحقيقة تخالف ما تحكم به وسائل المعرفة البشرية وتناقضه ، فلو لم يكن كذلك لما كان إدراكًا مباشرًا ، بل لكان يمكن الوصول إليه بالوسائل البشرية .

أما الوحي القرآني فهو وسيلة لمعرفة تعلو على وسائل المعرفة البشرية ولا تستطيع هذه الوصول إليها لقصورها عنها ، ولكنها لا تناقضها ولا تخالف أحكامها الظاهرة اليقينية ، والوحي القرآني بعدُ منهج منضبط مترابط لا فجوات فيه ولا مفاجآت غير مفهومة ولا مفسرة .

جمع القرآن إذًا بين الحواس والعقل والوحي والبصيرة أو الإدراك المباشر كوسائل للمعرفة ، وأكد قدرتها على الوصول إلى العلم ، أي إدراك شيء (ما) بحقيقته ، وهذا الجمع وحده هو ثورة فذة ونقلة فريدة في تاريخ البشرية .

لم يسبق للبشرية قبل القرآن ولا هي استطاعت بعده الجمع بين هذه الوسائل المختلفة كمصادر لمعرفة صادقة وعلم حقيقي ، بل كان ما وصلت إليه هو التضارب الشامل والحيرة بين هذه الوسائل المختلفة والوقوف بينها بمنهج الاختيار والنفي ، إما هذه أو تلك ، وهو ما يعني بالضرورة قصور المعرفة أو اختلاطها ، وعدم إدراك الأشياء كما هي في حقيقتها ، إذ ليس من المفهوم ولا المقبول أن توجد وسيلة معرفة بين يدي البشر وليس لها قيمة أو لا تختص بنوع من الإدراك .

فإلغاء وسيلة معرفة هو إلغاء لمصدر تكتمل به رؤية الشيء والعلم به من جميع جوانبه أو بجميع مستوياته وأبعاده ، فالشيء المدرك لن يكون أبدًا بحقيقته المكتملة مع إلغاء وسيلة معرفة تكشف جانبًا أو ناحية أو مستوى أو بعدًا أو عمقًا منه .

وكان أقصى ما وصل إليه الغرب بعد مسيرة شاقة وعرة هو الجمع بين الحواس والعقل كمصادر للمعرفة والعلم ، واعتُبر ذلك في حينه ثورة كبرى وفتحًا في فهم الأشياء وقوة انتزعته من الشك واليأس ، ولكن ظل منهج المعرفة ينقصه ما يمكن أن يعرف به الإنسان ما لا يستطيع الوصول إليه بعقله وحواسه ، والذي يشكل جزءًا هائلاً ، بل ركنًا ركينًا في فهم البشرية لحقيقة الأشياء حولها ، ولحقيقة نفسها .

بقي أمامنا أن نعرف كيف نظم القرآن العلاقة بين وسائل المعرفة المختلفة ، ليؤدي كل منها دوره ويحقق للإنسان معرفة صادقة وعلمًا حقيقيًا ، في تناسق وانسجام لا تتضارب فيه هذه الوسائل ، ولا يصادر بعضها بعضًا ، ولا يستحوذ بعضها على الأشياء بينما إدراكها بحقيقتها يختص بغيرها فيكون المآل هو التشتت والتنافر أو الاختلاط والوهم .

وهو ما وقع فيه البشر جميعًا في غير المنهج القرآني ، فلم يجدوا حلاً إلا انتقاء مصدر ونفي غيره خروجًا من هذه المتاهة .

* * *

أنواع العلم ووسائل المعرفة

إذا كان العلم هو إدراك شيء ما بحقيقته ، فإن الوسيلة المناسبة لإدراك هـذا «الشيء ما» تعتمد على ما هـو ، وما هـي طبيعته ، وهـل هـو مما يقـع في متناول البشر أم يعلو على وسائلهم .

ونحن هنا لا نقدم تصنيفًا لأنواع العلوم والمعرفة ، وإنما نحـن نقـدم فهمًا لأنواع المعرفة والعلم حسب اختصاص وسائل المعرفـة بهـا ، في إطـار تفسير القرآن للوجود وحقيقة الكون ومعنى الإنسان وما يراد منه .

أو بطريقـة أخـرى نقـدم فهمًـا للعلـم والأشياء المـراد إدراكهـا بحقيقتهـا ، ولوسائل المعرفة المختصة بها ، كنتاج مـرتبط بالمنظومـة القرآنيـة الكـبرى في تفسير الوجود ، وبتصحيحها للعلاقـة بـين الإلـه عـز وجـل والإنسـان والكـون والعلم .

التفسير القرآني للوجود وتصحيحه لهذه العلاقة هو بإيجـاز : الله عـز وجـل واحد ، مطلق القدرة ، شامل العلـم ، محيطـه ، خلـق الإنسـان ليقـوم بمهمـة في الكون وبين الخلائق ، وليقـوم بهـذه المهمـة زوده بـالعلم كوسيلة لإنجـاز هـذه المهمة وإعانة له عليها .

وهذه المهمة هي الخلافة ، والخلافة هي العبادة ، وهمـا معًـا تسيير الكـون بكل ما فيه والخلائق بكل أنواعها حسب إرادة الله عز وجل المستخلِف ومنهجه وأوامره ، وسوف يحاسب الإنسان على مستوى أدائه وإنجازه لهذه المهمة .

إذًا في إطار هذه المنظومة وهذا التفسير نحن أمام ثلاثة أنواع من العلم .

النوع الأول : علم يتعلق بطبيعة المهمة ، الخلافة العبادة ، وتعريف الإنسـان بها ، ما هي ، وكيف كُلِّف بها ، ولماذا كلف بها ، ومن كلفه بها ، ولماذا اختص بهـا وحـده ، ومـا هـى تـوابـع هذا التكليف بالمهمة ، وماذا ينتظـره إذا قـام بهـا

أو تقاعس عنها ، وكذلك وضع نماذج إرشادية تساعد على فهم طبيعة المهمة وما يحيط بها ، من مستوى أداء البشرية في كل زمان وطوال مسيرتها لهذه المهمة ، وكيف تعاملت معها ، وما لاقته من جزاء في مقابل هذا التعامل .

النوع الثاني : علم يتعلق ببيان تفاصيل المهمة والمراد من الإنسان فيها ، فإذا كانت الخلافة العبادة ، التي هي مهمة الإنسان ، هي تسيير كل شيء بمنهج الله عز وجل وحسب إرادته وأوامره ، إذًا فلابد أن يكون الإنسان بحاجة إلى علم يعرف به ما هو هذا المنهج ، وما هي هذه الإرادة وهذه الأوامر ، أو ما هي الخطة التي يجب عليه أن ينفذها ويسيِّر الكون والخلق والخلائق بها وعلى حسب تفاصيلها ليكون قد قام بمهمته .

النوع الثالث : علم هو جزء من المهمة نفسها ، لأنه إذا كانت الخلافة العبادة هي تسيير الكون والخلائق ، فهو لابد إذًا بحاجة إلى أن يعرف أنواع هذه الخلائق ، وطبيعة هذا الكون ، وما أودع فيه من أسباب تعينه على أداء مهمته ، وما سخر له في هذه المخلوقات حتى يستطيع قيادتها ، وهو بحاجة إلى أن يعرف قدراته هو ووسائل معرفته الممنوحة له ، وأن يفهم نفسه ليستطيع استخدام كل ما وُهب له في الأداء والإنجاز .

فهذا كله نوع من العلم هو جزء من مهمة الإنسان نفسه ، لأنه يتعلق بتنفيذ المهمة وأدائها ، لا العلم بها أو بتفاصيلها .

ألا ما أيسر التفسير القرآني وأبسطه وأحكمه !

وضع لنا منظومة نسيجًا للوجود ، هي الحقيقة ، تتناسق فيها الأشياء ، ثم وضع داخل هذه المنظومة النسيج منظومة نسيجًا آخر لفهم هذا الوجود وكيفية العلم به والتعامل معه ، وربط النسيج الأصغر بالنسيج الأكبر في وحدة متلاحمة تجعل كل شيء متجانسًا بسيطًا مفهومًا ، ببساطة الحقيقة التي هي أعسر الأشياء .

الإنسان في إطار أنه مستخلف ومكلف مشرف بمهمة على الأرض ، وأن هذه المهمة هي تسيير الوجود ، يحل مشكلة وسائل المعرفة بمجرد ظهوره واتضاح تفاصيله .

فالعلم الأول : وهو العلم بطبيعة المهمة ، الخلافة العبادة ، من المفهوم والذي لا يحتاج إلى عناء تفسير أنه لا يختص ابتداءً بوسائل المعرفة الإنسانية ، فالمكلف بمهمة ما ، لا يستطيع هو أن يحدد طبيعتها ، وإنما تحديد طبيعتها وما يحيط بها هو معرفة وعلم مختص بمن أنشأ المهمة وأوجده واختاره لها .

فالأمر ، ولله المثل الأعلى ، كرئيس يكلف مرؤوسًا له بإنجاز مهمة ما ، السياق الطبيعي والأمر البديهي أن طبيعة المهمة وما يحيط بها سيكون من عند الرئيس المكلِّف وليس من عند المرؤوس المكلَّف بالمهمة ، وادعاء المرؤوس علمه بطبيعة المهمة من غير طريق الرئيس المكلِّف وجهته هو نفسه خروج على المهمة وعبث بها .

إذًا هذا النوع من العلم لا وسيلة له إلا من جهة الله عز وجل المستخلِف ، وهو من ثم علم أو شيء لا يمكن إدراكه بحقيقته إلا عن طريق الوحي فقط ، فهو وسيلة معرفته الوحيدة .

وهذا النوع من العلم يدخل فيه ، كما هو بائن بنفسه ، حقيقة الألوهية وصفات الله عز وجل المستخلِف ، ووجود الملائكة والجن ، وما لابس خلق الإنسان وتكليفه بالمهمة ، وما سبق خلقه ، وسبب خلقه ، ووجوده في الملأ الأعلى ، وما صاحب ذلك من أحداث ، وكيف أهبط إلى الأرض وبدأ مهمته فيها .

وأيضًا كيف ستنتهي مهمته ، ومتى ، وما سيعقب ذلك من بعث وحساب عليها وجزاء على أدائها أوإهمالها ، وطبيعة هذا الجزاء وأنواعه وصفاته وتفاصيله .

وكذلك ما حدث أثناء مسيرة البشرية من إنجاز واعتراف بالمهمة ، أو إهمال لها وخروج عليها ، وما أرسله الله عز وجل من رسل وأنبياء لتصحيح المسيرة وتنبيه من غفل وتعريف من جهل وإعادة من انحرف ، وما تبع ذلك من جزاء لمن عاند وجحد ، أو آمن واتبع .

قد يقال : هذا النوع من العلم الذي تتعلق معرفته وإدراكه بحقيقته بالوحي ، نظراً لطبيعته وخصائصه ، وعدم قدرة الإنسان على إدراكه والوصول إليه بوسائل معرفته لأنه ليس مما تختص به ، ألا يوجد لوسائل المعرفة الأخرى أي اختصاص به ، هل هي يجب أن تكون في حياد تام أو أن تعطل إزاء هذا النوع من المعرفة؟

ونقول : لا ، وهذا هو إعجاز التفسير القرآني وسره في تنظيمه لوسائل المعرفة المختلفة في تناسق لا يُجزئ الإنسان ولا يشتته ، فهو يخاطبه بكل ما فيه من الإنسان ، لكي يدرك الإنسان حقيقة أي شيء وهو كلٌّ واحد متوحد .

فهذا النوع من العلم لا يمكن إدراكه إلا عن طريق الوحي ، لكن هذا الوحي هو إما أن يكون صوتًا يُسمع أو مكتوبًا يُقرأ ، إذًا فالحواس لها دورها ووظيفتها في هذا النوع من العلم ، ودورها يأتي تابعًا للوحي ، إذ وظيفتها تلقيه واستقباله .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا ﴾

(آل عمران:١٩٣)

﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

(التوبة:٦)

﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾

(الأعراف:١٤٥)

فلابد من الحواس كوسيلة تلق للوحي واستقبال له .

فأين دور العقل في هذا النوع من العلم ؟

العقل ، كما علمنا ، مهمته في أي معرفة هي أن يجول منطلقًا من معطيات أولى ومعرفة أولية ، ومهمة العقل في هذا النوع من العلم هي الأخذ عن الحواس ، ثم الحركة فيما أخذ لفهمه وعقله ، أي تقييده في الإنسان ليكون جزءًا من تكوينه ، ومن فهمه وتفسيره ورؤيته للوجود ولنفسه ولمهمته وطبيعتها .

ومن غير هذه الحركة من العقل لتقييد ما أخذ عن الحواس ثم فهمه واستيعابه وقبوله ، يكون استقبال الحواس لهذا النوع من العلم بلا فائدة ، أو كأنها لم تستقبله مطلقًا .

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال:٢١)

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك:١٠)

إذًا العلم المتعلق بطبيعة المهمة وما أحاط بها من ملابسات ، وما يترتب عليها من حساب وجزاء ، وما فعلت البشرية في تاريخها معها ، وما أنجزت أو قصرت ، هو معرفة يختص بها الوحي ابتداءً ، ووظيفة الحواس فيها التلقي والاستقبال ، ووظيفة العقل هي الفهم والوعي والاستيعاب ، ثم البناء عليها .

وأما النوع الثاني من العلم : فهو العلم بالأوامر والمنهج الذي مهمة الإنسان أن يسيِّر الوجود عليه ويحكم نفسه ويحكمه به ، وأمر بيِّن ومن البدائه أن هذا العلم من اختصاص الوحي أيضًا ، ذلك أنه حين يكلف الرئيس مرؤوسًا بمهمة محددة ، فإن تحديد تفاصيل المهمة والمطلوب إنجازه فيها والخطة التي يجب اتباعها وتنفيذها متعلق بالرئيس لا بالمرؤوس ، وبالمكلِف بالكسر لا بالمكلَّف بالفتح .

وأيضًا أي خروج من المكلَّف بالمهمة عن هذا المنهج أو الأوامر ، أو تجاهله لها ، هو خروج عن المهمة وعبث بها .

فإذا كان هذا النوع من العلم والمعرفة هو مهمة الوحي ومن اختصاصه ، أن يرشد الإنسان إلى الأوامر والأحكام والمنهج الذي ينبغي أن يسير نفسه عليه والوجود كله معه ، مرة أخرى : ما هو دور وسائل المعرفة الأخرى في هذا النوع من العلم والمعرفة ؟

الحواس هنا موقفها هو موقفها نفسه في النوع السابق من العلم ، التلقي والاستقبال ، لأن الوحي مصدر المعرفة إما يكون كلامًا مسموعًا ، استقباله منوط بالأذن ، أو أن يكون كلامًا مكتوبًا ، استقباله متعلق بالبصر .

﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:٢٨٥)

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور:٥١)

ثم بعد دور الحواس في الاستقبال يكون دور العقل في فهم هذا المنهج وهذه الأوامر المراد تسيير الخلق والوجود عليها ، لأن هذا المنهج وهذه الأوامر ما هو وما هي إلا كلمات وعبارات ، أي لغة ، وفهم اللغة عملية عقلية تعتمد على معرفة معنى الألفاظ والتراكيب ، وتحليل المراد من الصياغات وما تحتمله العبارات .

فوظيفة العقل في هذا النوع من العلم والمعرفة هي الغوص والاستقراء لمعرفة مراد الوحي وتفسيره وتوضيحه .

وللعقل دور آخر في تطبيق هذا الفهم على الواقع وتنزيل المنهج وتسيير الخلق والخلائق والكون به ، ذلك أن منهج العبادة الخلافة إنما جاء عامًا شاملاً للإنسانية في كل مكان وفي كل زمان ، والله عز وجل العليم بخلقه وكونه ، الحكيم في تقديره ، يعلم اختلاف البشر واختلاف الوقائع واختلاف الأزمنة والأمكنة ، فجعل عز وجل قواعد المنهج مجملة كلية ، يبدأ منها العقل ويجول لتطبيق هذا المنهج وهذه الأوامر الكلية بما يتناسب مع الوقائع والمستجدات ، وبما لا يخرج عن إطار الوحي وروح المنهج وأهدافه وقواعده الكلية .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة:١٢٢)

يقول الإمام الشاطبى الغرناطي : «لم يتبق للدين قاعدة يحتاج إليها في الضروريات والحاجيات أو التكميلات إلا وقد بينت غاية التبيين ، نعم

يتبقى تنزيل الجزئيات على تلك الكليات موكولاً إلى نظر المجتهد ... ولا يوجد ذلك إلا فيما لا نص فيه»[1].

إذًا هذا النوع من العلم الخاص ببيان الأوامر والمنهج الذي سوف يقوم الإنسان بتنفيذه لإنجاز مهمة الخلافة هو من اختصاص الوحي ، ولكن المنظومة القرآنية لا تقسم الإنسان ولا تفتته ، بل تقرر وتتعامل معه على أنه وحدة واحدة لا يمكن فصل جزء فيه عن جزء ، وهو في إدراكه للأشياء لا يدركها بحقيقتها إلا إذا تكاملت وسائل معرفته معًا في إدراكها ، مع الوعي أن كلاً منها له حدود ودور واختصاص وما يناسبه من المعرفة .

لذا فبعد أن أبان القرآن اختصاص هذا النوع من المعرفة بالوحي ، قرر أن للحواس دورها فيه ، وأن للعقل دوره فيه ، فهذا العلم لا يكتمل إلا بالتناسق والتفاعل بين الوحي والمنهج نفسه من جهة وبين الحواس والعقل من جهة أخرى ، وإلا كان كلامًا نظريًا يعلق على الرفوف ، وما جاء القرآن لهذا .

بقي أن نعلم أن هذا النوع من العلم المتعلق بالمنهج والأوامر والأحكام ، التي ينبغي أن يسير عليها الإنسان نفسه والوجود معه ، ينضوي فيه بطبيعته وتعريفه القوانين والتشريعات ، والأخلاق والسلوك ، وضوابط العلاقة بين الإنسان والإنسان ، والإنسان والمخلوقات ، والإنسان والطبيعة ، وكل ما يحكم نظام المجتمع وتكوينه .

أما النوع الثالث من العلم : وهو العلم بالكون وتركيبه وقوانينه ونظامه وكيفية سيره وعمله ، وبالمخلوقات : ما هي ، وما وظائفها ، وكيف هي مسخرة مذللة للإنسان ، وبالإنسان : ما تكوينه ، وما أودع فيه من وسائل وقدرات ، فهو جزء من المهمة نفسها ومن وظيفة الإنسان في الوجود .

لذا فإن هذا العلم يتعلق أساسًا بأداة إدراك الكون والطبيعة الأولى ، وهي

---

(١) الإمام الشاطبي الغرناطي : الاعتصام ، ص٥٠٣ .

الحواس ، ثم يليها العقل في تنظيم هذه المعرفة وتنسيقها واستخلاص نتائجها وتطبيقها .

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١)

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

فهذا العلم ، الوصول إليه جهد وإنجاز بشري يجب على الإنسان فعله لأنه جزء من مهمته ، ولأن فيه عونًا له على أدائها ، ولأن في هذا العلم توجيهًا له دائمًا إلى الخالق ، وإرشادًا إليه ، وتذكيرًا له بالمهمة .

ونسأل السؤال هذه المرة بطريقة عكسية .

إذا كان هذا النوع من العلم يتعلق بالإنسان ووسائل معرفته : الحواس والعقل ، إذًا فلا دور ولا مجال للوحي فيه؟

ونقول : لا ، بل للوحي دوره ومكانه ، فالوحي لا ينفصل عن وسائل المعرفة الأخرى ، كما أنها هي لا تنفصل عنه ، فهي كلها وحدة واحدة ومتكاملة الأثر في إدراك الحقيقة ، واستبعاد إحداها يؤدي إلى خلل فادح في المعرفة وتشويه للحقيقة المراد إدراكها .

الوحي هو الذي ينبه الإنسان إلى هذا النوع من العلم ويعرفه بوجوده ، ويرشده إلى طريقه ووسائل الوصول إليه ، ويدفعه ويحثه عليه .

وبعد هذا فالوحي لا يفرض على الإنسان نظرية علمية ، ولا يقيده ولا يمنعه من الخوض في العلم بالكون والطبيعة والمخلوقات كيف شاء وبأي منهج ، بل وليس عليه حرج أن يخطأ في نتائجه ثم يعود فيصحح ما أخطأ فيه ، لأن هذه مهمته وهو عرضة فيها للخطأ والتصويب ولا إثم عليه .

ويبقى للوحي دور آخر في هذا النوع من العلم ، هو ضبطه لنتائجه ، وترشيده لكيفية استخدام آثاره بما يكون في إطار الوحي نفسه وداخل منهجه .

فاستخدام هذا العلم وتطبيقه واستغلاله هو جزء من المهمة التي لا ينبغي للإنسان أن يخرج عن أوامرها وأحكامها ، وكيفية استخدام هذا العلم واستغلاله في التعامل مع الكون والطبيعة والخلائق يدخل ضمن المنهج الذي مهمة الإنسان أن يسير نفسه والكون به .

فالعلم نفسه طليق ، لكن استخدامه مشروط بأن يكون في حدود المنهج وحسب إرادة الله عز وجل المستخلف .

هذا هو إذًا التنظيم القرآني لوسائل المعرفة ، وتنسيقه للعلاقة بينها ، وبيانه لكيفية استخدامها ، وللعلم الذي تختص كل منها بإدراكه بحقيقته ، في إطار المنظومة القرآنية الكبرى والتفسير القرآني للوجود كله وللعلاقة بين الإله عز وجل والإنسان والكون والعلم .

تنظيم وتفسير متناسق مترابط ، تتجانس خيوطه مع خيوط التفسير والمنظومة الكبرى ، فتصبح كل الأشياء مفهومة في أماكنها وأوضاعها ، والعلاقات بينها مستقرة مفسرة ، ووسائل المعرفة منظمة متآزرة متكاملة تعمل معًا في وحدة لتؤدي وظيفة واحدة ، هي إدراك الأشياء بحقيقتها .

وقد تتقدم وسيلة معرفة أخرى في مجال أو ميدان ، لكنها لا تصادرها أو تلغيها ، فالإنسان ، في ضوء الجمع القرآني لوسائل المعرفة كلها وتقريره لها معًا كمصادر علم حقيقي ، وفي ضوء التفسير القرآني لوسائل المعرفة والتنسيق بينها ، الإنسان كلٌّ واحد متوحد ، ليس بحاجة لكي يدرك شيئًا إلى أن يلغي شطرًا من وجوده ، أو لأن يتضارب داخله العقل مع الحواس ، أو هما معًا مع إيمانه وطمأنينة نفسه .

الإنسان في القرآن يدرك الأشياء بكل وسائل معرفته معًا وإن اختلفت أدوارها ووظائفها ، أو هو يدرك الأشياء بكل ما فيه من الإنسان ، وبكل ما يكون به الإنسان هو الإنسان .

* * *

آثار التصحيح القرآني لمعنى العلم الطبيعي وتنظيمه لوسائل المعرفة

١- العلم حين يتصل بالكون والطبيعة والمخلوقات لابد أن يكون منهجه هو المشاهدة والملاحظة والمراقبة لا التأمل النظري والفكر المجرد .

فهذا العلم مصدره الكون والطبيعة نفسها ، وليس أفكار الإنسان النظرية التي تميل مع التجريد إلى التعقيد ، بينما نظام الكون مبني على البساطة .

٢- الله عز وجل هو الذي منح الإنسان العلم بالكون والطبيعة والمخلوقات ، وزوده عز وجل بالقدرة على استكشافها وبيان نظامها وحياتها ، لأن هذا العلم هو وسيلته في معرفة الكون والمخلوقات المكلف بالخلافة فيه وعليها ، وهو وسيلته لإنجاز هذه المهمة ، وهو مرشده في كتاب الكون إلى رب الكون .

٣- استغلال هذا العلم وتطبيقه جزء من مهمة الإنسان وخلافته في الكون والخلائق، وإذًا هذا الاستغلال والتطبيق مشروط بمنهج الخلافة ومرتبط بها ، ولابد من توخي إرادة المستخلف فيه .

٤- الله عز وجل خلق الإنسان وزوده بوسائل المعرفة والوصول إلى إدراك الأشياء بحقيقتها ، وجعله عز وجل كلاً متوحداً تلتقي فيه هذه الوسائل وتتكامل وتمتزج للوصول إلى المعرفة الحقيقية ، فلا فاصل بين عقل الإنسان وحواسه ، ولا حواجز تحجز بينها ، أو تجعل اختصاص أحدهما بنوع من المعرفة إلغاءً أو تعطيلاً للآخر، فالمعرفة الإنسانية متعلقة بهما معًا ، مع اختلاف أولوية كل منهما في إدراك الأشياء باختلاف طبيعة الأشياء المراد إدراكها .

٥- الوحي لابد منه للمعرفة لكي تستقيم حياة الإنسان ويستطيع فهم ما ليس في طاقة حواسه ولا عقله أن يصل إليه لقصورهما ، وإن كان لا يناقضهما أو يصادمهما ، وهو ضرورة بديهية لكي يعرف الإنسان لماذا خلق ووجد ، وكيف خلق ووجد ، وإلى أين هو صائر ، وما الهدف من وجوده على الأرض .

وهو ضرورة لأنه يحمل المنهج الذي تكمن مهمة الإنسان على الأرض في تنفيذه ، وبدون هذا المنهج تصبح حياة الإنسان ووجوده عبثًا لا معنى له ولا طائل من ورائه ، ولا بداية ولا نهاية له حينئذ سوى العدم .

٦- الوحي يعمل مع العقل والحواس في تناسق ونظام لا تضارب فيه ولا خلل ولا نفي لأحدهما بالآخر ، مع الإقرار بأن الوحي بالضرورة هو الإطار المهيمن بحكم مصدر الأعلى والأشمل والأكمل والأوثق والأحكم .

٧- ثمار المنظومة القرآنية لوسائل المعرفة :

أ- فيما يختص بالوحي : هذا الكتاب كله من مبدئه إلى منتهاه ، فمن يريد معرفة ثمرة إدماج الوحي كوسيلة معرفة صادقة يقينية وعلم حقيقي للبشر ، ما عليه إلا أن يعيد القراءة من البداية البداية وحتى النهاية النهاية .

ب- مولد العلم التجريبي : وهذه سنقف عندها وقفة منفصلة .

كان من نتاج النقلة الحضارية التي جاء بها الإسلام أن ظهر لأول مرة في تاريخ البشرية العلم التجريبي كمنهج ، فانساح العلماء الذين كونتهم وأنتجتهم المنظومة القرآنية ونشأوا في ظلالها وتشكلت عقولهم بها وبأثرها في الحياة وبما أتت به من حقائق عن الكون والعلم ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، انساحوا في بلاد الله يشاهدون ويرصدون ويلاحظون ويقارنون : **«وانتشرت في كل مكان الأصوات القائلة : لقد لاحظت ، أنا نفسي رأيت ، لقد راقبت وشاهدت ، فإن ما شاهدناه بملء أعيننا أقرب إلى التصديق»**[1].

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٢٠ .

وابن البيطار : «جمع النباتات من العالم الإسلامي بأسره ، وقارن بين نباتات الهند ونباتات إيران ونباتات اليونان ونباتات إسبانيا (الأندلس) ، وفي تصنيفه يشرح ألفًا وأربعمائة نوع من النباتات»[1].

والكيميائيون المسلمون : «كانوا يطرحون نفس الأسئلة التي يطرحها الكيميائي اليوم ، وكانوا ينهجون نهجًا تجريبيًا شبيهًا في جوهره بنهج اليوم»[2].

وهذه العبارة الأخيرة ، حفظًا للحقوق وردًا للفضل إلى أهله ، ينبغي أن تعاد صياغتها لتكون : الكيميائي اليوم هو الذي يطرح نفس الأسئلة التي كان يطرحها المسلمون ، والمنهج التجريبي المستخدم اليوم هو هو المنهج الذي كان ينهجه العلماء المسلمون ونقله الغرب منهم .

ميلاد العلم التجريبي القائم على الرصد والملاحظة والمشاهدة والسير في الطبيعة وتعقب ظواهرها والتجربة والخطأ ثم التصحيح ، والذي ولد في الإسلام ، أو بدقة أكثر ولد من القرآن ولم يكن موجودًا قبله ، كان نتاجًا لتفاعل عناصر عدة وامتزاجها .

وهذه العناصر هي :

١- التوحيد : ذلك أن القرآن يعلم العالم المسلم أن وحدانية الله بادية بآثارها في الكون والطبيعة ، وأن عليه السير في الكون والنظر فيه للوصول إلى هذه الآثار ودلالتها على توحيد الله عز وجل ووحدانيته ، ومن أراد أن يتيقن فليراجع قول البتاني والخوارزمي وفلسفتهما المذكورة سابقًا في فهم صلة العلم الرياضي والكوني والطبيعي بالألوهية والتوحيد .

وأمر آخر هو ذو أثر كبير في ولادة هذا العلم ودفعه وإن كان غائرًا عميقًا في النفس ، وما كان لهذا العلم أن يولد ولا يوجد إلا به وفى ظلاله .

---

(١) العقيدة والمعرفة ، ص١٢١ .

(٢) مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ص ٥٧ .

هذا العلم قائم على السير والمشاهدة والتنقل من مكان إلى مكان لتعقب الظواهر وجمع الأدلة ومتابعة موضوعات العلم ، وما كان هذا ليستطيعه العرب دون التوحيد .

ذلك أن العربي الوثني في الجاهلية كان يعبد إلهه وفي يقينه أن سطوة إلهه وقدرته ونفوذه محصورة بنطاق مكانه الذي صُنع فيه وفيه يعبد ، وأنه إذا خرج من هذا المكان إلى مكان يسوده إله آخر ويعبده قوم آخرون فقدَ مظلة حماية الإله له لأنه ترك حدود نفوذه إلى نطاق نفوذ هذا الإله الآخر .

لذلك لم يكن العربي قبل الإسلام يستطيع التنقل كثيراً بعيداً عن دياره ، وإذا تنقل ففي نطاق نفوذ إلهه ، وللضرورة .

أما بعد التوحيد ، فالله عز وجل هو الإله الواحد الذي لا إله غيره ، وأينما سار المرء وولى كان معه وفي حماه ورعايته ، وبذلك أمكن أن يترك العربي بيداءه وأن يسيح في الأرض ليفتحها ويعمرها ويرصد ويراقب ويتتبع ويستقصي .

٢- تصحيح معنى الكون والطبيعة ، وبيان حقيقته وإحكامه ، ونظامها ودقتها ، وتسخيرها بما وضع فيها من نظام وإحكام ودقة للإنسان .

٣- تصحيح معنى العلم حين يتصل بالطبيعة والكون والخلائق وتغيير مفهومه ، فهو علم قائم على النظر والملاحظة والبصر والمشاهدة ، ولو ظلت البشرية في الطريق الذي كانت فيه لظلت حيث هي ألف ألف سنة دون أن تتقدم خطوة أو تحرز إنجازاً حقيقيًا ، إذ المطلوب كان فوق مستوى إدراكها ، وهو وجوب نزعها وتحويل مجراها من طريق إلى طريق ومن منهج إلى منهج .

٤- إعادة الاعتبار للحواس كوسيلة معرفة حقيقية فيما تختص به ، وتنظيم العلاقة بينها وبين وسائل المعرفة الأخرى .

٥- تفسير القرآن للعلم وأصله وحقيقته ، وأنه هبة من الله عز وجل ، وأنه جزء من مهمة الإنسان على الأرض : الخلافة العبادة ، وهو وسائله لتحقيق هذه المهمة ، وهو مرشده إلى الله عز وجل ، ودالُّه عليه سبحانه بآثاره في الكون والخلق .

٦- التجربة الرائدة أو التطبيق الأول للتجربة كمنهج في التعامل مع الطبيعة :

من العناصر المهمة التي نبهت أنظار عالم الإسلام ، ووجهته إلى الطريقة التي ينبغي التعامل بها مع الطبيعة والمخلوقات ، وأدت إلى ميلاد العلم التجريبي وجود تجربة رائدة للنموذج التطبيقي للمنظومة القرآنية ، تجربة علمية حقيقية تحوي كل عناصر التجربة العلمية ، ولا يغض من هذه التجربة بساطتها ، فليس من المهم ولا المحدِّد لعلمية التجربة مستوى التعقيد فيها ، بل المهم أن تتعامل مع ما هو موجود في الطبيعة وإن كان بسيطًا .

والنقلة الفذة في هذه التجربة الرائدة هي المنهج الذي تحمله لكيفية التعامل مع الطبيعة والعلم بها ، واحتواؤها لكل عناصر التجربة العلمية ، وإقرارها بما نتج عنها ، واعترافها بصدق المشاهدة والملاحظة وكفاءة الحواس ، ثم التطبيق العلمي لنتيجة التجربة .

قبل أن نعرض هذه التجربة الرائدة والأولى في تاريخ البشرية ونرى تفاصيلها وكيف احتوت على عناصر المنهج العلمي التجريبي كلها ، لابد أن نعرف أولاً ما هي عناصر التجربة كمنهج علمي .

التجربة كمنهج علمي تقوم على الخطوات الآتية :

أولاً : وضع فرضية ، ويشترط في هذه الفرضية أن تكون قابلة للاختبار ، أي لمعرفة صحتها من خطئها ، والفرضية نفسها قد تكون تفسيراً لشيء معين ، أو للعلاقة بين عدة أشياء ، أو حلاً افتراضيًا يمكن اختباره لمشكلة ما .

مثلاً : عندنا ثلاثة أشياء أو عناصر : (أ) ، و(ب) ، و(ج) ، (ج) : ظاهرة ، و(أ) و(ب) : مؤثرات تؤدي لحدوثها ، ونريد التأكد من هذه العلاقة وتفسيرها ، فنضع فرضية هي : الظاهرة : (ج) تحدث نتيجة لتأثير : (أ) في : (ب) .

فالفرضية التي سنقوم باختبارها لمعرفة صحتها من خطئها هي : إذا كان : (أ) يؤثر في : (ب) فيؤدي إلى : (ج) ، فإن إزالة تأثير : (أ) على : (ب) سوف يؤدي إلى عدم وجود أو حدوث : (ج) ، ثم يتم تأكيد الفرضية أو نفيها بإعادة تأثير : (أ) إلى : (ب) .

ثانيًا : اختبار هذه الفرضية لمعرفة هل هي صحيحة أم لا ، عن طريق مراقبة ما يحدث عند تنفيذ الفرضية وملاحظته .

وفي مثالنا ، فإن هذه الخطوة تكون بوضع : (أ) ، و(ب) ، و(ج) معًا ، ثم إزالة : (أ) والمراقبة والملاحظة والمشاهدة لمدة قد تطول أو تقصر حسب كل عنصر من عناصر التجربة ومعرفتنا السابقة به .

ثالثًا : جمع البيانات الناتجة عن الاختبار أو التجربة .وفى حالتنا هذه البيانات ستكون : إزالة تأثير : (أ) على : (ب) أدى فعلاً إلى عدم وجود أو حدوث الظاهرة : (ج) ، أو قد تكون : إزالة تأثير : (أ) على : (ب) لم يؤد إلى تغير في : (ج) ، أو إلى تغير طفيف لا أهمية له أو غير معتبر .

فلا يهم في التجربة أن تكون نتيجتها سلبية أو إيجابية ، المهم هو قدرتها على الحكم على الفرضية إيجابًا بإثبات صحتها أو سلبًا بنفيها .

رابعًا : استخدام البيانات أو المعلومات الناتجة عن الاختبار والتجربة في تعديل رؤيتنا ، وكيفية تقديرنا للظاهرة ، وتعاملنا مع عناصرها ومكوناتها .

وفى حالتنا ، إذا كانت التجربة إيجابية فلابد أن يدخل في اعتبارنا عند دراسة الظاهرة : (ج) أو التعامل معها أن وجودها أو حدوثها يتوقف على تأثير : (أ) في : (ب) ، ثم تضم هذه المعلومة إلى سابقاتها ، ثم يضم إليها غيرها فيحدث التراكم .

هذه هي عناصر التجربة وخطواتها كمنهج علمي ، فلنر الآن التجربة الرائدة التي تحمل المنهج التجريبي متكاملاً بكل أركانه وعناصره .

عن موسى بن طلحة عن أبيه قال : «مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال : ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا : يلقحونه ، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ : ما أظن يغني ذلك شيئًا ، قال : فأخبروا بذلك فتركوه ، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنًا ، فلا تؤاخذوني بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئًا فخذوا به فإني لن أكذب على الله عز وجل».

وعن رافع بن خديج قال : «قدم نبي الله ﷺ وهم يؤبرون ، يقولون : يلقحون النخل ، فقال : ما تصنعون؟ قالوا : كنا نصنعه ، قال : لعلكم لو لم تفعلوا لكان خيراً ، فتركوه فنفضت أو فنقصت ، قال : فذكروا ذلك له فقال : إنما أن بشر ، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر».

وعن عائشة وعن ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون فقال : «لو لم تفعلوا لصلح ، قال : فخرج شيصًا ، فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ قالوا: قلت : كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم»[1].

ونطابق الآن بين هذه التجربة الرائدة أو التطبيق الأول للمنهج القرآني في التعامل مع الطبيعة وبين عناصر التجربة وخطواتها كمنهج علمي .

كما قلنا ليس مطلوبًا من التجربة ، أي تجربة ، لكي تكون علمية وحاملة للمنهج العلمي أن تكون معقدة ، وليس العالم أو المجرِّب مطالبًا باختراع عناصر مركبة لإجراء تجربته ، بل على خلاف ذلك المطلوب من التجربة لكي تكون منهجًا أن تتعامل مع ما هو موجود وإن كان بسيطًا ، وما يمكنها وضعه تحت الاختبار والتجربة .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ، مجلد ٥ ، ١٥/١١٧، ١١٨ ، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره عليه الصلاة والسلام من معايش الدنيا على سبيل الرأي .

نحن في هذه التجربة الرائدة ، والأولى من نوعها كمنهج أمام ثلاثة عناصر : النخل والتلقيح والإثمار، وكان المعتاد تلقيح النخل وتأبيره لكي يثمر ، فجاء النبي عليه الصلاة السلام ورأى ما يفعلون فوضع فرضية ، وهذه الفرضية هي أن التلقيح ليس له دور مؤثر في إثمار النخيل ، فإذا كان التلقيح غير مؤثر في إثمار النخيل فإن استبعاده لن يؤثر في مقدار ما يثمره النخيل ولا في جودته .

وكما قلنا ليس مهمًّا أن تكون الفرضية سالبة أو موجبة ، المهم أن تكون الفرضية قابلة للاختبار والتحقق من صحتها .

ثم !

ثم بعد وضع الفرضية جاءت مرحلة الملاحظة والمشاهدة والمراقبة لجمع البيانات ، والتي استغرقت موسمًا كاملاً ، هو المدة المقدرة ، بالمعرفة السابقة لها ، للحكم على صحة الفرضية أو خطئها .

ثم !

ثم جاءت مرحلة جمع البيانات ، لتثبت خطأ الفرضية التي وضعت لاختبارها . فالنخل لم يثمر كما كان يثمر عند تلقيحه ، إذًا تبين أن تأبير النخل أو تلقيحه يحدث فرقًا مؤثرًا أو معتبرًا Significant في النتيجة .

وكما قلنا ليس مهمًّا أن تكون نتيجة التجربة سالبة أو موجبة ، المهم قدرتها على إعطاء نتيجة يتم بناءً عليها تصحيح المعلومة ، ثم إدخالها كمكون في التعامل مع عناصر التجربة .

ثم !

جاءت رابعًا مرحلة تطبيق هذه المعلومة وتحويلها إلى واقع فعلي ، فبعد أن أثبتت التجربة والاختبار خطأ الفرضية عادوا لتلقيح النخل مرة أخرى ليثمر بطريقة أفضل ، أي أخضعوا المعلومة الناتجة عن التجربة للتطبيق الفوري وجعلوها جزءًا من الممارسة ، ولكن هذه المرة بعد الاختبار العلمي والتأكد المنهجي .

قد يقول البعض : ما هذه المغالاة ، وهل كان النبي عليه الصلاة والسلام يقصد إجراء تجربة علمية؟

ونقول : ليس المهم أن يطلق من يقوم بالتجربة ويضع فرضية ويختبرها اسم التجربة أو أي اسم آخر على ما يفعله ، أو أن لا يسميه بأي اسم على الإطلاق ، المهم أن ما يفعله يحمل في داخله وأثناء قيامه به وممارسته لخطواته المنهج نفسه ، أما الصياغة النظرية للمنهج أو تنظيره فشيء آخر ليس ضروريًا ولا شرطًا في المنهج نفسه ، ولا في الحكم عليه بالصحة واستيفائه لعناصر المنهج العلمي .

وأمامنا من يمارسون التجارب في الجامعات والمدارس من الطلبة بقصد التعلم خير مثال على ما نقول ، فكلهم يقوم بتجارب علمية صحيحة ، ومن خلال منهج علمي منضبط ، ولكن كثيرًا منهم لا يستطيع صياغة ما يفعله ويقوم به أثناء التجربة صياغة تحدد خطواتها ، أو تبرز المنهج الحاوي لعناصر التجربة وروابطها وأهدافها .

إذًا القيام بالتجربة والتعامل بمنهجها شيء ، وصياغتها أو إطلاق الأسماء وتقسيمها إلى خطوات ومراحل شيء آخر غير ضروري للحكم على علميتها وصحتها .

ومن ثم ، فهذا المثال الرائد في تطبيق منهج التعامل القرآني مع الطبيعة يحوي كل عناصر التجربة الناجحة والمنهج العلمي التجريبي : وضع الفرضية القابلة للاختبار ، والملاحظة والمشاهدة ، وجمع البيانات ، ثم تطبيق نتيجة التجربة وتحويلها إلى جزء من الممارسة .

ونوجز فنقول : المنهج التجريبي ما كان له أن يولد ولا أن يوجد إلا بالنقلة الحضارية القرآنية التي أعادت تصحيح الوجود : الإله والإنسان والكون والعلم ، وبترجمة هذه المنظومة في جوانبها المختلفة وتحويلها إلى حياة فعلية ، ومنهج العلم والتعامل مع الكون والطبيعة هو أحد هذه الجوانب ووجه من وجوه هذه الحياة الفعلية .

وعلى من يريد معرفة أثر هذه التجربة وأمثالها كميراث تناقل منهجه المسلمون ، وكبذرة ونواة أولى لكيفية التعامل مع الطبيعة والعلم بها ، أن يفترض وقوف أرسطو وأمثاله من الأغارقة ، أو من الغرب ما قبل الاحتكاك بالعالم الإسلامي ، أمام مشكلة من نفس النوع ، كيف كانوا سيفكرون فيها ، وأي طريق كانوا سيسلكونها في الحكم والتقدير .

أما الغرب المسيحي الكنسي فإنه لن يلتفت للمشكلة أصلاً ، وسوف يكون موقفه منها : اقبل الأمور كما هي ولا تبحث في ما لا يفيد .

وأما أرسطو وأمثاله ، فكان سيجلس في غرفة ويفترض فرضية فعلاً ، ثم يقوم بتخيل ما يترتب على هذه الفرضية وما ينتج عنها ، ثم يقوم بتحويل النتيجة إلى ممارسة فعلية في الواقع ، أي سيقوم بالتجربة كاملة تامة في نصف ساعة وفي ذهنه فقط ، ودون أن يشغل نفسه بالنظر إلى النخل أو التجربة وانتظار نتيجة تلقيحه أو عدم تلقيحه !!

* * *

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم ، بيان الإله والوحي المحفوظ .

ثانيًا : المصادر العربية :

١- أبو إسحق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي المالكي ، الإمام : الاعتصام ، مطبعة الحلبي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

٢- أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي النيسابوري ، الإمام : تهافت الفلاسفة ، تحقيق : دكتور سليمان دنيا ، دار المعارف ، ط٧، القاهرة ، ١٩٨٧م .

٣- أبو الحسن أحمد بن محمد بن جبير ، الرحالة : رحلة بن جبير ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٩٨١م .

٤- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، الإمام : صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الريان للتراث ، القاهرة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥- أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ، الحافظ : تفسير القرآن العظيم ، تحقيق سامي بن محمد السلامة ، دارطيبة للنشر والتوزيع ، ط الثانية ، الرياض ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٦- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، الإمام : لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م .

٧- أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، الإمام : المفردات في غريب القرآن ، دار التحرير ، القاهرة ، ١٩٩١م .

٨- أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد ، الفيلسوف : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، تحقيق دكتور محمد عمارة ، دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ١٩٨٣م .

٩- أحمد أمين ، الأستاذ : فجر الإسلام ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١٥ ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

١٠- أدولف إرمان ، المؤرخ : ديانة المصريين القدماء ، ترجمة : دكتور عبد المنعم أبو بكر ودكتور محمد أنور شكري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
١١- أرنولد توينبي ، المؤرخ : الحضارة في الميزان ، ترجمة : أمين محمود الشريف ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
١٢- آلان توران ، دكتور : نقد الحداثة ، ترجمة : أنور مغيث ، المشروع القومي للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٩٧م .
١٣- ألكسيس كاريل ، دكتور : الإنسان ذلك المجهول ، ترجمة : عادل شفيق ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
١٤- إيتين جيلسون ، المؤرخ : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، ترجمة : دكتور إمام عبد الفتاح إمام ، مكتبة مدبولي ، ط٣ ، ١٩٩٦م .
١٥- أ . م . بوشنسكي ، المؤرخ : الفلسفة المعاصرة في أوروبا ، ترجمة : دكتور عزت قرني ، عالم المعرفة ، العدد ١٦٥ ، الكويت ، ربيع الأول ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
١٦- ب . كوملان ، المؤرخ : الأساطير الإغريقية والرومانية ، ترجمة : أحمد رضا محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م .
١٧- بونداريفسكي ، دكتور : الغرب ضد العالم الإسلامي ، ترجمة : إلياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٥م .
١٨- تزفيتان تودوروف ، المؤرخ : فتح أمريكا ، مسألة الآخر ، ترجمة : بشير السباعي ، دار العالم الثالث ، ط٢، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
١٩- جميل صليبا ، دكتور : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧١م .
٢٠- جورج جاموف ، الفيزيائي : بداية بلا نهاية ، ترجمة : محمد زاهر المنشاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠م .
٢١- جوزيف شاخت ، وكليفورد بوزورث : المستشرقان : تراث الإسلام ، ترجمة : محمد زهير السمهوري ، ودكتور حسين مؤنس ، ودكتور إحسان صدقي العمد ، تعليق وتحقيق : دكتور شاكر مصطفى ، عالم المعرفة ، العدد ٢٣٣ ، ط٣ ، الكويت ، المحرم ١٤١٩هـ / مايو ١٩٩٨م .

٢٢- جوستاف لوبون ، المؤرخ : حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، ط٣ ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .
٢٣- لوبون : سر تطور الأمم ، ترجمة أحمد فتحي زغلول ، دار الفرجاني ، القاهرة ، طرابلس ، لندن ، بدون تاريخ .
٢٤- جوليان هكسلي ، دكتور : الإنسان في العالم الحديث ، ترجمة : حسن خطاب ، مراجعة : دكتور عبد الحليم منتصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦م .
٢٥- جيمس بيرك ، المؤرخ : عندما تغير العالم ، ترجمة : دكتورة ليلى الجبالي ، مراجعة : دكتور شوقي جلال ، عالم المعرفة ، العدد ١٨٥ ، الكويت ، ذو القعدة ١٤١٤هـ/مايو ١٩٩٤م .
٢٦- جيمس فريزر ، المؤرخ : الغصن الذهبي ، دراسة في السحر والدين ، ترجم بإشراف : دكتور أحمد أبو زيد ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط٢، ١٩٩٨م .
٢٧- جيمس هنري برستد ، المؤرخ : تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الفارسي ، ترجمة : دكتور حسين كمال ، راجعه وصححه : محمد حسين الغمراوي ، وزارة المعارف العمومية ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م .
٢٨- برستد : فجر الضمير، ترجمة : دكتور سليم حسن ، مراجعة : عمر الإسكندري ، وعلي أدهم ، مكتبة مصر ، ١٩٥٨م .
٢٩- حسين مؤنس ، دكتور : الحضارة ، عالم المعرفة ، العدد ١ ، الكويت ، يناير ١٩٧٨م .
٣٠- حسين مؤنس ، مشرف : دراسات في الحضارة الإسلامية بمناسبة القرن الخامس عشر الهجري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .
٣١- دار الكتاب المقدس بالأشرق الأوسط : الكتاب المقدس ، مجموعة أسفار التوراة والأناجيل وأعمال الرسل ، ١٩٩٥م .
٣٢- دار المشرق : المنجد الأبجدي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، حزيران ١٩٦٧م .
٣٣- روبرت بريفالت ، دكتور : أثر الإسلام في تكوين الإنسانية ، ترجمة : السيد أحمد أبو النصر الحسيني ، بدون تاريخ وبدون دار نشر .

٣٤- زكي نجيب محمود ، دكتور : نافذة على فلسفة العصر ، كتاب العربي السابع والعشرون ، الصفاة ، الكويت ، أبريل ١٩٩٠م .
٣٥- زكي نجيب محمود : نظرية المعرفة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦م.
٣٦- زيجريد هونكه ، المستشرقة : العقيدة والمعرفة ، ترجمة : عمر لطفي العالم ، دار قتيبة ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
٣٧- زينب عبد العزيز ، دكتورة : هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة ، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٩٦م .
٣٨- زين العابدين متولي ، دكتور : علم الفلك عند علماء العرب والمسلمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧م .
٣٩- ستيفان زفايج ، المؤرخ : ماجلان قاهر البحار ، ترجمة : حبيب جاماتي ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، القاهرة ، يوليو ١٩٥١م .
٤٠- ستيفن هوكنج ، دكتور : تاريخ موجز للزمن من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء ، ترجمة : دكتور مصطفى فهمي ، دار الثقافة ، ١٩٨٤م.
٤١- سيد قطب ، الأستاذ : التصوير الفني في القرآن ، دار المعارف ، ط١٠ ، ١٩٨٦م .
٤٢- سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، دار الشروق ، ط٤ ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
٤٣- شارل جينبير ، دكتور : المسيحية نشأتها وتطورها ، ترجمة : دكتور عبد الحليم محمود ، دار المعارف ، ط٢ ، ١٩٨٥م .
٤٤- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري القرطبي ، الإمام : الجامع لأحكام القرآن ، دار الغد العربي ، ط١ ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م .
٤٥- عباس محمود العقاد ، الأستاذ : الله ، دراسة في نشأة العقيدة الإلهية ، كتاب الهلال ، دار الهلال ، فبراير ١٩٥٣م .
٤٦- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المؤرخ : المقدمة ، تحقيق : أبو مازن المصري ، وكمال سعيد فهمي ، المكتبة التوفيقية ، بدون تاريخ .
٤٧- عبد المجيد النجار، دكتور : خلافة الإنسان بين النقل والعقل ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط الثانية ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٤٨- عـزت قرنـي ، دكتـور : الفلسـفة المصـرية ، شـروط التأسـيس ، المكتبـة الثقافية ، ١٩٩٢م .
٤٩- عفت الشـرقاوي ، دكتـورة : في فلسـفة الحضـارة الإسـلامية ، دار النهضـة العربية ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨١م .
٥٠- فرانكلين باومر ، المؤرخ : الفكـر الأوروبـي الحـديث ، الاتصـال والتغير والأفكار ، ترجمة : أحمد حمدي محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م .
٥١- فرانز روزنتال ، دكتـور : منـاهج العلمـاء المسـلمين في البحـث العلمـي ، ترجـمـة : أنيس فـريحـة ، مؤسسـة فـرانكلين الأمريكـيـة ، نيويـورك ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠م .
٥٢- فؤاد زكريا ، دكتور : التفكير العلمي ، مكتبة مصر ، ١٩٩٢م .
٥٣- كارين أرمسترونج ، المؤرخة : سيرة النبي محمد ، ترجمة : دكتور فاطمـة نصر ، ودكتور محمد عناني ، سطور ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
٥٤- كرين برينتون ، دكتـور : أفكـار ورجـال قصـة الفكـر الغربـي ، ترجمـة : محمود محمود ، نشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين الأمريكية للطباعـة والنشر ، القاهرة ، نيويورك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، نوفمبر ١٩٦٥م .
٥٥- مالك بن نبي ، الأستاذ : وجهـة العـالم الإسـلامـي ، ترجـمـة : دكتـور عبد الصبور شاهين ، مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، ط١، ١٩٥٩م .
٥٦- مايكل هارت ، دكتور : الخالدون مائة ، ترجمة : أنيس منصور ، المكتب المصري الحديث ، ط٥ ، ١٩٨٤م .
٥٧- مجمع اللغـة العربيـة : المعجـم الـوجيز ، طبعـة وزارة التربيـة والتعليم ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م .
٥٨- محمد أبو زهرة ، الشيخ : محاضرات في النصـرانية ، دار الفكـر العربـي ، ١٩٨٧م .
٥٩- محمد سيد طنطاوي ، دكتور : هذا هو الإسلام ، هـديـة مجلة الأزهـر ، ذو القعدة ١٤٢٧هـ .
٦٠- محمد محمد حسين ، دكتور : الاتجاهـات الوطنيـة في الأدب المعاصـر ، مكتبة الآداب ، ط٢ ، ١٩٦٢م .
٦١- محمد هيشور : الأستاذ : سنن القرآن في قيـام الحضـارات وسقـوطـهـا ، دار الوفاء ، المنصورة ، ط١ ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

٦٢- موريس بوكاي ، دكتور : القرآن والإنجيل والتوراة والعلم ، جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس الغرب ، ١٩٨٣م .
٦٣- مونتجومري وات ، المستشرق : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر ترجمة دكتور عبد الرحمن عبد الله الشيخ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م .
٦٤- مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية ، ترجمة : حسين أحمد أمين ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣م .
٦٥- ميشيل كاكو ، دكتور : ما بعد أينشتين والنسبية ، ترجمة : دكتور فايز فوق العادة ، أكاديميا للنشر ، ١٩٩٠م .
٦٦- نديم الجسر ، الشيخ : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ، طرابلس ، لبنان ، بدون تاريخ .
٦٧- ول ديورانت ، المؤرخ : قصة الحضارة ، ج١ : نشأة الحضارة ، ج٢ : الشرق الأدنى ، ج١٣ : عصر الإيمان ، ترجمة : دكتور زكي نجيب محمود ، ومحمد بدران ، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ١٩٧١م ، ١٩٧٤م .
٦٨- ول ديورانت : قصة الفلسفة ، ترجمة : دكتور فتح الله محمد المشعشع ، مكتبة المعارف ، ط٥ ، بيروت ، ١٩٤٩م .
٦٩- وليم جيمس ، الفيلسوف : العقل والدين ، ترجمة : دكتور محمود حب الله ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م .
٧٠- يمنى طريف الخولي ، دكتورة : العلم والاغتراب والحرية ، مقال في فلسفة العلم من الحتمية إلى اللا حتمية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ثالثًا : دوريات :

١- مجلة عالم الفكر ، مجلد ١٥ ، أكتوبر ـ ديسمبر ، ١٩٨٤م .

رابعًا : مصادر أجنبية :

1- Oxford Keys , Oxford University Press , 1980.
2- The New Encyclopedia Britannica , Britannica Inc . fifteenth edition , printed in USA , 1988.
3-Webster'Ninth Collegiate Dictionary , Meriam Wbster Inc . Publishers , Sprigfield , USA , 1983.

الفهرس

الفصل الرابع

ما بعد ﴿ ٱقْرَأْ ﴾

(٨٣-١٠٦)

الفصل الخامس

الإله

(١٠٧-١٧٣)

الفصل السادس

الإنسان

(١٧٥-٢٢٣)

الفصل السابع

الكون ـ الدنيا

(٢٢٥-٢٥٩)

الفصل الثامن

العلم

(٢٦١-٢٨٩)

الفصل التاسع

وسائل المعرفة

(٢٩١-٣٤٢)

الإنفجار الكبير ماذا غير القرآن في العالم وماذا أحضر للإنسانية !؟

☐ الحضارة لا تبدأ إلا من رؤية متميزة للأشياء وللإنسان والكون والوجود كله ، يتبعها ظهور آثار هذه الرؤية في سلوك الإنسان وأفكاره وآرائه ونشاطه وحركته وعمله وعلمه وعلاقته بكل شئ حوله.

☐ لحظة الإنفجار الكبير التي نشأت منها وفيها الحضارة الإسلامية ، ولا يزال أثرها سارياً وباقياً في كل ما تنتجه هذه الحضارة وتثمره ، هى لحظة نزول: (اقرأ) .

☐ في هذه اللحظة ، ومع هذا الحدث بدأ الميلاد العظيم وانفجرت الطاقة الهائلة وتغير كل شئ، فلم يعد الكون ولا الإنسان ، في وجوده ومعناه وعلاقته بالإله والكون ومسيرته ومصيره ، ولا الدنيا ولا الموت وما بعده ، ولم يعد أي شئ في الوجود بعدها كما كان قبلها .

☐ (اقرأ) نموذج مكثف ونواة حضارية متكاملة تحمل داخلها كل الوحدات البنائية للحضارة والنموذج التغييري الإسلامي، كما تحمل أيضاً السمات الفريدة لطبيعة هذه الحضارة وتكوينها.

☐ المسلمون الأوائل هم النموذج الوحيد الذي غير العالم وهو واع لما يفعله. مدرك لآثاره، قاصد لها، ويحمل في عقله ونفسه منهجاً متكاملاً ونموذجاً تاماً يعمل على تفريغ آثاره في الواقع، وتحويل الحياة وتشكيلها به وفي ضوئه وعلى هداه .

اقرأ في هذا الكتاب:

☐ التوحيد الوهمي. المسألة الإخناتونية ، التوحيد بداية ونهاية ، التوحيد الخالص وآثاره .

☐ الإنسان في القرآن. هو إنسان لم تعرفه البشرية قبله، وهو غير الإنسان الذي تتوهمه أذهان غير أهله بعده ، فمن هو هذا الكائن الجديد الذي جاء به القرآن فأصبح الإنسان به هو الإنسان؟

☐ كيف حل القرآن لغز الكون وكشف حقيقته وحدد علاقته بالإله وبالإنسان بما يرضي الإنسان الذي تستقر في نفسه حقيقة الألوهية ، وهي أيضاً مفطورة على المعرفة والتطلع إلى الكون الذي تعيش فيه .

☐ القرآن ليس مجرد كتاب يحتوي معلومات وحقائق علمية سبق بها عصر نزوله، بل كان طاقة دفع فعالة ووصلة تحويل هائلة غير مسبوقة صححت مجرى العلم الطبيعي. ولولا هذا التصحيح لبقيت البشرية مكانها لا تقدم ولا تؤخر. كما كانت قبل نزول القرآن ولآلاف السنين ، ولما كان ثمة علم طبيعي ولا تقنية ، لا في الشرق ولا في الغرب .

☐ المنظومة القرآنية لوسائل المعرفة ، مولد العلم الطبيعي والتجربة الرائدة .

ومولف الكتاب ، دكتور بهاء الأمير ، له عدد من الكتب في رؤية الوجود من خلال القرآن ، وإعادة فهم الحياة وتكوينها به ، ومراجعة مسار التاريخ وقراءة أحداثه في نوره ، ومن هذه الكتب : النور المبين - رسالة في بيان إعجاز القرآن الكريم ، الوحي ونقيضه ، شفرة سورة الإسراء ، المسجد الأقصى القرآني ، اليهود والماسون في الثورات والدساتير ، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية .

☐ ويسر مكتبة وهبة نشر هذا الكتاب للباحثين عن آثار القرآن الشاملة في الوجود والحياة والتاريخ ، ليعرفوا ما هو الإنفجار الكبير ، وما الذي غيره القرآن في العالم وما أحضره للإنسانية .

ISBN 978-977-225-420-0

9 789772 254200



١٤شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦

e-mail:publisher_sultan@yahoo.com